

أهلاً بكم في عالمنا



مكتبة العربية

www.Tipsclub.net

Amly

عسك

وَأَهْلَتْ بَعْدَ الْعَمَلِ الطَّوِيلِ

الموسم

وتاهت بعد العمر الطويل

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

لا أب ولا أم

منذ تفتح وعيه وهو لا يزال طفلاً وهو يحس بأن هذه المرأة لا يمكن أن تكون أمه رغم أنه يناديها « ماما » ورغم أنه يعتمد عليها كل الاعتماد في كل مطالب حياته حتى كان يحس بالخوف إذا ابتعدت عنه فيبكي صارخاً باحثاً عنها .. ويخاف إذا اقتربت منه أى امرأة أخرى لتقدم له الطعام أو لتدله .. إنه لا يعرف امرأة أخرى غيرها .. ورغم ذلك فكلما كبر أكثر اشتد إحساسه بأن هذه المرأة ليست أمه .. ربما لأنه بدأ يحس أنه ينقصه كثير من العطف والحنان الذى يجده بقية الأولاد مع أمهاتهم .. وربما لأنه بدأ يحس أنه ليس بينه وبينها أكثر من أن يعيش معها .. إنها تمده بكل ما يزوده ليستمر حياً .. ولكنها لا تعطيه شيئاً أكثر .. إنها تضع الطعام فى فمه ثم تتركه فى ركن من الغرفة دون أن تهتم به ولو بكلمة .. وعندما كبر قليلاً أصبحت تتركه يلعب فى الحارة دون أن تهتم بما يلعبه .. فإذا أزعجها بأى شيء أو غاب عنها قليلاً فى الحارة تقابله بالضرب المبرح وهى تصيح فى وجهه ..

« الله يقطعك ويقطع اللى خلفوك » ..

وبدا يتفتح وعيه أكثر ويلحظ أنه ليس بينها وبينه أى شبه .. فلونه أبيض فاقع البياض وعيناه خضراوان وشعره أصفر .. وهى داكنة السمار وعيناها سوداوان، مبهلقتان دائماً وشعرها أسود ومنحول كأنها صلعاء .. ثم إنها عجوز ... لا يمكن أن تكون أما لمثل سنه .. لعلها جدته ..

ثم أين أبوه .. إنه يعلم الآن أن اسمه محمد عبد الله حامد .. أى أنه ابن عبد الله حامد .. فأين هو عبد الله حامد هذا .. ؟ إنه لم يره أبدا .. ولم يجس به حتى قبل أن يعي ما يراه .. وقد سألتها مرة والكلمات لا تزال تتعثر فوق لسانه :

— أين بابا يا ملما ؟

وقالت فى حدة كأنها فوجئت بسؤال ليس من حقها أن يسأله وتلوى شفيتها كأنها تنهم أن تبصق فى وجهه :

— أبوك سافر من قبل أن تولد .. ولن يعود .. ولا أحد يدري أين سافر .. وإياك أن تسأل عنه مرة ثانية .. وإلا قطعت لسانك ..

وسكت ومن يومها لا يسأل عن أبيه .. ولم يكن يجرؤ وهو فى هذه السن أن يسأل عن أمه .. فالمفروض أنها أمه ..

وقد لاحظ منذ وعى أن هذه الأم تهتم به اهتماما بالغاً فى يوم واحد من كل شهر .. فتدخله الحمام وتحميمه ثم تصفف شعره ثم تلبسه بنظوناً وقميصاً وحذاءً لامعاً ثم تصحبه إلى زيارة رجل فى مكتب فخم .. وتنحنى أمامه تحاول أن تقبل يده قبل أن يسحبها الرجل من أمام شفيتها .. وأصبحت بعد أن كبر محمد وهما فى زيارة هذا الرجل تصيح فيه قبل أن يدخلها إليه :

— قبل يد سيدك يا ولد ..

فيحاول مثلها ويحاول أن يقبل اليد الممدودة إليه ..

إنه رجل شاب .. كان يستقبل الطفل بعينين حائيتين كأنه يشفق عليه وكثيراً ما يربت عليه وهو يردد :

— كيف حالك يا محمد .. مبسوط مع أم عزيزة .. شد حيلك فستدخل المدرسة وأريد أن أفرح بك ..

وكان محمد يفرح ببقاء هذا الرجل ويحس كأنه يريد أن يتعلق به ويقبله .. بل يحس كأنه يريد أن يركب على كتفيه لينقذه من أم عزيزة ... أمه ولكن الرجل كان يتعد عنه سريعاً ويتبادل كلمتين مع أم عزيزة .. ثم يضع يده فى جيبه ويخرج مجموعة من الأوراق يعطيها لها .. يعطيها نقوداً .. لعله هو الذى ينفق عليه .. ولكن من هو ؟ وقد سأل أمه يوماً :

— من هو سيدى الذى نزوره يا ماما ؟

وقالت فى حدة كعادتها كلما ردت عليه بكلمة :

— إنه سيدى وسيدك .. وغدا تعرف فضله علينا ..

ولا تكاد تنتهى زيارة هذا الرجل حتى تخلع عنه أمه البنطلون والقميص والحذاء اللامع (وتخفيها) فى الدولاب استعداداً للشهر القادم . وتتركه بالجلباب حافى القدمين يلعب فى الحارة ..

ولم تكن زيارة الرجل الشاب الذى يحبه محمد هى كل ما تصحبه إليها أمه من زيارات .. كانت خلال الشهر تصحبه فى زيارات أخرى .. وكلها زيارات فى أحياء راقية تختلف عن الحي الذى يقيم فيه .. وشوارع واسعة ليست ضيقة كحاراتهم .. ولكنها كانت تصحبه وهو بالجلباب وقدماء جافيتان .. وتدخل أى بيت وتبقى معه جالسين فى المطبخ حيناً إلى أن تدخل عليهما سيده البيت الراقى .. ويتلقى محمد منها نظرات إشفاق .. وتمصص شفيتها حسرة عليه .. ثم قد تنحنى عليه وتقبله .. وأخيراً تقول كلمتين لأم عزيزة وتناولها مبلغاً من

المال وأحيانا تلف لها لفة كبيرة من الورق تجمع لها مختلف الأطعمة .. ويرقب محمد الصغير هذه اللفة وهو فرح .. سيأكل منها بعد أن تعود به أمه إلى البيت .. ولم تكن هذه البيوت التي يزورونها كثيرة .. ليست أكثر من ثلاثة بيوت لا تتغير — علاوة على مكتب الرجل الشاب — الذى يزورونه بعد أن تلبسه أمه القميص والبنطلون ..

وقد أصبحت أمه أو أم عزيزة مضطرة أن تلبسه القميص والبنطلون والحذاء كل يوم بعد أن أدخلته المدرسة ... وقد أحس مع مضي أيامه فى المدرسة أن زملاءه الطلبة وكلهم صغار ومعظمهم من أبناء الحى يعاملونه معاملة غريبة وكأنه شاذ بينهم .. إنهم دائما يسخرون منه .. ربما لأنه مختلف عنهم جميعا بلونه الأبيض الزاقي وشعره الأصفر .. ولكنهم يخصصونه بنوع معين من الشتائم كلما تشاجر مع واحد منهم .

يصبح واحد :

— اسكت يا بن ..

ويصبح آخر :

— عامل نفسك راجل .. ما تروح تدور على أصلك ..

وصاح أحدهم مرة :

— انت فاكرا ان أم عزيزة هى أمك .. إنها أخذتك من أمك لتشخذ

عليك ..

كلها شتائم تعبر عن موضوع واحد .. وقد ذهب مرة إلى أم عزيزة باكيا وقال لها إن التلاميذ يقولون إنها ليست أمه ..

وأم عزيزة تعرف أن كل من يعرفها يعرف أن محمد ليس ابنها .. وهى تحس أن محمد قد بدأ يكبر وأنه يوما ما سيعرف الحقيقة .. ثم إنها

بدأت تشيخ وخفت حديثها وصراحتها فى معاملتها هذا الولد .. فقالت له دون أن تشخط فيه أو تصفحه كعادتها :

— أمك ماتت وهى تذك .. وأصبحت أنا ماما .. ألا تحس بأنى أمك بعد كل ما بذلته وعانيته .. الله يسامحك ..

وقد هدأ محمد وهو يسمع هذه اللهجة المستسلمة الضعيفة التى تحدت به أم عزيزة لأول مرة .

وقال كأنه يعتذر لها :

— أنت أمى يا ماما .. ليس لى أم غيرك .. ولكن كيف أصبحت أنت أمى ؟

وتنهدت أم عزيزة فى ضيق وقالت وقد عادت لهجتها تحتد :

— كنت أعرف أمك .. ولم أتركك فى الشارع .. حرام .. فأخذتك معى كابنى .. وفضها سيرة ..

وسكت محمد .. إنها المرة الأولى التى تعترف فيها أم عزيزة بأنها ليست أمه .. لقد كان إحساسه الدائم صادقا .. وقد بدأ كل فكره

وإحساسه يتغير .. إنه يعيش باحثا فى خياله عن أمه وأبيه .. ولكنه بحث لا يتعدى الخيال .. أحيانا تمر أمام عيني امرأة بيضاء وشعر رأسها أصفر

فيتصور أنها قد تكون أمه .. وأحيانا تعطف عليه امرأة شابة من نساء الحى ويحن إليها حتى يتساءل .. لماذا لا تكون أمه ويكون قد ورث

لونه الأبيض وشعره الأصفر عن أبيه .. وربما كان أبوه أجنبيا .. خواجة أمريكانى أو إنجليزى وضعه فى بطن أمه ثم هرب .. وهو يكره لونه

الأبيض وشعره الأصفر .. إنه يحس بهذين اللونين كأنهما العلم الذى يرفعه الله فوق رأسه ليعلم فضيخته .. ليعلم أنه ابن حرام .. وكل هذه

الخيالات استأثرت به حتى عزلته عن الناس .. أصبح معروفا بأنه صبي منعزل لا يحدث أحدا ولا يرحب بمن يتحدث إليه .. ولكنه مع عزله كان يعرف بأنه تلميذ شاطر .. لم يكن يجد ما يريجه من خياله إلا أن يقرأ دروس المدرسة .. وكان ينجح ويتفوق في كل امتحان ..

إلى أن كبر .. أصبح في الخامسة عشرة من عمره .. وانتقل إلى المدرسة الثانوية .. ومنذ سنوات لم تعد أم عزيزة تصحبه معها في زيارة البيوت التي تشحذ منها عليه .. كانت تذهب وتشحذ وحدها ربما لأنها لم تعد تريد أن يلبس الجلاية ويذهب معها حافي القدمين .. ولكنها كانت تصحبه في أول كل شهر لزيارة الرجل صاحب المكتب الفخم .. ودائما يستقبله بهذه النظرة العطوفة والابتسامة المشفقة .. ويضع في يده أم عزيزة مبلغا من المال .. إلى أن شاخت أم عزيزة حتى سقطت يوما على فراشها لا تستطيع الحركة .. وكانت وحيدة .. إنها دائما وحيدة معه .. ولم ير أبدا أحدا يزورها ولم يعرف لها أبدا قريبا .. لا أخ ولا عم ولا ابن عم .. وكان إذا سألها قالت إن كل من لها من أفراد عائلتها قد مات .. حتى علاقاتها مع نساء الجيران كانت دائما متباعدة فائرة .. وقد امتنع محمد عن الذهاب إلى المدرسة وجلس بجانبها وهي راقدة إلى أن قالت له يوما بصوتها المحشرج كأنها تزفر أنفاسها :

— اسمع يا محمديا ابني .. إنني سأموت .. ولن تستطيع أن تعيش بعدى إلا إذا عرفت الحكاية كلها ..

إن أمك كانت فتاة صغيرة .. أجمل فتاة رأيتها طول حياتي .. وقد حملتك في الحرام .. واحتارت وظلت حائرة إلى أن حان موعد الوضع .. وكانت قد أخفت الخبر عن عائلتها الكبيرة حتى عن أمها .. وقبل أن تضع استطاعت أن تهرب .. وكان قد التفت حولها بعض النساء من حي المطرية .. وكلهن مجرمات ساقطات .. وكنت أعرفهن وأقيم معهن في نفس الحي .. إلى أن رأيتهن وقد جئن بأمك لتلدك عندهن .. وكنت أعرف أنهن سيهددنك بك طوال العمر .. أو قد يأخذنك ليفعلن بك ما يردن .. واستطعت أن أعرف من هي أمك .. وبعد أن وضعت استطعت أن أسرقك من هاتيك النساء .. وهربت بك .. وانتظرت أباها إلى أن تركت أمك هؤلاء النسوة فحملتك إليها .. ولكنها لا تريدك .. لقد كانت سعيدة لأنك سرقت منها .. ولا تقبل أن تعود إليها .. وعندما سألتها ماذا أفعل بك .. طلبت مني أن أفعل بك ما أريد حتى لو ألقيتك في الشارع .. وأنا لا أستطيع أن ألقى بك في الشارع .. حرام على .. واستطعت أن أصل إلى أمها .. ولكنني تأكدت أن أمها كانت تعلم أن ابنتها حامل .. ولم تهتم .. وعرفت أنها وضعتك .. ولم تهتم أيضا .. إنها تركت ابنتها حرة دون أن تكون مسئولة عن حرمتها .. إنها هي نفسها كانت حرة وكان لها حكايات بين الناس الأغنياء تنتشر حتى تصل إلى الناس الفقراء .. ورفضت هذه الأم أن تقبل حمل مسئوليتك أو حتى الاعتراف بوجودك .. إنها كانت تدعوني أن ألقى بك في الشارع .. إلى أن أنقذك الله علي يد سيدي أشرف بك الذي نذهب لزيارته كل شهر .. إنه قريب لأمك من بعيد .. وقد سمع بالحكاية صدفة .. وحاول أن يقنع أمك وستك بأن يتحملا مسئوليتك .. ولكنه

عجز .. فاتفق معي أنا على أن أحمل مسئوليتك .. على أن أكون أمك .. وهو الذى يدفع لنا ..

وقاطعها محمد قائلاً وهو يتهج تحت الضربات التى تسقط على رأسه :

— هل هو أبى ؟

وقالت الأم وزفراتها ترتفع :

— لا .. أبداً .. لو كان أباك لما تخلى عنك .. ولكنه فاعل خير ..

وقال كأنه يستحلفها :

— من هو أبى ؟

وقالت زافرة :

— لا أحد يعرف من هو أبوك .. إن أمك رفضت أن تقول لأحد

اسمه .. وسيدى أشرف بك هو الذى وفر لك كل ما تحتاج إليه حتى شهادة الميلاد .. فقد استدعى رجلاً كان يعمل ساعياً فى مكتبه واتفق معه على أن يكتبك باسمه فى شهادة الميلاد على أنه أبوك .. وكان اسمه حامد .. وكتب اسمى أنا على أبى أمك ..

وقال محمد وهو غارق فى الدخشة :

— إنى لا أرى هذا الرجل أبداً .. وقد قلت لى إن أبى سافر من قبل أن أولد ..

وقالت وزغيرها يضعف :

— لم أكن أمك إلا الكذب عليك .. وقد كانت كل مهمة هذا

الساعى ان يكتبك باسمه فى شهادة الميلاد ورفض أن يكتب اسم زوجته مع اسمه على اعتبار أنها أمك .. كان يقول إنه لا يريد أن يحمل

زوجته وزر أولاد الحرام خوفاً على أولاده .. فتحابلوا وكتبوا اسمى .. وبعد ذلك لم يحاول أن يراك .. بل إنه لم يرك أبداً .. ولا أعلم هل مات أم لا يزال حياً ..

وقال محمد وخياله يعصف به :

— وما اسم أمى ؟

وقالت أم عزيزة :

— اسمها ست موسين ..

وقال محمد فى غيظ :

— ما اسم أهلها .. وأين تقيم .. ؟

وقالت أم عزيزة وجفناها يرتحيان فوق عينيها :

— إنها من عائلة البرموني .. وكانت تقيم فى قصر النيل بجانب مستشفى قصر العيني .. ولا أدري أين تقيم الآن .. إنها منذ تركتك لى لم تسأل عنك ولا عنى ..

وسرح محمد مع خياله الذى يعصف به .. إلى أن استطردت أم عزيزة وكأنها تلفظ أنفاسها :

— إنى أموت .. وقد حكيت لك الحكاية حتى تدبر حالك .. وقد أعطيت جارتنا أم محروس عشرة جنيهات مصاريف الدفن .. دفنى .. وتحت رأسي عشرة جنيهات أخرى لك .. وادع لى يا ابنى .. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

وماتت أم عزيزة ..

وألقى محمد رأسه على صدرها يبكي .. ثم أفاق وهو مذهول كأنه لأول مرة يرى الحياة وحده .. ومد يده تحت الرأس الميت والتقط

الجنبيات العشرة ووضعها بسرعة في جيبه كأنه يخفيها ويخشى أن يراها أحد معه .. ولكنه يعتقد أن أم عزيزة كانت تملك أموالا كثيرة .. وقد رآها تجمع هذه الأموال في داخل الشلثة الملقاة على الأرض وكانت تجلس عليها .. واندفع إلى الشلثة ومزق غطاءها .. ولم يجد فيها شيئا .. لكنها أرسلت ما كانت تملكه وما جمعتها من الشحاذة عليه إلى ابنتها عزيزة التي لم يرها أبدا وكانت تقول له إنها تقيم في الصعيد .. غفر الله لك يا أم عزيزة ..

وخرج ليلبغ الخبر إلى أم محروس .. وبقي معها إلى أن دفنت أم عزيزة في إحدى مقابر الفقراء .. وقد تقدم بعض أهل الحي لتعزيته ببعض كلمات ولكن أحدا لم يكن يسأل عن مصيره ولا أحد حاول أن يخفف عنه مصيبته .. إن أم عزيزة كانت تعيش بين أهل الحارة كالوهم .. كالغفريت .. يرونها ولا يعرفونها ..

وقضى ليلته وحده لأول مرة وهو يفكر في مصيره .. لا يجب أن يستسلم للقدر .. يجب أن يعمل .. أن يتحرك .. لعله يجب أن يبدأ بزيارة أشرف بك ليعرف مصيره معه .. ونحن في أول الشهر كما تعودت أن تزوره أم عزيزة ..

واستقبله أشرف بك بنظرة العطفة المشفقة وقال له فورا :

— أين ماما ؟

وقال محمد في أسى واقعي يضح بحيرته :

— ماتت ..

واتسعت عينا أشرف بك كأنه فوجئ أكثر معا حزن وقال هامسا :

— الله يرحمها ..

ثم سكت قليلا كأنه يفكر ومحمد واقف أمامه كأنه في انتظار سماع الحكم .. إلى أن قال أشرف :

— الموضوع الآن هو تدبير حياتك .. هل تستطيع أن تقيم في نفس

البيت أم هل لديك مشروع آخر .. ؟

وقال محمد وكأنه يهم بالبكاء :

— الأمر أمرك يا سيدى .. لقد كانت المرحومة ماما تحدثني كثيرا

عن فضلك علينا ..

قالها وهو يتمنى ألا يتركه أشرف يقيم في نفس الحارة .. إنه يريد أن

يهرب بشعره الأشقر ولونه الأبيض من هذه الحارة التي عاش فيها منعزلا

عن خياله ..

وعاد أشرف وفكر قليلا ثم قال من خلال ابتسامة حزينة مشفقة :

— من الأفضل نقلك إلى مكان آخر حتى تكون قريبا منى ..

ثم ضغط على أحد الأجراس الموضوعة فوق مكتبه ، وقال للساعي

الذى دخل إليه :

— نادى أسطى عباس السائق ..

ثم قال بعد أن جاء إليه أسطى عباس :

— لقد قلت لى إن أحاك استأجر عدة شقق أقام منها بنسبونات ..

اطلب منه أن يخلي منها حجرة حالا ليقوم فيها ابنتا محمد حامد .. لقد

توفيت أم عزيزة الله يرحمها .. وكن مع محمد إلى أن يستقر في المكان

الذى تعد له .. وقل لأخيك إن الحساب على المكتب ..

وانحنى محمد يحاول أن يقبل يد أشرف كما عودته أم عزيزة ..

ووضع أشرف في يده مبلغا من المال وهو يقول له فى عطف :

— إنك الآن أصبحت مسئولا عن نفسك .. وسأتبع أخبارك دائما .. وتأتي إلى كلما احتجت شيئا ..
وتركه يخرج مع الأسطى عباس .. وغافل الأسطى عباس ونظر إلى المبلغ الذى وضعه أشرف فى يده .. إنه مبلغ كبير .. خمسون جنيهها .. هل كان كريما هكذا دائما مع أم عزيزة .. ؟ .. الله يسامحك يا أم عزيزة ..

وبدأت حياة محمد تتغير منذ بدأ يقيم فى بنسبون بحى باب اللوق .. أحس كأنه سافر إلى بلد آخر غير البلد الذى كان يقيم فيه .. بلد الحارة .. على الأقل تحرر من عقدة لونه الأبيض وشعره الأشقر .. إن هذا الحى يضم كل الألوان ويسكنه كثير من من الأجانب الخواجات فلا يبدو بينهم شاذا بلونه الأبيض وشعره الأشقر ..

ومنذ اليوم الأول وجد نفسه يسير حول مستشفى قصر العبنى باحثا عن بيت أمه التى قالت له أم عزيزة إنها كانت تقيم فيه .. بيت البرمونى .. إن عائلة البرمونى عائلة قديمة كانت من أغنى العائلات وكانت تملك أكبر المحال التجارية فى مصر .. وإن كانت قيمتها قد بدأت تهبط منذ سنوات .. وهو نفسه كان يسمع اسم البرمونى منذ كان فى الحارة .. وكان أى أب يريد أن يتباهى بما وهبه الله يقول لابنه كأنه يعده بالجنة غدا أشتري لك من البرمونى ..

وقد عرف بعد أن بحث فى حى قصر العبنى أن هذا هو بيت البرمونى .. بيت كبير مطل على النيل وإن كان قد بدأ القدم والإهمال يكسوونه .. وقد عرف أن العائلة لا تزال فيه أو على الأقل بعض من أفراد

العائلة .. وظل أيامها يذهب ويقف من بعيد يرقب من يدخل هذا البيت .. لعله يرى أمه .. لعله يعرفها بمجرد رؤياها من بعيد .. لا .. إنه لا يريد أن يرى أمه .. إنه لا يحس بإحساس من يبحث عن أمه وهو يرقب باب هذا البيت .. ولكنه يريد أن يرى هذه المرأة التى أنجبت .. يريد أن يرى أهله .. إنه يجرى وراء قصته لا وراء عواطفه .. عواطف ابن يبحث عن أمه .. فقط يريد أن يرى هذه المرأة التى بدأت بها قصته .. وموت أيام .. إلى أن رأى امرأة تخرج من القصر .. وفرفراه دهشة .. إنها لاشك أمه .. إن وجهه كما يعرفه صورة من وجهها .. اللون الأبيض الفاقع .. والشعر الأشقر .. والعينان الخضراوان .. ولكن لعل أنفه أكبر من أنفها قليلا .. ربما كان قد أخذ أنفه عن أنف أبيه .. وظلت عيناه مبهلتين فيها من بعيد إلى أن ركبت سيارة كانت قد جاءت لتأخذها واقرب بعد أن اختفت من البواب العجوز الجالس أمام البيت وقال له فى رعدة :

— هل هى سوسن هانم ؟

وصرخ البواب فى وجهه :

— مالك ومال سوسن هانم ؟

وقال محمد برعشته التى ألهمته الكذب :

— إنها صديقة لأمى ..

وقال البواب وهو يلوى شفتيه كأنه يهتق :

— احمد الله على أملك .. واغرب عن وجهى ..

وابتعد محمد وهو يسأل نفسه .. ماذا يفعل بعد أن رأى هذه المرأة .. هل يلقي نفسه عليها ويقول لها إنه ابنها .. ولكنها تنكره منذ

نزل من بطنها .. وليس لديه إثبات أو حتى يعرف شاهداً على أنه ابنها .. وقد تطرده أو تسلمه للبليس بمجرد أن تراه .. لا يمكن أن ينتظر منها أى إحساس بأمومتها .. نحوه .. إنهم يقولون إن الأمومة غريزة من غرائز المرأة .. كغريزة الأكل والشرب التى تدفع الإنسان إلى التمسك بالحياة .. ولكن أين هى غريزة الأمومة فى هذه المرأة .. لقد ألقته فى الشارع بمجرد أن ولدته كأنها تلقى فضلاتها .. ثم ما حاجته الآن إلى أم .. إنه والحمد لله يعيش بلا حاجة إلى أم .. وهى قد قلبت حياته إذا اقترب منها حتى يضيع كل ما يعيش به ..

واتخذ بينه وبين نفسه قراراً بالآلا يبحث عن أمه .. وأن يقع نفسه بأنه ابن أم عزيزة .. لقد كانت أمه فعلاً .. ورغم ذلك لم يكن يستطيع أن يمر أمام هذا البيت القديم دون أن يشد لمحاته إليه .. ولا يستطيع أن يتجاهل ما يصل إليه من أخبار عائلة البرموني .

وفى نفس الوقت قرر ألا يقول لأشرف بك إن أم عزيزة حكمت له حكايته .. إن أشرف رغم عطفه وحنانه مستمر فى معاملته على أنه ابن أم عزيزة وإن كان لا يذكرها أمامه .. ولم يحاول أن يقربه إليه أكثر .. ولم يحاول مرة أن يدعو إلى بيته ليعرفه بأولاده وهو يعلم أنه يعيش وحيداً بلا أم ولا أب .. لعل أشرف لا يحاول أن يقربه إليه أكثر حتى لا يتهم وتثور الإشاعات حوله بأنه أبوه .. وربما لو قال له إن أم عزيزة حكمت له الحكاية لأبعده عنه أكثر حتى لا يشغله بإعادة إحياء الفضيحة .. الجريمة التى ارتكبت فى حقه .. وقرر أن يبقى بالنسبة له كما كان أيام أم عزيزة ..

وقد حاول محاولة أخرى .. وهى أن يجد هذا الرجل الذى نسب إليه باسمه .. لقد قالت له أم عزيزة إنه كان يعمل ساعياً فى مكتب أشرف بك .. ولكنه لم يجد فى المكتب ساعياً يحمل هذا الاسم لعله مات أو طرد من خدمة المكتب ..

وظل محمد كما هو يعيش حياته متباعداً عن الناس .. وليس له أصدقاء وإن كان قد أصبح لا يرفض المعارف .. أصبح أكثر جرأة على مكالمة الناس بعد أن عرف أن له أصلاً .. حتى لو كان ابن حرام .. أصبح يحس بنفسه كأنه ضحية من ضحايا جريمة لا ذنب له فيها .. إنه شهيد من شهداء المجتمع المصرى .. وقد زاده هذا الاحساس بذكاء أقوى .. وقرارات أصوب .. فكان يستطيع أن يدير حياته وهو يعيش فى البسبوس وحده دون أن يزعج أحداً .. وفى كل شهر يذهب إلى أشرف بك ويأخذ مصروفه وإن كان لم يعد يحاول أن يقبل يده كما عودته أم عزيزة .. إنه يحس الآن بهذا المصروف الذى يأخذه من أشرف كأنه حق له .. لقد قالت له أم عزيزة إن أشرف بك من عائلة أمه فهو إلى حد ما مسئول عنه .. وأكثر من ذلك إنه يزداد تفوقاً فى المدرسة حتى مرت السنوات وحصل على شهادة الثانوية العامة بأعلى تقدير ..

وعندما ذهب إلى أشرف بك فرح به فرحة صادقة وقال :

— أى كلية اخترتها لبدأ دراستك الجامعية .. ؟ ..

وقال محمد وهو متعبد أن يحتفظ بوضعه بالنسبة له :

— تحت أمرك يا سيدى ..

وقال له أشرف بك وهو يقوم ويربت على كتفيه تعبيراً عن فرحته :

— إنه ليس أمرى ولكنه أمرك الذى يفرضه استعدادك وهو ابتك ..

(٢٣ — وتامت ..)

وقال محمد وهو يتصور أن أشرف بك سيختار له دراسة تصلح لأن تجعله موظفا في مكتبه وهو مكتب تصدير واستيراد .. قال وهو يحكى رأسه كأنه يحدث السلطان .. سلطان حياته :

— كنت أفكر يا سيدى فى الالتحاق بكلية الهندسة ..
وقال أشرف ضاحكا ..

— إذن الهندسة ..

ومد يده وأعطاه مبلغا كبيرا مكافأة على نجاحه .. مائة جنيه ..
وانحنى محمد يحاول تقبيل يده وهو يقول :

— أبقاك الله يا سيدى ..

وشد أشرف يده قبل أن تصل إلى شفته وهو يقول ضاحكا :

— لا تحاول أبدا من اليوم تقبيل يد أحد .. ولا أنا .. ثم لا تستعمل كلمة سيدى أبدا .. لا أحد سيدا لك .. ونادنى باسمى .. إنى اعتبرك منذ اليوم يا باشمهندس ..

وازداد محمد اعترافا بفضل وكرم أشرف بك ولو أنه ظل حريصا على أن يجعله محسبا يشفق عليه ولا واحدا من أفراد العائلة يعطيه حقه .. إن أشرف لا يعلم أنه يعرف الحكاية ..

ومرت السنوات وهو متفوق أيضا فى كلية الهندسة وتخرج من الأوائل حتى عرض عليه أن يعين معيدا وقال لأشرف وهو يحيطه بفرحته :

— لى أكفى بأن أدرس فى الجامعة أريد أن أزاو الهندسة يا أشرف

بك ..

وقال أشرف ضاحكا :

— سأخصص لك مكتبا فى مكتبى .. وسأجعل كل من فى حاجة إلى الهندسة يمر عليك ..

ولكن كل ذلك دون أن يقدمه أكثر إليه .. إنه لم يدعه أبدا إلى بيته ولم يعرفه بأولاده حتى بعد أن أصبح مهندسا ومعيدا فى الجامعة .. لعله لا يستطيع أن ينسى حكايته .. لا يستطيع أن ينسى أنه ابن حرام من بنت ساقطة من بنات العائلة ..

وقد أصبح محمد سعيدا فى الجامعة وقدمه أشرف إلى كثير من أصحاب الشركات الهندسية الكبيرة وأصبحوا يشركونه معهم فى العمليات الهندسية .. إن دخله يرتفع .. حتى إنه قال مرة لأشرف :

— إنى أتمنى أن تكلفنى مرة بعمل لك حتى أرد بعض فضلك على .. إنك أنت الذى صنعتى ..
وقال أشرف بلهجته الحنونة :

— لا أحد يصنع الآخر .. أنت الذى صنعت نفسك .. واسمع .. إن لى صديقا يحاول منذ ثلاث سنوات أن يبنى بيتا كبيرا له .. ويكاد يجر أمام متاعب المقاولين .. وقد قلت له إنى سأرسل له مهندسا أعرفه سيخبره عن كل المقاولين وعن كل المتاعب .. وكنت أقصدك أنت .. فهل تقبل ؟

وقال محمد سعيدا :

— طبعاً أقبل .. وسأعمل لك لا لصديقك ..

وقال أشرف وقد عاد إلى طبيعة رجال الأعمال :

— بكم يخرج المقاول من العملية التى يقوم بها .. ؟ ..

وقال محمد :

— أعتقد أنه يحصل على عشرة في المائة من ميزانية المشروع كأتعاب له ..

وقال أشرف في جدية :

— سأطلب من صديقي أن يخصص لك عشرين في المائة .. فإنك تنفذه من متاعب تكلمه أكثر .. بشرط ألا تأخذ إلا أتعاب ما يتم تنفيذه .. موافق ..

وقال محمد مبتسما :

— موافق طبعاً ..

وبذل محمد كل جهده وكل تجاربه وكل ذكائه في بناء هذا البيت حتى إنه استقال من مركزه كمعيد للجامعة ليتفرغ له .. وانتهى إلى بناء تحفة يدهش لها الناس ..

واشتهر محمد كمهندس تنفيذي .. ولم يعد أحد يفكر في البحث عن أصله وفصله .. ابن من ومن أى عائلة .. يكفي أنه الباشمهندس محمد حامد .. ولم يعد يعتمد على أشرف بك في أى شيء .. ولكنه ظل مواظباً على زيارته .. على الأقل في كل شهر مرة .. وكان أشرف يستقبله دائماً بفرحته وعطفه وحنانه حتى إنه أقام له المكتب الجديد الواسع الذي كان في حاجة له .. مكتب الباشمهندس محمد حامد .. ولكنه دائماً كان يحصر الحديث بينهما في دواعي العمل .. ولم يحاول أبداً أن يقيم بينهما علاقة أقرب .. ولم يكن يسأله أبداً عن حياته الخاصة .. لم يحاول مثلاً أن يسأله لماذا لم يتزوج حتى الآن .. ؟ أو يحرصه على الزواج .. إن أشرف مكتفٍ بأن يعرف عنه أنه مهندس

مقرى اسمه محمد حامد .. ربما لا يزال يحشى أن يقال عنه إنه أبوه مادام محمد لا يعرف له أباً ..

وأصبح محمد في حوالى الخامسة والثلاثين .. ونجاحه وشهرته أكبر من عمره .. وفوجئ يوماً ما في مكتبه بسكرتيره يدخل إليه ليبلغه أن سيدة تطلب لقاءه واسمها .. سومن هانم البرمونى .. وفوجئ .. إنه لا ينسى أبداً هذا الاسم .. إنه اسم يعيش معه كما يعيش اسم أم غريرة .. واسم حامد .. إنه اسم أمه .. وتردد قليلاً ثم قال للسكرتير : — دعها تفضل ..

وجلس إلى مكتبه وهو يحس أنه في حاجة لأن يكون شخصية أخرى .. ورآها .. إنه لم يرها إلا مرة واحدة .. إنها أصبحت عجوزاً .. ربما تبدو أكبر من سنّها .. فالخطوط على جبينها وتحت عينيها .. يقال إن المعجز يبدو مع اللون الأبيض أكثر مما يبدو على اللون الأسمر .. لعل المعجز سيبدو سريعاً عليه أيضاً فقد ورث اللون الأبيض عنها .. ووقف يستقبلها استقبالا فاتراً كأنه يعتمد أن يؤكد لها أنه لا يعرفها ولم يسمع باسمها .. وأشار لها إلى مقعد لتجلس عليه .. وحلست وهي تبذل فيه بكل عينيها .. ثم قالت في صوت متهدج : — إنك لا تعرفنى .. ولكنى أعرفك منذ ولدت وتبعتك في كل يوم من حياتك .. إني أملك يا محمد .. هل أحكى لك الحكاية .. ؟

وظل محمد ساكناً لا يطق وهو يفكر ماذا يفعل بها ؟ وكأنه يقاوم صغره .. واستطردت الأم قائلة وكأنها ظنت أن صغته معناه أنه يريد أن يسمعها :

— إنى يوم ولدتك كنت على وشك أن أقتل نفسى حتى لا أتخلص منك .. ولكنى وجدت الطريق الذى ينفذنا نحن الاثنين .. يتقذك بأن أحرم نفسى منك وأحرمك منى .. وأبوك تحلى عنا نحن الاثنين .. هل تعرف أباك .. ؟ .. إنه لا يزال حيا ومعروفا ..

وصاح محمد مقاطعا :

— اسمعى أيتها السيدة .. إنى أسمع عك وعن عائلتك .. وأسمع أنكم أصبحتم فى حالة صعبة .. وإذا كنت فى حاجة إلى مساعدة فلتست فى حاجة لأن تتكرى حكاية كادية حتى أشفق عليك .. سأشفق عليك بلا حكاية .. وأساعدك .. سأحصى لك مبلغا كل شهر كركاة عن نفسى .. ولكنى لا أريد أن أراك مرة ثانية .. مستصك الزكاة حيث أنت ..

وحاولت سوس أن تتكلم فصاح فيها وهو يصعط على الحرم يستدعى السكرتير :

— أرجوك .. لا أريد أن أسمع كلمة ..

ودخل السكرتير وقال له فى لهجة جدية :

— خذ عنوان هذه السيدة وطريقة الاتصال بها ..

ثم قام واقفا ومد يده بصفحتها فى برود وبكلمة واحدة ..

— مع السلامة ..

وانهمرت دموعها .. وكأنها كانت تهم بكاء طويل حتى تحن قلبه عليها .. على أمه .. ولكن السكرتير شدها من ذراعها وخرج بها .. لقد طردها يوم جاءت إليه ، كما طرده يوم جاء إليها .. يوم ولدته .. إنه لم يعد فى حاجة إلى أم بعد أن عاش حياته كلها بلا أم .. وليس فى

حاجة أيضا إلى الأب الذى همت أمه أن تقول له اسمه .. لقد عاش حياته بلا أب ولا أم .. هو الذى ولد نفسه .. ولد الياشمهندس الساجح محمد حامد ..

ولكنه من يومها وهو حريص على أن يملها بالمال كل شهر .. ويمدها بمبلغ كبير .. ربما يريد بعض كرم أشرف بك عليه .. ولعله كان كريما عليها إلى هذا الحد لا لمجرد الزكاة عن نفسه ولكن خوفا من أن تضطر أن تحكى الحكاية وتطوف على الناس تشحذ باسمه كما كانت تشحذ عليه أم عزيزة ..

ولكنه لا يراها ..

لا يريد أن يراها ..

إلى أن أصبحت تعيش الخوف

إنها لا تعيش في عائلة فقيرة ولكنها أيضا ليست عائلة غنية .. إن والدها موظف محترم وصل إلى درجة مدير عام ومرتبته يقارب المائة جنيه في الشهر كما أن له دحلا بسيطا من قطعة أرض زراعية صغيرة يملكها هو وعائلته في القرية .. دخل لا يزيد عن ألف جنيه في العام .. وكان يمكن بمرتبه ودخله أن يوفر حياة كامنة مريحة لعائلة صغيرة .. ولكنه لم يحرص على أن تكون عائلته صغيرة .. لقد أصبحت عائلة كبيرة مردحة بسعة من هلدات أكباد .. أربعة أولاد وثلاث بنات .. وهو حريص على أن يوفر لأولاده وبناته كل ما يستطيع من مطالب الحياة .. وهو لا يستطيع إلا الضروري جدا من هذه المطالب .. وأهم الضروريات في تقديره هو أن يستكمل كل مهم تعليمه .. ونفقات التعليم كانت دائما على رأس النفقات التي يحسب حسابها مهما أخذت من باقى النفقات .. والتعليم ليس محانيا كما يقال .. إنه يكلف العائلة الآن بمطالبه المزعجة ضعف ما كان يكتمها أيام رمان قبل أن يقال إن لتعليم أصبح محانيا .. وهو يعاني ويشكو دائما من مطالب العائلة .

وربما كان عيبه أنه ليس رجلا معامرا يستطيع أن يفكر ويقدم على المسئئلى يقدم عليها أغلبية الرجال للحصول على دخل أكبر .. إنه رجل شريف وموظف أمين مستسلم لما حصه القدر به .. بل إنه لا يحاول أبدا أن يناقش أحاه الأكبر فى دخل الأرض الزراعية .. كأنه يأخذ نصيبه من هذا الدخل كهبة منه لا حق ثابت يجب أن يطمش على

استمائه .. وحتى لو كان يثق فى أحبه إلى هذا الحد فهو لا يحاول أن يفكر فى مشروع حديد يريد من دحل هذه الأرض .. كمشروع لتربية النعام أو إنشاء حظيرة دجاج لاستدراار البيض وبيعه وتحقيق مكاسبه الهائلة .. أبدا .. إنه شريف أمين مستسلم لما يخصه به القدر .. لذلك امتدعت العائلة عن مستوى الأغنياء وأصبحت قريبة من مستوى الفقراء أو على الأقل فى مستوى العائلات العادية ..

وحديقة مد تفتح مع الحياة وهى تختلف عن إحوتها فى عدم الاستسلام لصيها من الحياة التى تعيشها العائلة .. إنها تنطلع إلى كل ما فى الحياة .. وتحاول أن تصل إلى كل ما تريد أن تصل إليه على الأقل للفرحة .. وهى تحد الحياة فى الشارع لا فى البيت .. وتحد معها شلل الصديقات لا مع أفراد العائلة .. وعندما شت قليلا أصبحت تمتع نفسها بصحبة الشبان .. لماذا لا تصاحبهم .. إنهم يعطونها من الحياة أكثر مما تعطياها الصديقات من البنات .. ولن يأخذوا منها شيئا إلا ما تقرر هى أن تعطيه .. وهى منذ البداية وهى تعلم ماذا يحاول الشاب أن يأخذه من البنت .. ولم يستطع أحد أبدا أن يأخذ منها ما حاول أن يأخذه .. وعلى كل حال وهى تعلم أنها ليست جميلة جمالا زاعقا تحدشه لمسة حتى لو كانت لمسة شغاه .. ولكنها تعلم عن نفسها أنها حذابة وحفيدة الدم وأنها ذكية فى استعمال حاديتها وحمة دمها .. إنها تستطيع دائما أن تحتفظ وتسيطر على كل ما تريد من كل صديق سواء كان فتى أو فتاة .. إلى هذا الحد كانت تفتتها بنفسها .. إلى حد الغرور ..

ورغم إصرارها على احتفاظها بحريتها في تحقيق كل ما تريد إلا أنها تحاول دائما الاحتفاظ بالمظاهر التي ترضى عائلتها .. فلا تتأخر كثيرا في البقاء حارح البيت .. أو تتبكر عنزا قويا مقبعا إذا تأخرت .. وتعتمد إخفاء شخصيتها الحرة عن أمها وكل إخوتها .. ورغم ذلك فليس في البيت أحد راض عنها .. والثورة عليها لا تتوقف .. وأمها تضربها أحيانا .. وأخوها الكبير ضربها مرة .. أما والدها فهو لا يعلم شيئا عنها إلا ما تكلمه من نفات .. وهم كلهم حريصون على أن يخموا عن أيهم كل شيء .. احتراماً له والدافع الأقوى هو الإشفاق عليه من أن يحملوه أيضا بلاويهم وخصوصاً بلاوى حديجة .. لقد أصحوا يعتبرونها شاذة مجبونة ويشعقون على الأب من أن يعرف أن له ابنة مجبونة ..

وكان أخوها محمود الذي يكرها مباشرة بين إخوتها الأربعة يبدو أنه يؤمن مثلها بحقه في الانطلاق إلى الحياة الأوسع .. وكان يثير في العائلة نفس نوع المشاكل التي تثيرها .. ويعتبرونه هو الآخر شاذاً مجبوماً مثلها .. وكان أقرب من في العائلة إليها .. كانت ترتاح إليه عندما تحلس إليه يتبادلان الآراء في الحياة كلها .. وكانت تصارحه ببعض ما يحدث لها مع الذين تعرفهم من الصديقات والأصدقاء .. ولكنها طمعا لا تصارحه بكل شيء .. وهما متفقان على أن الحرية هي حق للأبناء .. إن الأبناء في الدول المتحضرة وصلت حريتهم إلى حد أن أصبح من حق كل منهم أن يهجر العائلة ويعيش مستقلاً عندما يصل الواحد منهم إلى السادسة عشرة من عمره .. وهم لا يفكرون في هجرة العائلة .. بل إنها وأخاها محمود يؤمنان بأن الحرية محدودة بالحرس

على العائلة وعدم تعريضها لما يمسها .. وكان أخوها يقول لها : — إني حر مادمت لا أؤذى بحريتي أحداً .. ومادمت لا أكون أنا الحاسر بهذه الحرية .. ومادمت لا أجعل العائلة تهتم بي .. إني أعلم أني إذا اتهمت فسيهتتم بي أبى وأمى وكل إخواني .. ولذلك لا أترك نفسي لأي اتهام حتى لو كان مجرد اتهام خلقي .. ثم أنا حر مادمت ألحج في امتحان المدرسة كل عام ..

وكانت حديجة رغم كل هذه الحرية التي تتحدى بها تقاليد عائلتها تنجح في كل امتحان .. وتنجح بتفوق .. إلى أن وصلت إلى الجامعة وهي التي اختارت كلية التجارة .. أي لم تلتحق بها بحكم المجموع الذي حصلت عليه في الثانوية العامة ولكن لأن هي التي اختارتها فقد كانت تتصور أن الحياة كلها هي سوق كبيرة لا ينحج في الحصول على شيء منها إلا التاجر الشاطر .. حتى الحب .. إنه سوق واسعة لا ينحج فيها إلا من يستطيع أن يحسب حساب المكسب والخسارة وهو يتاجر بعواطفه ..

وفرضت حديجة شخصيتها في كلية التجارة .. أصبحت طالبة معروفة .. وحيويتها المتدفقة تثير حولها آراء متعارضة .. البعض يعتبرها فتاة نشطة والبعض يعتبرها فتاة منحلة .. والبعض يعتبرها خفيفة الدم والبعض يعتبرها وقحة .. والبعض يعتبرها جذابة والبعض يعتبرها مفعرة .. وهي لا تهتم بما يقال عنها .. كل ما يهمها هو الإقبال على الحياة لتحرية كل ما فيها .. فانصبت إلى كل الجمعيات التي تتكون بين الطلبة فقط لتجرب وتمتع نفسها بالتجربة .. وصادقت الكثير من الطالبات لمجرد تجربة كل منهن وما تستطيع أن تكسبه من صداقتها ..

كما صادقت كثيرا من الطلبة حتى أصبح من الصعب الحكم عليها .. هل هي لواحد منهم أم هي للجميع .. وكانت تستغل هذه الصداقة .. إن مدحت يحملها معظم الأيام في سيارته ويصل بها إلى قرب بيتها .. ويأسر يدعوها كثيرا إلى الاشتراك في رحلات جماعية خاصة يقوم بها الأصدقاء إلى الهرم أو إلى القضاير الحيرية أو إلى الإسكندرية .. وهو الذى يدفع قيمة الاشتراك .. وكثير من الأصدقاء كل منهم يقدم شيئا .. وكل منهم يريد أيضا أن يأخذ منها نظير ما قدمه .. قد يكفى البعض بحصة دمه التى تعتمد أن تدلها بمحرد وحوودها معهم .. ولكن البعض يحاول المزيد .. ولم يصل أبدا أحد إلى المزيد الذى يحاوله .. وكان مصطفى من أقرب أصدقائها وكانت تعتمد عليه كثيرا خصوصا فى مراجعة المواد الدراسية . وعندما عجز عن الوصول إلى المزيد مما يأخذها منها .. قال يفاجئها :

— سأحطبك ..

قالت ضاحكة :

— وسأحطبك أذا أيضا ..

قال جادا :

— متى أتقدم إلى العائلة ..

وردت من حلال ضحكها :

— لو عرفت العائلة فل تحطسى .. من مصدحتك ألا تعرفها

وقال محتدا :

— ماذا أفعل حتى أحطبك وبعض حضوت ..

وقالت وهي تحصف من حديثه باتسامتها :

— م. هي الخطوة ؟ . إنها صداقة معسة ..

صداقتنا معسة ومعروفة بين كل طلبة الجامعة ..

وقال وهو لا يزال محتدا :

— الخطوة هي صداقة شرعية وتعطى حقوقا شرعية عليك ..

قالت ضاحكة :

— هل تصل بنا الخطوة إلى المحاكم الشرعية .. إذن الصداقة غير

الشرعية أفضل .. ولنكتفى بالصداقة إلى أن نتحرج بعدها يحلها

حلال

وهكذا كانت دائما مع كل من يحاول أن يعطيه من نفسها أكثر ..

لا تستجيب لأحد ولا تخسر أحدا .. ولا تعطى أكثر مما تريد أن

تسبح به .. وهى لا تسمح بأكثر من اللمسات وإن كانت تضطر أحيانا

إلى الاستسلاء للمسات الشفاه ..

إلى أن بدأت الحكاية ..

كانت قد تركت الكلية وذهبت سيرا على الأقدام إلى كافيتريا

هيلتون حيث تعودت أن تلتقى بشلة من الطلبة الأغنياء يصحبون معهم

بعض الطالبات .. إنها تقضى بينهم وقتا ممتعا دون أن تتكلف شيئا ..

ولكنها بعد أحد أيامهم .. ربما تأخرت عليهم فذهبوا فى جولة من

المحولات التى تعودوها كل يوم . ورغم ذلك جلست وحدها على

مائدة دون أن تطلب لنفسها شيئا .. ليس معها ما يكفى ثمتا لطلب من

كافيتريا هيلتون واعتذرت للحرسون الذى تقدم إليها بأنها فى انتظار

أصدقاء . وبعد لحظات رأت شابا وسيما يجلس إلى المائدة المجاورة

وينظر إليها .. وعندما التقت عيناها بعينه فوجئت به يتسهم لها .. وبلا

تفكير منها ردت ابتسامته بابتسامتها منها .. يبدو عليه أنه أجسى .. وبعد عدة لمحات تأكدت من أنه أجسى .. ويبدو عليه أنه مهذب .. فابتسامته ونظراته مترددة كأنه يحجل من أن يطلقها .. أو كأن ليس من عادته المصصة للبيات والتحرؤ عيهن .. وبطيئتها المصدقة قامت من أمام مائدتها واقتربت منه قائلة في بساطة :

— هل تتكلم الإنجليزية ..

إنها تحيد الإنجليزية وقد رد عليها بالإنجليزية معككة وهو يقوم واقفا احتراماً وترحيباً بها :

— نعم .. أستطيع أن أتكم الإنجليزية .. ولكن بصعوبة ..

وحلست على مقعد من مقاعد مائدته وهي تقول في بساطة كأنها تعرفه من زمن طويل :

— اجلس ..

وجلس مستسلماً وابتسامته تتسع .. وبدأ يسهما حديث طويل .. وعرفت أنه من يوغسلافيا وأنه مهندس حاء مع شركة ألمانية تعمل في مصر .. وتأكدت أنه فعلاً شاب مهذب .. فرغم حديثها الطويل فهو لا يطلب منها شيئاً يمكن أن ترفضه وإن كانت تلمح في بطراته وهي تردده أحياناً كأنه في انتظار شيء .. ماذا ينتظر .. ربما كان يعتبرها من بنات المقاهي اللاتي يحلسن في انتظار الزبائن وخصوصاً من السواح الأحاسب .. ورغم أنها قالت له إنها طالبة في الجامعة ومن كلية التجارة فقد لا يكون قد صدقها أو لم يعتبر أن هذا سبب كاف ليحرم مما يريد منها ، فإن معظم هذا النوع من بنات المقاهي يدعين أنهن طالبات في الجامعة .. وقد يكون قد صادف قلها واحدة منهن .. وقد أبعدت هذا

الحاضر عن فكرها واستمرت تطيل الحديث معه .. وهي تحس بوع حديد من السعادة وهي بجانبه .. تحس كأنها تركت مصر كلها وأصبحت في أوروبا .. في يوغسلافيا .. إن كلا منهما يحدث الآخر عن بلده .. وهي تحس بعد أن أبعدتها حواطرها عن مصر بمزيد من حرية الاطلاق والتحرر من القيود والتقاليد المتعة التي تفرضها عليها عائنتها ومجتمع طلبة الجامعة ..

واستمر الحديث حتى عرض عليها أن يبدأ في تناول العشاء .. وفست فرحة وتولت هي الانفاق مع الحرسون على ما تطله له ولها .. كأنها هي المسئولة عنه .. وحتى عندما بدأ يدفع الحساب تولت هي مراعاة الحرسون ثم أخذت القود من يد تيتو ودفعت هي ولوى الحرسون شفتيه احتقاراً عندما رأى قيمة البقشيش الذي أعطته له .. إنها لا تفرق بين قيمة البقشيش التي يمكن أن تدفعه هي والبقشيش الذي يمكن أن يدفعه سائح من السواح .. وبعد العشاء أقعته بأن يقوموا معا ويسيرا في الشارع المظلل على الليل .. وربما قل أن يقوم معها اعتقاداً من أنها ستصحبها إلى فراشها كما تعودت بنات المقاهي .. ولكنها سارت به بطلان على الليل فترة طويلة وهي قادرة على ألا يتوقف يسهما لحديث المستمع . إلى أن استأذنته في أنها يجب أن تتركه لأن تقاليد العائلة لا تسمح لها بأن تتأخر عن البيت أكثر من ذلك واستسلمت في أدب بل وصحبها في سيارة تاكسي إلى أن وصلت به إلى الشارع الرئيسي القريب من البيت وتركته بعد أن اتفقا على اللقاء عدا في نفس المكان الذي التقيا فيه .. كافيتريا هيلتون .. ولكن في الساعة الحامسة بعد الظهر بعد أن يكون قد انتهى من عمله .. إلى هذا الحد كانت سعيدة

بهذه الدنيا الحديدية وبلى هذا احد كان قد احببت إليها .
وأصبحا يلتقيان كل يوم . واشتدت الألفة بينهما حتى أصبح اللقاء
ينتهي بهما أحيانا إلى غرفه في اصدق الذي يقبض فيه .. فصدق هيلتون .
وقد أصبحت تعطيه أكثر مما تعودت أن تعطي الشباب الذين كانت
تعرفهم . : لقد أفرطت في اللمسات التي تبيحها له .. ولكن كانت هناك
دائما حدود لا تخرج عنها .. إنها عذراء متمسكة بأن تبقى عذراء ..
وكل ما هناك أنها توفر له وسيلة يستطع أن يستمتع بها عن حاجته إلى
أى فتاة أخرى ..

وقد رآها كثير من صديقاتها وأصدقائها وهي معه .. إنها معه حتى
استغثت عنهم كلهم .. وعندما كان أحدهم يسألها عنه كانت تقول إنه
خطيبها ولكنه لم يتقدم إلى عائلتها إلا بعد أن تمت إجراءات إعلان
إسلامه .. وقد صارت تبتو بكذبتيها وقالت له .

— إنني أقول لهم إنك خطيبي وإنك في انتظار إعلان إسلامك لعل
حظوظتنا .. وهو مجرد كلام أبرر به صداقتها فانت تعلم أن مصر
لا تعترف بالحب .. ولا حتى بالصدقة بين الفتى والفتاة ..
وقال مستسلما :

— إن في يوعسلافيا كثير من المسلمين .. وأنا مستعد أن أكون
مسلمًا وتزوج ..

وفت صدقة وهي تصحح .

— ليس لأنني تصد الأوامر بعد بالزواج ..

وهي فعلا لم يكن يحظر على نالها أن تزوجه .. إنها في مستهى
سعادة الزواج .. إنها تعيش في أوروبا .. وهو أيضا لم يكن يبحر في أن

ه الروح رغم أنها تحرمه من أن يصل إلى كل ما يريد .. ولكنها هي
.. ست تعامه كأنه أصبح روحها خصوصا بالتدخل في تنظيم
.. الحاصة .. كانت حريصة على ألا تتركه يتعامل أو يعامله الناس
على أنه سائح أجنبي يمكن ابتزازه فكانت هي التي تتولى المعاملات نيابة
.. لا يفرط في ملهم واحد من نقوده .. بل إنها فكرت أن تنقله من
.. هيلتون بعد أن عرفت قيمة الإبحار الذي يدفعه ولا أنها تأكدت من
شركة التي يعمل بها هي التي تدفع تكاليف إقامته .. وهو أيضا كان
مستسلما لها كزوج مهابد مطيع .. وتعود أن يخرج من حبه حافظة
عوده ويعطيها لها لتتولى هي الدفع .

في يوم وبعد المغرب وكانت الشمس قد غابت وبدأ الليل
.. القمر يضيئ كداسيسر في شارع السيل ووصلا بعيد
.. حشنة حتى يردحها صادق .. ورأت مركب صغير من مراكب
.. تحت حجب أشخاص وحضر على نالها أن تركب فيه هي وحبيها
يتمتعان بمر القمر يسكن في مياه الليل .. ونزلا إلى المركب ووقف
.. أن يرحب ويهلل . إنه شاب طويل عريض غليظ الصوت ..
.. بعض كلمات وقيل أن يركب معه فاست .

— كم تأخذ لمرهة قصيرة

.. وهو يسلم انضمامه عميقة

.. بحر .. به أميد مضوي

.. قالت في صوت جازم يرفض لنفاش

— لا . استبق مقدم . كم تريد ؟

وبل صوته العليظ

— عشرة جيهايات يا ست

وتسمت ساحرة .. لاشك أنه اكتشف أن حببها أحسى
حواجة .. سائح من السواح الذين يترهم كل من يقترب منهم .
وقالت :

— لا أكثر من حبيب .. وإذا بقى معك أكثر من نصف ساعة
سعطبك حشيش .. ونظر إليها في غل كأنه يتهمها بالوقاحة وقال كأنه
بهرها

— لا يمكن يا ست

فوت في إصرار :

— هذا كل ما يمكن ..

وبعد كينات قد كأنه يريد أن يكسبهما .

— عوصا على الله . تفصلا .

وركب المركب وحلست على حافتها منتصفة بحسبها ودرعه ينف
كسبها . ولم يرفع المراكبي القمع وأحد يحدف بهما بالمحذاف .

وقالت :

— ألا ترفع القمع .. ؟

وقال وهو يحدف :

— انجواء نائم هذه الليلة وليس فيه ما يدفع القمع والمركة في
المحدف ..

ووصل بالمركب إلى منتصف عرض الليل ثم توقف عن
التحذيف ووضع يده في حبه والقارب يهتز فوق صفحة الليل
وأخرج سيحارة وأشعلها واعتدل في حسنة كأنه يوى أن يستريح :

ووقف في دهور .

— لماذا توقفت .. ؟

وقال وهو يحدف دحان سبيحاته :

— أسكنكم قليلا .

وصاحت حديحة في رعب :

— ماذا نيسا وييت من كلام ؟

وقال بعد أن أطلق بصقة في الماء :

— أليس من الحرام أن تكوني مع الحواجة ضد العلابة أساء بذك

ماذا كان يهملك لو دفع إلى الحواجة مهما دفع ..

قالت وهي ترتعش :

— هذا كان لم يحدث ما اتفقنا عليه فعدنا وستأخذ لحبيه لذي

حضا عليه روعه أنه لم يمس عينا في المركب سوى دقائق .. وصحلت

لمراكبي صحكة كأنها طرقة السياط :

— لم يعد ما آخذه حبيبها .. ولا حتى العشرة الجيهايات التي صتها

ن سآحد كل ما في حيوب الحواجة وكل ما في حقيقتك .

وحبيبها تبتو بد يتكلم بالنعمة لإلحيرية ثم تقلت منه ويتكلم لبعته

ع عسلافية .. يريد أن يعرف سر ما حدث وقالت له حديحة هي كلمة

خاصة م يطالب به المراكبي ثم قالت للمراكبي .

— سأصرح وصراحي سبصل إلى كل من على الشاطئ .. عد

سا .

قال المراكبي صاحكا صحكة ساحرة :

سر ما اهتر القارب وأنت تصرحين وانقلب .. والله يرحمكما مني ..

واشدت رعدة حديحة .. إنها لو سقطت في النيل فستموت هي وحبيها .. إنها لا تعرف السباحة . ولا حبيها أيضا .. وسيعرقان ويموتان .. وبكت من الخوف . وقالت من خلال دموعها وهي ترتعش :

— حرام عليك يا ريس سنعطيك العشرة الجنيهات .. عد بنا في عرصك ..

وقال كأنه سلطان من الحس يمشي دحان سيجارته :

— قلت إنى أريد ما معكما .. ودعك من الكلام وإلا بدأت أهرى المركب ..

ومن خلال دموعها ترجمت ما يقوله المراكبي لحبيها .. وقال تيتو وصوته يرتعش هو الآخر :

— لنعطله ما يريد حتى لا يقتلنا ..

ثم مد يده في جيبه وأخرج محفظة بقوده من جيبه وناولها للمراكبي وهو يقول بصوته المرتعش وباللغة الإنجليزية :

— هذا كل ما معى ..

وأخذ المراكبي المحفظة وهو يقول لخديحة :

— قولى له أن يخلع ساعته والحاتم الذى فى إصبعه .

وترجمت تيتو الذى خلع الساعة والحاتم فوراً وناولهما للمراكبي وهو ينظر إليه فى فرح كأنه يسأله ماذا يريد أكثر .. ومد المراكبي يده فجأة والتقط حقيبة حديحة التى كانت قد تركتها بجانبها ، وفنحها وأخذ يقلب فيها ثم قال ساحرا :

إبت غلبانة .. ليس معك إلا قروش .. وقالت وصوت بكائها وجمع وبكاد يهزأ بها :

— إى والله غلبانة مع الدنيا كلها .. غلبانة حتى لو ركبت مركب فى هبة

، جمع المراكبي ما وحده فى حقيبة حديحة ووضعها فى جيبه وهو

— كوني عليك حق آخر ..

فبت وكأنها تترجح :

— أى حق .. أنا فى عرصك ..

وقال وهو ينظر إليها كأنه يهتف أن يتلعبها :

— ما يتمتع به الحواجة أنا أحق بالتمتع به .. نحن أولاد بدد .

وقالت وصوتها كأنه همس :

— ماذا تقصد .. ما هذا الذى يتمتع به الحواجة .. ؟

وقال وهو يلقي من يده عقب السيجارة :

— يتمتع بك أنت ..

ثم مد إليها وشدها من ذراعها إليه حتى أصبحت بين ذراعيه ثم مدت يده لتمسك فى أحشاء حسدها ويده الأخرى تشد شعرها حتى رفع شفتيها إلى شفتيه وهم كأنه سيأكلها .. والقارب يهتز .. وحبيها تيتو حاس مكانه وهو متعلق بكعبه بحافة المركب حتى لا يقع منها ويقول سمعت بلعته كأنه يصرح صرخات لا يسمعها إلا هو .. وألقى حراكي فجأة بخديحة بعيداً عنه وهو يقول ساحرا كأنه يبصق :

— إنك لا تستحقين . ولا تترين رحلي صعدت كصخرة الربالة .

ثم أمسك بالمجدافين وأخذ يجدف ويعود بالمركب إلى الشاطئ .. إلى أن وصل بهما وقال كأنه يشوطهما بقدمه :
— هي ستين ذاعية ..

وما كادا بضعان أقدامهما على الأرض حتى أحدا بحريان كأن هذا المراكبي بحري . راءهما في حبس أنه كان جرى بالمركب في أعماق النيل كنه يحس في دية جرى .

ونذب حديجة بعد عذاب لي لبيب كل دية حتى بعثها وورثها عن أمها . سصدع حتى أنه حه في هدوء نوبة نبي بصوبها عليها لأنها عادت متأخرة بعد الساعة الثامنة . ولكنها تستطيع أن تنام .. إن طبعها ترفض الاستسلام لما حدث لها والاعتناء بحمد الله على سلامتها .. طبيعة الفتاة المعتدة بنفسها والتي عاشت تحقق كل ما تريد دون أن تتعرض لشيء .. ودون أن تتعرض لأي إغراء .. وهي لا يمكن أن ترحم هذا المراكبي الذي اعتدى عليها وعلى حبيبها .. ولكن كيف .. كيف تسترد اعتزازها بنفسها .. كيف تنتقم .

سمع الوليس عن المراكبي .

إن لها صديقة في الجامعة اسمها مأمور قسم بوجس لخرة . تستصحبها بالتيقون وتبلغ أباها بما حدث .. إنها لا تنتقم لنفسها فقط ولكنها تحمي نية الناس من أمثال هؤلاء المحرمين .. تحمي النيات اللاتية

.. هي في قضاء متعة بريئة مع الحبيب في مركب يطير بهما فوق مياه النيل

وفي صباح اليوم التالي استطاعت أن تتصل بالمأمور وروت له ما حدث .. ولكنه قال إنها يجب أن تسجل محضرا رسميا لكلامها من بدأ في اتخاذ الإجراءات والبحث عن المراكبي .. وقالت له .. حجة بها لا تريد أن تعرف عائلتها شيئا .. إياهم لي يغفروا لها أنها البت مع عريب مركبا في النيل .. ووعدوا المأمور بأن يكون حريصا على لا يصل شيء إلى عائلتها .. وكتب المحضر لها . وبدأ الوليس بحث عن المراكبي . وهي تتصل بالمأمور دائما إلى أن عرفت أنه قصص على المراكبي وأدخل المسجن تحت الحجر .. ثم قدم للزيارة وكان يحب أن تدلي بأقوالها مرة أخرى .. واستدعيت إلى النيابة لتواجه المراكبي .. وتعمدت أن تتحاهله ولم تترك نفسها تهجم عليه وتهال عليه صرنا كما كانت تسمى .. إن القانون كفيل بأن يتقم لها .. والمراكبي نفسه كان صامتا هادئا أمامها يريد أن يظهر بمظهر البريء . سمع صوته إلا عندما كانت تحكي عن المحفظة التي استولى عليها .. فقال مقاطعا :

— ربما وقعت منكما في النيل يا ست .

ثم سمعت صوته مرة ثانية عندما كانت تحكي محاولته الاعتداء عليها .. فقال مقاطعا :

— لا يمكن يا ست .. لقد كان معك رجل ..

ووكيل النيابة ينهره حتى لا يتحرأ على المقاطعة ..

ووصل التحقيق إلى حد أن اضطرت أن تترك النيابة تستدعي حبيبها

تيتو وتسألته .. وقد اعترف هو الآخر بكل الحكاية .

وبعد الانتهاء من التحقيق بدأ يتناها بوح عيب من الحوف .

إلى المراكبي لا يراى فى السحن . ولكن قد يجرح من اسحن عد شهر أو شهرين أو بعد عدم أو عامين . فهى بتركها ويساها . إن هذا النوع من المحرمين لا يسي ولا يشارل عن الانتقاء . وربما حاول أن يتقم منها بعد أن يفرح عه .. وهو يعرف لأن اسمها لمسحل فى التحقيق .. حديحة برهان .. كما عرفت هى اسمه .. حمدان عند الواحد .. ومن السهل أن يعرف عنوانها .. لماذا يارب لم تكثف بحمد الله على رجاتها ..

والخوف يشتد بها .. حتى بدأت تفكر فى التارل عن دعوها ضد المراكبي . حمدان .. ولكهيم أهموها أن ليس من حقها أن تشارل إلا عن حقها المدسى ولكنها لا تستطيع أن تسحب الحريمة وتشارل عها .. وقالت لأبى صديقته رجل البوليس إنها خائفة من حمدان بعد أن يفرح عه فصحت وهو يقول لها ألا تحاف هؤلاء الأصاف متعودون على السحن ولا يفكرون فى الانتقام ممن يبلغ عنهم ..

ولكن الخوف يشتد أكثر .. إنها خائفة وهى فى بيتها .. وحنفة وهى فى الشارع .. وخائفة وهى فى الحلمعة .. ربما كان الحوف هو الذى جعلها تتعد عن خبيها اليوغسلافى تيتو .. لم تعد تطبيقه .. إنه إنسان ضعيف لم يستطع يوما أن يحميها وضعفه هو الذى أطمع حمدان فيهما .. رغم أن هذا الضعف كان هو الذى يريحها باستسلامه لها .

الكل ما تريد .. وكان هذا الخوف هو الذى أدى بها إلى السقوط فى .. الحنية . لأول مرة تسقط فى أى امتحان .

تعبرت كنها

بعد امتاة المعتدة بنفسها .. اندكية الحريمة . أصبحت .. سهمة .. أصبحت تعيش الحوف .. ولا تدري متى يفرح ..

لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

إن إبراهيم لا يزال يذكر أول سؤال حيره وتوحه به إلى أمه وهو لا يزال طفلاً في الخامسة من عمره .. فقد كان يرى أباه يصلي صباح كل يوم قبل أن يخرج من البيت وكان يقف حقيقاً أحياناً ويقلده في اصحاء الصلاة وله يكن أبوه يدعوه إلى الصلاة معه ولكنه كان يفرح عندما يراه واقفاً حقيقاً يقفده وبدأ أبوه يتلو صلاته بصوت مرتفع كأنه يريد من الله أن يتلوها وراءه ويحفظها معه بل إنه بلا تعمد وفي فترات متعاقبة كان يداعبه حلالها، استطاع أن يلقه صورة الفاتحة حتى حفظها في يوم سأل إبراهيم أمه، كمحرد حاطر طرأ عليه دون تعمد :

— هل الرجال وحدهم هم الذين يصلون ؟
وقالت أمه ضاحكة :

— الرجال والنساء كلهم يصلون .
وقال في دهشة :

— ولماذا لا تصلين أنت مع بابا ..
واحتضته قبله وهي تقول :

— إنني أصلي مع خالتي ليل :
وقال في دهشة :

— لماذا تصلين مع خالتي ولا تصلين مع بابا ..
وقالت وهي تمسح بيدها على شعر رأسه :

هكذا تعودت .. وتعود بابا .. ونحن الاثنان نصلي لربنا ..

.. حد ..

.. وهو يضحك لها كمادة الأطفال عندما يطلبون شيئاً :

أريد أن أراك وأنت تصلين مع خالتي ..

.. وهي تنعده عنها في حاد كأنها لا تريد أن يطيل معها الكلام :

— إيا لا نصلي في البيت ..

.. سأل بدهشة :

— أين نصلي ؟

قالت في رفق وهي تنظر إليه في لوم كأنها تسمى عليه أن يرحمها من هذه الأسئلة :

— في الكنيسة ..

ورب الكنيسة في رأسه بطين مرتفع .. إنها المرة الأولى التي يسمع فيها لفظ كنيسة. ترى ما هي الكنيسة ؟ وقال ولهمته تحمل ربة إصرار :

— أريد أن أرى الكنيسة ..

وقالت أمه وهي تقوم مبتعدة عنه :

— حاضر ..

وتركته وهو يسقط في بحر الحيرة التي عاش فيها طوال حياته .. وقد انتظر يومها حتى عاد والده إلى البيت وانتهر فرصة اختلائه به وقال له وهو يلقي بنفسه على صدره ويقبه :

— بابا .. لماذا لا تصلي في الكنيسة .

ورده أبوه وهو يضحك ويحتضنه :

— إنني أصلي في البيت أو في الحامع ..

ورن لفظ الجامع فى رأسه بنفس الطين الذى رن به لفظ الكنيسة وقال وقد اشتدت به الحيرة :

— ولكن ماما تصلى فى الكنيسة ..

وسكت الأب برهة وهو يطر فى عيسى ابنه وعياه تميضان بالحنان ثم قال كأنه قرر أن ابنه وصل إلى السرى الذى يمكن أن يواجهه فيها بواقع لم يكن يعلمه بعد :

— إن ماما مسيحية وأنا مسلم ..

وقال إبراهيم فى دهشة :

— وما الفرق ؟

وقال الأب وهو يحتضن ابنه بائسامة :

— بالسنة لنا نحن الاثنين فلا فرق .. كلانا سعيد ومرتاح

بإيمانه ..

وقال وهو غارق فى الحيرة :

— وأنا .. هل أنا مسلم أم مسيحي .

وقال الأب فى عجلة :

— أنت مسلم لأن أباك مسلم ..

وقال من خلال حيرته :

— هل لو كنت فتاة كنت أكون مسيحيًا كما ..

وقال الأب بسرعة ..

— لا .. الأباء أولاد وبنات كما يحملون اسم الأب يحملون صفة

كمسلم أو مسيحي ..

وقال كأنه يهم بالكاء :

— ولكنى أحبك وأحب ماما .. وسأكون مسلماً مثلك ومسيحياً

مثلها

وقال الأب وهو يتلع ريقه كأنه بدأ يعاني من ابنه :

— مستحيل فأنا أيضاً أحب ماما وماما تحبى وكل ما يعيش إيمانه

دون أن يكون فيه ما يعكر حبه .. ولا تشغل نفسك بهذا الموضوع ..

ودعها عني الله ..

وقال الصبى بسرعة كأنه يدافع عن نفسه :

— ماما قالت لى إن الله واحد ..

وقال الأب وهو يتعد عن ابنه :

— لا إله إلا الله .. وعندما تكر متعرف أكثر ..

وتركه والده وهو يغوص أكثر فى بحر الحيرة وقد أخذ يلح على أمه

حتى صحتته صباح يوم أخذ إلى الكنيسة ووالده يعلم دون أن يعترض

وكأنه أمر طبعى أن تصحبه إلى الكنيسة وقد جلس جانبا يستمع إلى

الترايل ويقلدها فى كل حركاتها ثم يتطلع إلى السقف وإلى الحدران

بعينيه مأخوذاً بالصور المعلقة وخرج دون أن يفهم شيئاً وليس فيه

ما يبص إحساسه إلا أنه بجانب أمه وقد عاد إلى البيت وبدأ يلح على

أبيه قائلاً :

— لقد رأيت أمى فى الكنيسة وأريد أن أراك فى الجامع ..

وكان أبوه يرد عليه قائلاً :

— أفضل أن تنتظر حتى تكبر وتذهب إلى الجامع وحدك وحتى

تكون دوافعك من إيمانك لا من إيمانى ..

ولكن إبراهيم الذي كانوا يدلّلونه باسم « برهم » أخذ يلح حتى صحبه معه في صلاة الجمعة . وأمه تعلم أنه صحبه إلى الجامع دون أن تعترض أو تعلق بكلمة وكأنه من المسيحي أن يصحب أباه إلى الجامع وقد جلس بحاجب أبيه يسمع القرآن ثم بدأ ينده في كل حرّكاته بعد أن أقيمت الصلاة ويردد مع إمام الجامع الماتحة التي كان قد حفظها ويدير عيبيه بين السقف والجدران وبين المصلين كأنه يحاول أن يكتشف شيئا يفهمه وإن كان كل ما اكتشفه وفهمه هو أن أباه كان فخورا به بين المصلين كأنه يتباهى بأنه أنجب مسلما ..

وقد سألت أباه يومها وكان هذا هو كل ما حرج به من الصلاة في الجامع :

— لماذا يجلس المصلون في الكنائس على مقاعد ويجلسون في الحوامع على الأرض .

وقال الأب مشفقا في حياء :

— إنك لم تكن في الجامع جالسا على الأرض ولكن على سجاد . وكل الأديان تركع لله ويكون ركوعها على الأرض . وإحسانك بالله يعجب إحسانك بكيف تكون وأنت متوجه إليه لأنه إحسان يعرفك إلى السماء .

ولم يستطع برهم أن يتخلص من الحيرة التي يعيش فيها وربما كان مما يعيش هذه الحيرة في نفسه أن ليس حوله ما يحرجه منها أو يعيبه عليها فأبوه وأمه عاشا كل حياتهما في أقوى وأرقى حالات الحب له يسمع منهما يوما خلافا أو نقاشا حول إسلامه أو مسيحيته بل إن كلا منهما كان حريصا على رعاية إيمان الآخر فأمه تطوى سجادة صلاة أبيه

.. وحين يحفظها ورعايتها .. بل بها اشترت له أكثر من سجادة .. بها وكانت تنهني بها كأنها اشترت نجمة مقدسة وكانت في أيام صاها تصق على البيت كله تقاليد الصيام وهي نفسها كانت تصوم أياما لا يأكل إلا مع العائلة ساعة الإفطار وإن كانت في معظم الأيام لا تسمح أن تحرم نفسها من فاجين لقهوة ومن السحائر . وكل أعياد مسيحيين يحتفل بها في البيت حتى أن أمه كانت تشتري نفسها حروف وتشرف على دجحه في عيد الأصحى وتشتري لروحها « لادها » ملابس الحديدية في العيد الصغير، وأبوه أيضا كان حريصا على رعاية مظاهر إيمان زوجته . إنه يتركها تتردد على الكنيسة كما أحب وهو فرح بيهاها ويتركها تحتفظ بالصلب الصغير فوق صدرها ولا تحسب عند أئدها بل إنه سافر مرة إلى الحارج وعاد يحمل بين الهدايا صليبا ذهبيا موشى بالقصوص ليعلقه فوق صدر حبيته متباهيا به .. وكل الأعياد المسيحية يحتفل بها البيت وعيد الميلاد .. وعيد القيامة المجيد .. وأحد السعف .. و .. وإن كانت أمه نفسها تعفيهم من امتسك بكل أيام الصيام التي لا تقدم لهم فيها أي شيء تدب فيه الروح ولا يأكلون إلا ما أعد بالرب لا بالسمن ولا بالزبد . إنها أيام طويلة صسر في عيد القيامة إلى حمنة وحسنين يوما وفي عيد الميلاد إلى أربعين يوما فكان يكفى أن يصوموا يوما أو يومين في كل عيد كما أعفنتهم مما ينهه المعالون في التدين بالصيام كل يوم أرباء وكل يوم جمعة طوال السنة .

وكل منهما كان حريصا على زيارة عائلة الآخر خصوصا في المناسبات . أبوه يذهب مع أمه لزيارة عائلتها وأمه تذهب مع أبيه لزيارة

عائلته وكانا يصحبان معهما دائما إبراهيم، وقد أحس إبراهيم أنه رغم السنوات الطويلة التي مرت على رواح أبيه وأمه فإن أمه يبدو عريدا وهو وسط عائلة أمه محتفظا مراعيًا كل كلمة ينطق بها وأمه كذلك تبدو عريبة وسط عائلة أبيه .. هي أيضا متحفظة تفرط في المحاملة .. أما هو وإخوته فكانت العائلتان تفرطان في الترحيب بهما وتذليلهما وعمرهما بالهدايا، بل كانت كل عائلة تدعو أحيانا الأولاد دون دعوة الأب والأم .. كأن كلا منهما تسعى لتأخذ هؤلاء الأولاد من العائلة الأخرى .

وقد عرف فيما بعد أن العائلتين كانتا تعارضان بعض زواج أبيه وأمه .. ولكن حينهما قاوم العائلتين حتى انتصر عليهما وتم زواجهما .. كانت أمه تهدد أحيانا بالهروب من العائلة وأحيانا تهدد بالانتحار .. وكان أبوه يتحدى كل عائلته ويردد في هدوء .. سأتنزوح ماري .. وتركتهما العائلتان يتروجان دون أى احتفال بهذا الزواج بل إن العائلتين قاضتا حضور توقيع العقد الذى تم فى مكاتب الشهر العقارى ولكن لم تمض سوى ثلاثة أو أربعة شهور حتى بدأت العائلتان تعترفان بهذا الزواج .. خصوصا بعد أن تأكدت كل عائلة من سعادة الابن والابنة وإن كان الاعتراف قد ظل حتى اليوم اعترافا من تحت الصرس وفى حدود الرسميات العائلية ..

ويتمسم برهم بينه وبين نفسه وكأنه يسخر من نفسه .. لقد كان هو أول ما رزقهما الله ولعلهما أسمياه إبراهيم حرصا على أن يرضيا العائلتين .. عائلة أمه وعائلة أبيه .. فاسم إبراهيم يجمع بين المسيحية والإسلام .. فبه يسمياه حرحس مثلا كما لم يسمياه محمدا أو أحمد

وقد مرت بإبراهيم مراحل متعددة وهو يقاوم حيرته .. مرت مرحلة قرر فيها أنه مسلم .. ويحب أن يتفرغ بإيمانه وبشخصيته للإسلام وكان .. أن يواظب على الصلاة ويصلى كل جمعة فى المسجد ويفكر فى .. منه الحق . ولم يكن فى ذلك محرد مؤمنا بالإسلام ولكنه كان .. يعتمد أن يفرض شخصية اختارها على كل الناس وعلى أمه وعلى الناس، ولكنه بعد فترة بدأ حبه لأمه يشق قلبه كأنه يظلمها ويضطهدها .. وحده نفسه وهو حريص على أداء كل شعائر الإسلام يذهب إلى كنيسة وحده بل إنه صادق القسيس ولكنها صداقة كان لها طابع خاص، فقد كان يناقشه فى الدين لا لحاجته إلى الإيمان به ولكن فقط ليعلم ماذا يؤمن أمه .. وكان يترك القسيس ويذهب ليحلى مع الشيخ مصطفى رجل الأهر الشريف وصديق والده ويحادثه طويلا وهو يريد أن يعلم ما يؤمن به أبوه .. ولكنه كان دائما أكثر صراحة وحرارة وهو ناقش أمه .. وقد قال له يوما :

— إن الإسلام يهديا إلى أن الله واحد والمسيحية أيضا تهدى إلى أن الله واحد فلماذا لا أكون مسلما مسيحيا ..

وقال له أبوه فى إشفاق :

— إن شهادة الإسلام لا تقتصر على أن الله واحد ولكنها نص على أن محمدا هو رسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . فإن لم تؤمن بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو وحده نبيك فأنت لست مسلما، وقال إبراهيم محادلا وكأنه يحادل نفسه :

— ولكن القرآن الكريم يؤكد أن عيسى هو أيضا رسول الله .. ولو .. الله قد أرسل محمدا قبل موسى لكان الإنجيل قد نص أيضا على أن (٤٨ — ونهت)

محمدا هو رسول الله .. كل من تلقى الوحي وحمل الرسالة ذكرهم القرآن .. وكلهم أنبياء .. فلماذا لا نحتسب كسنا حولهم كلهم .. وقال الأب وهو يزداد إشفاقا على ابنه :

— إن الله حكمة في التطور بالشرية وهدايتهم .. وبين المسلمين من كانوا مسيحيين وبين المسيحيين من كانوا يهودا وكانوا يتطورون وفقا لإرادة الله وكان السلي محمد هو آخر الأنبياء في آخر مراحل التطور التي أرادها الله هداية للنشر .

وقال إبراهيم في جزع :
— ولكن أُمِّي لم تتطور إلى الإسلام ..
وقال الأب في هدوء :

— الله لا يكلف نفسا إلا وسعها .. ولم تتسع نفس أمك لتتطور وعاشت نفسها هادئة مرتاحة مزدحمة بإيمانها بالمسيحية ولكنها لا ترفض حكمة الله .. فلم ترفض الإسلام كحكمة أرادها الله .. وتزوجت مسلما وأنجبت مسلما .. وقال إبراهيم في حدة :
— هل تزوجتك ماما لأملك مسلم :

وقال الأب في هدوء :

— تزوجتني لأن الله جمع بيننا لتزوجه ... الله الواحد الأحد .. وإبراهيم لا يتحرر أبدا من حيرته يسير في الحياة وكأنه نائم ولا يكف عن مناقشة نفسه في اختيار الطريق إلى أن انتقل إلى مرحلة أخرى .. مرحلة العلمانية .. إنه ليس في حاجة إلى دين سواء كان الإسلام أو المسيحية كل ما يحتاج إليه هو العلم .. والحياة كلها علم .. والأديان نفسها ليست سوى قواميس للعلم .. وقد انتهى من

.. أنه علم الإسلام وعلم المسيحية .. فليتقل متفرغا للعلوم الأخرى ..
.. بكونها الحياة إنه ليس مسلما ولا مسيحيا .. إنه عالم يبحث في أسرار الدنيا وحيل إليه أنه ارتاح ..

.. المعاناة بدأت تعاوده، معاناة الحيرة .. ووجد نفسه يهرب من أمه أنه .. هو يراه يصلي الصبح .. ويهرب من أمام أمه وهو يراها هاربة إلى الكنيسة يهرب مقاولا ما يعانيه، وكان لا يرتاح إلا عندما .. مع مدلين بة خاله ليس .. إنه لا يحس بها كمسيحية ولكنه يحس بها كأنها تكمل وجوده سواء كان مسلما أم مسيحيا .. ويحس بها كأنها أمه .. إنه يحسها بكل ما يتسع له الحب .. إن الله الواحد الأحد .. معهم .. وإذا جمع الله بين فتى وفتاة فهو سبحانه وتعالى يفرص عبيهما إعلان ارواح ..

ولم تكن معارضة العائلتين لهذا الزواج عنيفة كما عارضا زواج أمه .. أمه .. خصوصاً وأن أباه وأمه رحبا بهما كزوجين وقال إبراهيم وهو يتهدد ساحرا من تردده ..

— يبدو أن بنات عائلة أُمِّي يضعن أم فتیان الإسلام .. ولعل العائلة تنهات تملأ إسلامها حتى يستطيع فتياتنا أيضا أن يتزوجوا مسلمات .. ولكن لا .. إن الذي يغير ديه فقط ليصل إلى فتاة يريد أن يتزوجها إما يحدع ويصب عى ديه وعى الدين الذي انتقل إليه .. يحدع ويصب عى الإسلام وعلى المسيحية .. وكثير من المسيحيين أعبوا إسلامهم فقط ليتزوجوا من مسلمات .. فعاشوا صائعين لا يستطيعون أن يعيشوا الإسلام ولا يقبل منهم المسيحيون أن يكون استمرار إيمانهم

فى الخفاء كأنهم يخفون عورة .. فعاشوا ولا يعترف لهم أحد بدين ..
وتم زواج إبراهيم ومادلين ..
ووجد إبراهيم نفسه فى صيحة لينة الزفاف يقوم وبفرش السجادة
ويصلى صلاة الصبح . وقد هدأت حيرته فهو مسلم ويتطعم مستسا إلى
مادلين وهى خارجة إلى الكنيسة .. لقد تحقق له ما حققه أبوه وأمه ..
واجتمع الإسلام والمسيحية فى بيت واحد ..
ولا إله إلا الله ..

كانت غشاشة

أما هو حتى عند التعرير بأنه عين رقيباً على طلبة الكلية فى امتحان آخر العام
.. لم يتسلم عمله بعد كمدرس معيد فى الكلية .. وكان قد تخرج
من عدة الماصى ورغم أنه لم يكن من الأربعة الأوائل فى نتيجة الامتحان
.. بنصر عبيهم توريع وطيفة المعيد . إلا أن الكلية عينته معيداً ربما
لأنها فى حاجة إلى تكوين جيل جديد من المعيدىين والمدرسين
والأساتذة .. أو لأن الطلبة الأوائل أصبحوا لا يقلون على تعيينهم
لمعيدىين للمرتب الهزيل الذى يتقاضونه .. وأصبح كل منهم يحمل
شهادة تقدمه فى الامتحان ويبحث عن وظيفة فى شركة أو فى بنك .. أو
حاول أن يهرب بعلمه إلى الخارج .. خصوصاً وأن وظيفة المعيد
.. بعد نها الرهبة والوقار والاحترام الذى كان يتباهى به كل من يحصل
عنها . يكفى أن يحصل على وظيفة معيد حتى يعتبر عبقرياً تفوق على
كل الطلبة حتى اختاروه أستاذاً عبيهم .. ولكن كان هذا أيام زمان .. أما
اليوم فإن من يعين معيداً على طلبة الجامعة يضيع وسط رحام الطلبة حتى
يلدو وكأنه واحد منهم .. إنه رحام لم يعد يسمح أى مكان تظهر فيه
شخصية الأستاذ أو المعيد .. ولم يعد يتيح للأستاذ أو للمعيد علاقة
خاصة بالطلبة توفر له الهيبة والاحترام .. إنه لا يعرف أحداً من الطلبة
ولا أحداً من الطلبة يعرفه .. ويقف أمامهم ويقف محاصرته كأنه تاجر
فى سوق الكانتو يادى على بضائع قديمة ..

ورغم ذلك كان قد فرح بتعيينه معيدا في الكلية .. إنه لم يكن يتصور أنه يمكن أن يصل إلى أن يكون أقرب إلى أستاذ بالنسبة للطلبة .. فلم يكن متفرعا بدراسة والعلم وبكده كما دائما طامبا « شطرا » دكيا يستطيع أن يشرح في أى امتحان ويصل إلى درجات متقدمة محترمة حتى كان ترتيبه في التخرج الحادى عشر بين الطلبة الناجحين .. هو نفسه دهش بهذا الترتيب المتقدم كأنه فوجئ بأن يكون زملاؤه الطلبة من الخيبة والغياء حتى يتقدم عليهم إلى ترتيب الحادى عشر .

وكان قرار تعيينه قد صدر قرب نهاية العام الدراسى .. ولم يكن قد اجتمع بعميد الكلية وهيئة الأساتذة ليحددوا له اختصاصه وبرنامجه فى جداول التدريس للطلبة . ولكنه فوجئ بأن وضعوه كمراقب على الطلبة خلال الامتحانات ..

وهو يكره ظهوره بين الطلبة كرقيب عليهم .. والضلة يعتبرون الرقيب عليهم أثناء الامتحان كأنه رجل بوليس أو من رجال المحاربات .. مهمته أن يضبطهم ويقص عليهم إذا حاولوا العث أثناء إجابتهم على الأسئلة .. وهو لا يريد أن يستقبله الطلبة بعد أن أصبح أستاذا عليهم بدرجة معيد بالحذر منه أو بمحاولة خداعه حتى يتمكنوا من العث أثناء الامتحان .. بل إنه فى الواقع يؤمن بأن العث هو حق شرعى للطلبة .. فإن التعليم لا يقوم على حشو ذاكرة الطالب بالمعلومات التى يحفظها « صم » .. ويسجلها على أوراق الإجابة فى الامتحان ثم يساها بمجرد أن ينتهى من تسجيلها ويعود أجهل مما كان حتى لو نجح فى الامتحان .. إن هذا هو سر ضعف كل حريجى الجامعة .. كلهم يحملون شهادات وعقولهم فارغة من أى علم .

لأنه لم يكن قد سجل ميلاد دون أن يكون من يحفظها مسئولاً .. مولده ولا يعرف كيف ولماذا ولد .. ووسائل التعميم الحديثة بعد تعتمد على حشو ذاكرة الطالب بمعلومات عن المادة التى .. حتى يحفظها صم ويستطيع أن يرددها كما يردد السمع .. دون أن يكون له القدرة على فهم ما يردده . أو يردد بقرينة .. كما يردد فاتحة القرآن الكريم .. يحفظها لأنه كان مفروضا .. يحفظها حتى يدخل الحجة .. إن العلم الحديث أصبح الآن يعتمد على القدرة على الوصول إلى المراجع الذى يحتج إليه .. إلى العلم .. فإذا عرض عليه سؤال فليس مفروضا أن يجيب .. بل يلهأ إلى الكتاب الذى يعلم أنه يعتبر مرجعا للاطلاع عليه حتى يصل إلى الإجابة على هذا السؤال .. ومعظم الجامعات فى أمريكا اليوم تتيح للطلاب أثناء الامتحان أن يحمل معه ما يشاء من الكتب والمراجع وتتركه حرا فى تصفحها حتى يصل إلى إجابة على السؤال المعروف عليه .. ثم ماذا يفعل المحامى الكبير مثلا عندما تعرض عليه قضية .. إنه لا يكتفى أبدا بالمعلومات القانونية التى .. بها فى ذاكرته بل يبدأ فى مراجعة كتب القانون حتى يستخرج اعنه ما يحتاج لى يمكن أن يعتمد عليه فى كسب القضية لصالح موكله .. محمدا .. إنه لا يستطيع أن يبدأ فى تنفيذ مشروع إلا بعد أن يكون قد سعى من مراجعة كل المراجع التى تدله على كل التفاصيل .. وإلا اعتبر .. محمدا .. كمولا أو اعتمد على ذاكرته واكتفى بما حشاه به أباه .. دراسته الجامعية .. والطبيب .. كيف يحرق على فتح بطن مريضه دون أن يكون قد استكمل الاطلاع على كل المراجع التى تكشف له كل

أسرار هذا المرض وإلا كان كأنه يذبح مريضه .. و .. و ..
والغالب إن كل ما يحتاج إليه أثناء الامتحان هو الاستعانة بالمرجع
يصل إلى الحبوب الصحيح . ولكن هذا ممنوع .. فيضطر إلى
تسهيل مراجعه خفية والوصول إليها كأنه لص يسرقها حتى إذا ضبط
اتهم بأنه طالب غشاش وقض عليه وطرد من الامتحان .. إنه هو نفسه
كان طالبا غشاشا .. وكان من العقوبة بحيث لم يضبط وهو يغش
ولا مرة .. كان دائما أدكى من جميع المراقبين على الامتحانات .
واتسم بينه وبين نفسه وهو يتذكر أحداثا وقعت له وهو يعيش .

لقد كان لا يزال في المدرسة الثانوية .. وكان له زميل وصديق اسمه
صلاح يحسن بحانه في الفصل الدراسي .. وكان صلاح متفوقا دائما
في الرياضيات .. كالحبر والهندسة .. سيما كان هو متفوقا في العلوم
النظرية .. التاريخ والجغرافيا والمحفوظات .. وفي امتحان نصف
السنة اتفق مع صديقه صلاح على أن يتبادلا الغش .. هو يغش العلوم
النظرية وصلاح يغش الرياضيات .. وجاء امتحان التاريخ فحضر ورقة
إجابته من صديقه صلاح حتى مكه من أن يقرأ ويقل عنه كل
ما يكتبه .. ثم جاء امتحان الهندسة فإذا بصديقه يبعد عنه ورقة إجابته
ويحيطها بدراعيه وهو يكتب فيها بحيث لا يستطيع أن يصل إليها يعنيه
ويقرأ منها حرفا واحدا .. وهمس . قرب ورقته يا صلاح .. ارفع
ذراعك عن الورقة يا صلاح .. ولكن لا يرد عليه ولا يقرب ورقة إجابته
ولا يرفع ذراعه التي يحفظها بها .. وحس من العيص .. ولم يتحمل حونه
فقام وسط الامتحان وسار على صلاح ضربا .. ودهل المدرس

المشرف على مراقبة الطلبة وجاء يسأل ماذا جرى وهو يكتفه كأنه
مصل عليه .. وقال للمدرس المشرف بكل صراحة :
— لقد اتفقت معه على أن نتبادل تغشيش بعض .. وقد عش مني
.. التاريخ كلمة كلمة .. وهو الآن يرفض أن يغش الهندسة ..
وضحك المدرس لهذه الصراحة ولكنه صمم على حرمانه من
الامتحان .. ولكنه كان امتحان نصف السنة فلم يؤثر حرمانه منه في
.. وفي امتحان آخر العام .. ولكنه من يومها تعود إذا احتاج إلى
م .. يعتمد على نفسه ولا يعتمد على أي زميل له ..
وقد عرف الكثير من وسائل العث في الامتحانات .

.. استطاع أن يكس على ورقة صغيرة وبحروف دقيقة كل ما يحتاج
.. ويصون الورقة كما تصوى المروحة بحيث يكون على كل صية فيها
موضوع من المواضيع التي يحتاج إليها .. قد تشمل هذه الورقة الصغيرة
.. عشرة موضوعات . ومن السهل عليه أن يتصفحها دون أن
راها أحد من المراقبين ..

ويستطيع أن يكتب الإجابات الصعبة على كف يده .. وتبقى يده
.. حول الامتحان ولا يصحها ليقراً إلا وهو مطمئن إلى أن أحدا
..

ثم إنه وجد أفلاما من أفلام البحر الحافة طويلة ومضلعة بحيث
ستطيع أن يكتب على كل ضلع منها موضوعا من الموضوعات التي
.. سنداه يحتاج إليها في الامتحان .. إحدى الطائفت كانت تدخل
الامتحان ومعها أكثر من خمسة أفلام من هذه الأفلام كإنها سحبت
عليها كل المقرر وتغير كل قلم تكتب به مع تغير السؤال الذي تجيب

عليه .. دون أن يثير أى قلم شبهة أحد من المراقبين المشرفين على الامتحان ..

واكتشف أن بعض الطلبة يتفق قبل أن يدخل الامتحان مع حامل راجات الكوكاكولا الذى من حق الطالب أن يستدعيه أثناء الامتحان ليقدم له زجاجة يثلج بها صدره ليخفف من نار الأسئلة .. يتفق معه ويعطيه الورقة التى سجل عليها موضوعات العش .. فإذا احتاج إليها صلب من المشرف على الامتحان أن يطلب له زجاجة كوكاكولا .. ويدخل الرجل ويقدم له الزجاجة ومعها الورقة التى أعدها ليعش منها .. المهم أنه دخل الامتحان وليس معه أى ورقة تعينه على العش فكسب ثقة المراقبين وتغاضوا عن مراقبته ..

وهناك وسائل أصعب للعش .. كالكتابة على ورقة الكاربون كلمات غير مقروءة ويستطيع أن يصنعها على ظهر ورقة الأسئلة فتظهر أحروف ويقلها إلى ورقة الإجابة إذا ساعده الحظ وكان فى حاجة إليها .. بل إن عملية العش تطورت أخيرا تطورا علميا يعتمد على آخر المخترعات حتى أصبح العش يمكن أن يتم عن طريق اللاسلكى .. فيدخل الطالب إلى الامتحان وفى جيبه جهاز استقبال صغير .. وأحيانا يكون هذا الجهاز فى حجم حبة صغيرة يضعها فى داخل أذنه .. بينما يقف فى الخارج صديق له يحمل جهاز إرسال .. وتصل ورقة الأسئلة بصديق أو ناظر إلى هذا الصديق ويبدأ فى إرسال الأجوبة التى يتلقاها الطالب بجهاز الاستقبال ويسجلها فى أوراق الإجابة .. إن الطلبة وصلوا إلى آخر مخترعات العلم الحديث ..

لكن .. رغم كل ما عرفه عن وسائل العش إلا إنه لم يكن يفش .. بل إنه لا يعتبر طالما غشاشا .. كان من الدكاء بحيث يستوعب ما يدرس بسهولة .. وكان كل ما هناك أنه يتخوف أحيانا من بعض .. الذى قد تصادفه للامتحان فيصعد تحوفه بالاحتفاظ ببعض الأوراق من جيبه لعله يحتاج إليها .. وهو فخور بأنه كان يحج دائما غير معتمد من العش ..

وقف عبد العزيز يستقل الطلبة الداخلين إلى الامتحان بابتسامه واسعة وجساع من يعرفه منهم ومن كانوا ملاء له فى الدراسة وسبقهم حتى أصبح معيدا عليهم .. وهو يردد نكل منهم :

— زحج بذن الله

وبعد أن جلسوا وتلقوا راق الأسئلة وهو واقف بينهم وابتسامته مفعمة بنشوته وهى عيبه بطرات مرحة حامية كأنه يقول لهم .. العش مسوح .. ولم يحاول أن يكون فى صورة الرقيب الحاد المنتهم الذى يبدو أمام الطلبة كأنه يهددهم بأنه سيسحق كل من يحاول منهم عش .. وقد اطمأن الطلبة فعلا إلى ابتسامته واستراحوا إلى نظرة عينيه فبدأ كل منهم يمح نفسه حق العش .. ولكهم كانوا حريصين أيضا على السسر والهذوء كأنهم يحترمون موقعه منهم ولا يريدون أن يتسوا فى إخراجهم ..

وهو يقل عليه بينهم دون أن يشعرهم بأنه يراقبهم .. وقد رأى كل الوسائل التى يلجأ إليها بعضهم للعش ليس كلهم ولكن بعضهم .. كما كان لا يحاول التدخل أبدا .. أنهم لا يعيشون ولكنهم يستعيون

مرارح أعدوها .. ولم يتدخل إلا عندما رأى طالبة فى نهاية فترة الامتحان ترفع كتابا كانت تجلس عليه ثم تبدأ فى تصفحه فى حرة مكشوفة حتى يراها كل من حولها .. واقترب منها وقبل أن يتكلم رفعت رأسها إليه وقالت فى لهجة جادة :

— لقد انتهيت من كل الإجابات .. ولكنى أخرجت هذا الكتاب لأراجع ما كتبت .. أطمئن ..

ومد أصابعه وقلب فى الأوراق التى أمامها ووجدتها قد انتهت فعلا من الإجابة على كل الأسئلة قبل أن تفتح هذا الكتاب .. وقال وهو يتسم لها :

— هذا حقك .. أسف ..

وتركها تراجع ما كتبت فى الإجابة على الأسئلة بالنسبة لما فى الكتاب ..

ولكن لم يكن هذا هو كل ما حدث يومها ..

فقد كانت عفاف بين الطالبات الممتحنات ..

لقد مضى الآن عامان منذ أدمن النظر إلى عفاف .. كان فى عامه الدراسى الثالث عندما التحقت عفاف بالكلية .. ومنذ أن لمحها من بعيد وهو يدس تنمعا بعينه من بعيد .. إن كل ما فيها يشير كل شىء فيه .. يشير حياله .. ويشير إحساسه .. ويشير شهوته .. وأحيانا يتصورها كأنه يعنى معها أعية حب فى حديقة الورد .. وأحيانا يتصور أنه يصير بها علفة وصبح أدماء برنين كأنه ريس صرحاتها .. وأحيانا يتصور أنه يركع أمامها ويمسح جديها فقط ليتمتع بلمس قدميها .. وليال كثيرة كان يحلم بها وهو نائم كأنها بين أحضانه ويشند إحساسه حتى تنور لهفته إلى نهايتها

.. من حياله قطرات شبابه كأنه يضاجعها فعلا .. وأحيانا يتصور أنه .. حيد .. لماذا لا يتزوجها فعلا ؟ إنه يستطيع أن ينتظر إلى أن يتخرج .. بعض فى وظيفة ويتقدم إليها .. ولكن مستحيل .. إنه لا يمكن أن .. حيا كما لا يمكن أن يتقدم إليها ليتعرف بها .. احتفاظا باعتزازه شخصيته .. إنها منطلقة بين طلبة الكلية بجرأة عجيبة حتى أثارته .. بها كثيرا من الحكايات .. وأحيانا كان يتصورها فتاة سهلة يستطيع .. فى أن يتمتع نفسه بها .. وأحيانا يتصورها كأنها ولد وليست بتافهى لا بد أمامه أبدا إلا بين الطلبة بعيدة عن الطالبات .. وهو لا يريد أن .. يهرب منها ويتعرف بها حتى لا يضع نفسه فى هذا الرغام ويصبح طالبا عابدا من يلتفون حولها فى حين أنه حريص على أن يحتفظ لنفسه شخصية مميزة بين باقى الطلبة .. ولكنه لا يستطيع أن يتخلص من إدمانه النظر إليها .. من بعيد ..

والآن تجلس أمامه عفاف تمتحن وهو رقيب عليها .. ووقف يطر إليها من بعيد وهو يتسم متصورا أن ابتسامته لها لا تختلف عن الابتسامة التى يشرها على باقى الطلبة الممتحنين ليطمئنه .. ولكن الواقع أن ابتسامته كانت لا تكاد تصل إليها حتى تزداد لمعانا تبرق حتى يصل .. نفها إلى تحمس وجنتيها .. وكانت هى أحيانا ترفع عينها إليه وتنسم هى الأخرى ابتسامة مفتعلة ثم تفر أنفاسها كأنها فى صيق وتعود تركيز عيناها فى أوراقها .. وكان يتعجب من زفرتها.

.. ربما كانت تحاول أن تغش وتضيق بعينه المسلطين عليها .. يحب أن يقاوم إدمانه ويبعد عيناها حتى يطلق لها حرية العيش .. وإن .. ثان يتمنى أن يعرف الطريقة التى ستغش بها إذا بدأت العيش ..

وتعمد أن يتعمد من أمامها ويقف في ركن جانبي خلفها .. إنه يستطيع أن يراها من بعيد يشع إحسانه النظر إليها دون أن تستطيع أن تراه .. وبعد فترة عابرة فوجئ بأنه يراها تقوم بحركات عجيبة .. إنها تميل برأسها كأنها تنظر تحت النحلة الصغيرة التي تجلس إليها .. ثم تعود وترفع رأسها وتكتب في أوراق الإحابة .. ماذا تحتفظ به تحت النحلة .. وغير موقفه وحطاً خطوتين بحيث يستطيع أن يرى ما تحت النحلة .. وفوجئ أكثر .. إن ساقها التي تحتفظ بها تحت النحلة تكاد تكون عارية .. وكانت ترتدي « جيب » مشقوق من الأمام وتستطيع أن ترفع جانبها لتكشف عن جزء من ساقها .. إنها تعش ...

وقد كتبت المواد التي تعشاها فوق لحم ساقها .. لعلها نقلت الكتاب كله إلى ساقها فما كتبه فوقها يعطى مساحة كبيرة من لحمها .. إنها طريقة لم يسمع بها من طرق العش .. ولعلها طريقة خاصة بالظلمات لأن الطلبة لا يرتدون فساتين يمكن رفعها عن أنساقهم .. ولكن ليس هذا هو المهم .. المهم أن لحم ساقها مشير .. إنه لحم أبيض يبدو لامعاً أملس رحراراً .. وحفظت عناءه فوق اللحم الأبيض .. وأحس بروعة من الاشتواء تجتاحه .. بل أحس بأصابع يده تنقص وتفرج كأنه يعصر بها هذا اللحم .. ولا يدري لماذا أثارت هذه الساق كل هذه البروعة في إحساسه رغم أنه تعود أن يرى سيقان النساء وهن يرتدين المايوه على الشاطئ .. ولكن يبدو أن ساق اليت من تحت الفستان لها مفعول آخر هو النساء التي تكشف عنها المايوه .. وقاوم نفسه برهة ولكنه مال إلى ما لا يرام مع ما فيها .. ورأسها منح تقرأ من تحت النحلة ما كتبه

على ساقها .. وفاجأها بأن إحدى فوقها مستنداً بيد على النحلة بينما مد يده الأخرى إلى لحم ساقها العارية وضمه بين أصابعه وقال هامساً بصوت خافت وهو يحرك أصابعه فوق اللحم كأنه يتذوقه :

— هل أضطك وأنت تعش ؟

وقالت هامة في صوت مرتعش :

— حرام عليك يا أستاذ ..

وقال هامساً وأصابعه لا تزال تعصر لحمها :

— حتى أقرر مصيرك يجب أن أقرأ ما هو مكتوب على هذه الساق

حتى أتأكد من براءتك ..

ونظرت عفاف حولها في ارتعاش وعادت تهمس :

— كيف ؟

وقال في همسة سريعة :

— انظريني عند منحى الشارع بعد الامتحان .. وكوبي الآن على

حريتك .. ولا تنسى أنني سأكون الرقيب غداً أيضاً .. وهمست وهي

نستم كأنها عرفت بخبرتها ماذا يريد منها :

— حاضر ..

ورفع أصابعه عن ساقها بعد أن ضغط عليها ضغطة أخيرة وابتعد

عنها .. لا يمكن أن يكون باقي الطلبة الممنحين قد اكتشفوا شيئاً مما

حدث .. إنها مجرد طالبة تسأل الرقيب سؤالاً وهو كان يجيبها عليه

كما يحدث كثيراً أثناء فترات الامتحان ..

وانطلقت عفاف حرة مع ساقها تعش من عيناها كل ما تحتاج إليه

أسئلة الامتحان .. وهو مبتعد عنها بحيث لا تراه بعينها وإحساسه

بالاشتناء لا يهدأ .. حتى إنه لا يحس بشيء مما حوله هائما مع خياله يرسم به كل الصور التي يتخاضها ..

وانتهى الامتحان .. ونظر إليها وهي خارجة من اللجنة نظرة أقرب إلى التهديد كأنه يذكرها بما اتفق عليه وردت بظرفه مع ابتسامه سريعة كأنها تلمسه . واستطاع بعد أن جمع أوراق الممتحنين أن يعتذر لرئيس اللجنة عن بقية مهامه .. وانطلق كأنه يجرى ..

ووجدتها في انتظاره على الباصية .. وبسرعة وبدون أن يتبادل معها كلمة استدعى تاكسي ودفعها إلى داحله وهي تقول في دهشة :
— إلى أين ؟

وقال دون أن ينظر إليها وعيناه معلقتان في قفا السائق :

— لقد اتفقنا على أن أقرأ المکتوب قبل أن أتخذ قرارا ..

وظلا صامتين وإن كان قد مد يده واحتضن يدها كأنه يخاف أن تهرب منه .. أو لعله لم يكن يريد أن يحرم نفسه من قطعة من اللحم « كابر تيف » يحتفظ بشهيته مفتوحة ..
ووصل بها إلى بيته .

وقال لأمه بعد أن فتحت لهما الباب

— طالبة في الكلية سأراجع معها الامتحان اتركينا وحدنا يا أمي .
وقالت الأم مرحلة :

— ألا أقدم لكما شيئا إلى أن أعد الغداء ..

وقال عبد العزيز وهو يشد عفاف إلى غرفة الصالون :

— حسن الآن ..

• عند الباب وراءه ودفع عفاف لتجلس فوق الأريكة الواسعة وجلس

بحاسنها ومد يده يحاول أن يرفع ثوبها عن ساقها .. ولكنها مدت ذراعيها تشد ثوبها حتى لا يرفعها وهي تقول ضاحكة :

— لم يكن يبدو عليك أنك بهذه الحراة .. لماذا لم تكن أصدقاء طوال هذه الأعوام ..

وقال مقاطعا :

— أرجوك .. دعيني أقرأ ..

وقالت وهي تحاول أن تهدته بابتسامتها :

— سأقول لك ما هو مكتوب قبل أن أمسحه :

وقال وهو لا يزال يشد في الثوب .

— سأمسحه لك أنا .. سأشره بشفتي ..

واستطاعت عفاف أن تفزع من جانبها ووقفت أمامه قائلة :

— إنك غريب .. لعلك متدبئ .. ليست هذه هي الطريقة التي

تصل بها إلى قرار .. وقد كنت أنظر إليك من بعيد في الكلية وكنت أعتبرك لقوة مركزك بين الطلبة أنك مستحيل .. لم يكن يخطر على بالي أبدا أنك سهل كبقية الطلبة والأساتذة ..

ونظر إليها عبد العزيز وهو لا يزال ينهج .. ثم قال وهو يميل بظهره على مسند الأريكة كأنه يستريح مما يعاياه :

— أنا أيضا كنت أنظر إليك من بعيد وكان يبعثني عليك أنني أعتبرك فتاة سهلة .. وكنت أقاومك لأنني لا أريد أن أكون كبقية الطلبة

الملغزين حولك .. ولا أدري لماذا صغفت اليوم أمامك ..

وقالت عفاف وقد علا صوتها كأنها تدافع عن نفسها :

— أنا حرة ولكني لست سهلة .. والفتاة السهلة هي التي تستسلم

(م • • — وتاهت ..)

إرادة من تقابله .. ولكنى أنا التى أفرض إرادتى على الجميع .. وقد كنت أقل كل من يتقدم إلى صدقته من المصلحة لأبى أعبر نفسى أقوى منهم جميعا .. أنا التى أفرض إرادتى .. وقال كأنه يسخر منها :

— وما هى إرادتك التى ستفرضها على ..

وقالت متسمة وهى تعود وتحلس بجانبه وإن كانت بعيدة عنه :

— أن نبدأ من الأول .. بدأ من الصفر .. فأنا أريد أن أبدأ معك وأتمنى أن تبدأ معي .. ثم نعيش فى انتظار ما تقودنا إليه البداية ، ويجب أن أتأكد أولاً من أنك لم تستغل موقفى كعشقة لتعرض عى إرادتك ..

وقال كأنه هو الآخر يدافع عن نفسه

— كل الطالبات غشاشات .. بل إنى أعتبر الغش كأنه حق للطالب فى الامتعة بالمراجع .. ولكنى ربما من طوبى انتصرى تحججت بالعش لأصل إليك .. أنت بالذات لا أرى فائدة تعيش ..

وقالت وعياها تصوفان بكل وجهه كأنها تراه من جديد :

— إنى أحس الآن بأحاسيس عجب أحس رأسى فى حرج

إبيت

وقال منسما .

— إذا اعترفت بحاجتك إلى فهذا يعنى حق فرض إرادتى

وما أفرضه عليك هو ألا تعودى وكنتى من ساق .. السبق حرج المستعان يجب أن تحتفظ باحترامى .. وحيثما هو .. تحد نفسك فى مايوه .

.. فى حيرة مرحة :

— .. كفى فى حاجة إلى تسجيل مراجع ألجأ إليها فى الامتحان ..
« السبق أسهل ما تسجل عليها المراجع كما أنها لا تثير الشبهات ولا أحد يحظر على باله أنى أغش من ساقى .

وقاضعها ضاحكا :

— لقد أثارنى كلنى .. ولا تحافى الامتحان .. سأكون بجانبك

عتمدتى عنى .. ونبدأ من الآن ونراجع معا مادة امتحان الغد ..

عبر نفسه أسند بها واحد يدكر لها مواد الامتحان . وتركته بعد .. ثمعته .. لا يقوم بتوصيها حتى لا يبدأ بإثارة الشبهات وكلام الناس ..
حرجا .. وتركته بعد أن احتضنته كله بعينين هائمتين كأنهما تطيران .. فى سبب ..

وهو سعيد بها وبفسه .. إنها ليست كما كان يتصورها فتاة سبعة ..
معرضة فى حرارتها بين الشبان ..

إنها فتاة جادة عاقلة تستطيع إن تعرض لإرادتها .. وقد فرضت عليه أن يحيا فى البداية .. بداية الحب .. والبدية لا تسمح ولو بتبادل قبلة ..
كثيرهما أن يبدأ بالصداقة وتبادل النظرات .. وهو يوم نفسه .. لقد حصا فعلا عندما قرر أن ينفرد بها ليلتهم ساقها .. كان مجنوناً وهو حاول هذه المحادثة ..

وفى اليوم التالى ذهب إلى لجنة الامتحان مبكرا واستطاع أن يحصل على ورقة الأسئلة ثم الروى يكتب عليها إجابات مختصرة تكفى تكبير مراجعها عفاف حتى تكتب فى الامتحان إجابات صحيحة .. ثم قام بصوف بين الطلبة .. صلاب الممتحنين .. ويعتمدون على حجب كل

إرادة من تقابله .. ولكنى أنا التى أفرض إرادتى على الجميع .. وقد كنت أقدر كل من يتقدم إلى صداقته من الطلبة لأنى أعتبر نفسى أقوى منهم جميعا .. أنا التى أفرض إرادتى .. وقال كأنه يسخر منه :
— وما هى إرادتك التى ستفرضها على ..

وقالت مبتسمة وهى تعود وتجلس بحانه وإن كانت بعيدة عنه :
— أن نبدأ من الأول .. نبدأ من الصغر .. فأنا أريد أن أبدأ معك وأنتى أن تبدأ معى .. ثم نعيش فى انتظار ما تقودنا إليه البداية .. ويجب أن أتأكد أولا من أنك ستعمل موقفى كمشاشة تتعرض على إرادتك ..

وقال كأنه هو الآخر يدافع عن نفسه :
— كل الطائيات غشاشات .. بل إنى أعتبر الغش كأنه حق للطائى فى الاستعانة بالمراجع .. ولكنى ربما من طسول انتظارى تحججت بالغش لأحصل إليك .. أنت بالذات لا أى فتاة تعيش ..
وقالت وعياها تظوفان بكل وجهه كأنها تراه من حديد :
— إنى أحس الآن بإحساس عجيب .. أحس بأننى فى حاجة

إلىك

وقال منسما :

— عرفت بحادثتى إلى فهدا بعضنى حق عرض إرادتى ..
— عرفت فهدا لا تعودى وتكسب على ساقى ..
— احتفظت بحزمتى .. وحسب ..
— تحددت بحسبى ..

١٠٠

.. ذهب فى حيرة مرحلة :

— وكفى فى حاجة إلى تسجيل مراجع ألقا إليها فى الامتحان ..
— سأتأمل ما تسجل عليها المراجع كما أنها لا تثير الشبهات ..
— أحد يحظر على باله أنى أغش من ساقى ..
— فدمها صاحكا ..

— فهدا أثارتلى كلى .. ولا تخالى الامتحان .. سأكون بجانبك ..
— سمدى عسى .. وأبدأ من الآن ومراجع معا مادة امتحان الغد ..
— عسى نفسه أستاذ لها وأخذ يذكر لها مواد الامتحان .. وتركته بعد ..
— فمعه .. لا يفقه بتوصيها حتى لا يبدأ بإثارة الشبهات وكلام الناس ..
— سمدى .. وتركته بعد أن احتفظته كنه بعين هالنتين كأنهما تطيران ..
— فى سماء الحب ..

وهو سعيد بها ونفسه .. إنها ليست كما كان ينصورها فتاة سهلة معرضة فى جراتها بين الشبان ..
— إنها فتاة جادة عاقبة تستطيع أن تفرض إرادتها .. وقد فرصت عليه أنه حينما فى البداية .. بداية الحب .. والبداية لا تسمح ولو ببادل قلة ..
— أحسبها أن يبدأ بالصداقة وتبادل لطرات .. وهو يوم نفسه .. لقد حصل فعلا عندما قرر أن يفرق بها ليلتهم ساقها .. كان محبوا وهو حبيب هذه المحبولة ..

وفى اليوم الثانى ذهب إلى لجنة الامتحان مكررا واستمع أن يحصل نسي ورقة الأسئلة ثم أروى يكسب عيناها إحانات محضرة تكفى عنك ..
— مرحبا أعفان حتى تكتب فى الامتحان إجابات صحيحة .. ثم قام بخوف من الضلعة والطائيات الممتحنين ويتعمد أن ينف جانب كل

منهم ويتبادل كلمات .. إلى أن وصل إلى عفاف وألقى أمامها بالورقة التي سجل عليها الإجابات .. وقالت له هامة :

— سأكون عندك في البيت بعد الامتحان ..

وهكذا مضت كل أيام الامتحان .. يلتقي بها في بيته ويراجع معها مواد امتحان اليوم التالي .. ويزودها خلال الامتحان بكل ما تحتاج إليه لتسجح .. وبينهما كلام حلو لا ينتهي ونظرات هائلة تطير بهما .. ولكنها لا تزال مصرة على أنهما في البداية ولم يصلا بعد إلى أكثر من أن يحتضن يدها بيده ..

إلى أن كان آخر يوم في الامتحان .. وعاد إلى بيته وجلس في انتظارها كما عودته .. ولكنها لم تأت إليه .. وبدأت الوسواس تهرى عقله وتحرق في أحاسيسه .. هل تتحلى عه بمجرد أن ينتهي الامتحان .. هل تقذفه من نافذة حياتها لمجرد أنها لم تعد في حاجة إليه ..

وانتظرها في اليوم التالي أيضا .. لكنها لم تأت أمس لأنها كانت في حاجة لتستريح من دوشة الامتحان ..

ولكنها لم تأت هذا اليوم أيضا .. أين نظراتها الهائلة .. وأين يدها التي كانت ترقد في يده ليحتضنها .. وانطلقت زوبعة تعصف بأحاسيسه .. لقد كانت تقول له إنها قادرة دائما على أن تفرض إرادتها ولكنه لم يتركها تفرض إرادتها عليه .. إن إرادتها أصبحت مرتبطة بوعود بيها وبه .. وعود بأن يعتبرا نفسيهما في البداية .. وليس من حقها أن تكون حرة في التحلى عن هذه الوعود ..

وخرج يجرى كالمجنون يبحث عنها .. إنه يعرف عنوان بيتها ..

.. مع أمام بابها ساعات طويلة في انتظار أن يراها ويستولي عليها .. ولم يحسها .. ولكنه أحس بأصابع رقيقة تفر على ظهره .. كأنها تستأذنه في أن يمنح بابه .. واستدار في عصبية صدمة المفاجأة .. إنها هي .. وقد أنه قل أن يراها وجاءت إليه وعلى شفيتها نفس الابتسامة وفي عينيها نفس النظرة .. وأحس بنفسه وهو يحتضن وجهها بعينه يتنهد مسترخيا ذاته أخيرا وصل .. أخيرا وصل إليها .. وقال وكلماته ترتعش بين شفيه

— لم تأتني اليوم ولا أمس ..

وقالت وهي تبتسم ابتسامة واسعة :

— لقد انتهى الامتحان ولم أجد حجة أخرى أقنع بها نفسي لأذهب

إليها

قال وهو يمد يده يحاول أن يحتضن يدها :

— هاك حجة أكبر تدفعك إلى .. امتحان أكبر لك ولى ..

وقالت في دهشة وهي تبعد يدها عن يده :

— أى امتحان ؟!

وقال فوراً وبحماس :

— مستزوج .. وسأطليك الآن من أهلك ..

سكب برهة وابتسامتها تصيق بين شفيتها ثم قالت كأنها تتحدث معها

فيها

— إن كل ما كان يسى ويسنك حتى اليوم هو السفش في .. حانات .. ولا أعتقد أن الزواج يمكن أن يقوم على العش أو فى .. إلى العش .. لا أتصور نفسى روجة عشاشة وأت مستسلم لى

كعبانة . إن امحاح الرواح يحتمل عن امتحانات الجامعة .

وصاح في حدة :

— إني كما قلت لك لا أعترف بالعش .. ولم أعشرك غشاشة
ولكنك فكبت في حاجة أثناء الامتحان إلى مراجع قدمتها لك ..

وقالت وقد عادت ابتسامتها تنسج :

— لقد قدمت لي مراجع لامتحانات الجامعة وليست مراجع أعتمد
عليها في دراسة الرواح .. وقد قلت لك إن يحب أن يعتبر غشياً في
البداية .. وللأسف فإن هذه الحجة لا تتصور لي أكثر من حاجتي إلى
العش .

وقال في دهشة غاضبة

— ماذا تفصدين ؟

قالت وابتسامتها تنسج أكثر :

— أقصد أن تبقى كما نحن .. في البداية .. وقد تتصور إلى بعد من
افتناعنا بحققنا في العش .. ونصل إلى الاقتناع بالصدق .. صدق واقعي
وصدق واقعك مشروح .. أو تبقى كما نحن نعيش بداية ليست في
حاجة إلى أكثر من العش .. وعن إبدك ..

هذه كنهه واحتجت داخل العمارة .. وهو مدهول .. وروحه تهب أن
عصف بأحاسيسه .. ولكن على العكس من حس أنه بدأ يهدأ وكأنه
يقرب من شاطئ الأمان بعداً عن هذه البروكة . حتى لو كانت غداً
قد حذغته وأصغمه حتى يومه في عش في الامحاح وتناجح بتوقف
وحملة الذي أنقذه من التفكير في أن يتزوج غشاشه

من أطلق هذه الرصاصة؟

كان يومها في منتهى التعب وإرهاق .. كان قد ذهب إلى المطار في
صيف الليل ليعود بروحته التي تعمل مضيفة طائرات .. وهو يعلم أن
هذا قد تكرر دائماً عن موعد وصولها وخصوصاً في هذا الحظ الذي
جند من طوكيو عاصمة اليابان إلى القاهرة .. وهو يعلم منذ أن أصبح
أحد أفراد صافيه أي ضائرة تكون من بينه روحته هذه . يعلم أنه
أخيراً منعقد في موعد الوصول .. لا نتيجة حادث أو ارتباك في الطائرة
بل سبحة تصرفات أفراد طاقم الطائرة التي أصبحت كأنها تقام متفق
صبيها ومحترمة . هذا هبطت الطائرة في مطار هونج كونج مثلاً منع
في ذلك الحين أنفسهم إحارة تستمر ساعات وتركوا الطائرة وخرجوا إلى
سوق .. إن سوق هونج كونج تعتبر أرخص وأعجب سوق في العالم .
كان منهم في حاجة لشئ من ثياب . سواء يصدى ما يشتره أو يسلمه
شخصياً أو ليبيعه في السوق السوداء في القاهرة .. ثم تهبط الطائرة في
مطار القاهرة عاصمة مصر . ويترك أفراد الطاقم الطائرة
في مطار القاهرة وحدهم في أحسن حال وأحد منهم متزوجة في ميناء لا تقصر أن
حين يبه دعوة محبة كما وصلت الطائرة إليها وتقدم لهم فيها عجب
لأصعدة السببية . وبعد ساعات تقبع الطائرة إلى مطار حدة . ووجد
صيفهم يريد أن يؤذي عمة ويضيق حزن كعكة الشربف ليبدو لأمة
الشفاء ومن حينها أن حرمه وحدهم من دعوة لأمة .. ثم في

جدة كثيرا من الأصدقاء وتجد في سوقها كل ما تحتاجه مصر .. و ..
و .. وهكذا تأخر الطائرة عن موعد وصولها ..

ورغم ذلك فقد تعود مصطفى أن يذهب إلى المطار ليعود بزوجته في
الموعد المحدد رسميا .. فإن موعد التأخير ليس محلدا .. قد يتأخر
موعد وصول الطائرة ساعتين أو ثلاثا أو أربعة .. ولكن الطائرة في هذا
اليوم تأخر وصولها أكثر من عشر ساعات .. قضاهما منفلا بين مكاتب
من يعرفهم من موظفي المطار .. أو راقدا على أحد المقاعد الحشوية في
صالة الاستقبال دون أن يستطيع أن ينام أو أن يصحو ..

إلى أن وجد نفسه في اليوم التالي وهو يفقد سيارته عائدا بزوجته
هنا .. وهي نائمة على المقعد بجانبه .. فمن السهل عليها أن تنام على
مقعد السيارة بعد أن تعودت أن تنام على مقعد الطائرة .. وهو يضغط
بكل أعصابه على عجلة القيادة التي يمسك بها حتى يظل واعيا يقاوم
التعب والإنهاك .. ولا يستطيع أن ينام ولا أن يصحو ..

وقد قطع الشارع الطويل حتى أصبح على حافة القاهرة فاستدار إلى
شارع يؤدي إلى حي الأهرم .. وهو الشارع الذي يحترقه دائما ليصل
إلى بيته .. شارع مزدحم بالناس والسيارات وال عربات الكارو ..
وفوجئ بترسيكل أى بموتوسيكل له ثلاث عجلات ينحني إلى اليمين
في مواجهة سيارته .. وقائده وهو رجل عجوز يسقط أمامه على
الأرض .. وقد كان واعيا في هذه اللحظة .. واستطاع أن يوقف سيارته
قبل أن تمس هذا التريسيكل أو سائقه .. إنه متأكد أنه لم يمسه .. ولم
يكن له ذنب في كل ما حدث .. إنه يسير في خط مستقيم لم يحد
عه .. سائق التريسيكل هو الذى حاد عن طريقه وسقط أمامه .. ولكن

تحمهير تحممت حوله تسمه وتلمه وتتهمه بالقتل .. لقد قتل الرجل
عجوز .. الحنة منقاة أمام عجلات سيارته .. وحاول أن يدافع عن
نفسه .. ونزل من سيارته ليشير إلى مسافة الستيمترات تفصل بين
سيارته والتريسيكل مما يثبت أنه لم يمسه .. ولكن كل أفراد الزحام
مصمومون على أنه القاتل .. واضطر أن يدخل سيارته ويقفل الباب
يرفع الزجاج حتى لا يعتدى عليه الناس وقد يقتوبه انتقاما للقتل ..
وكـ المرور كله قد تعطل ووقف خلفه وبجانبه كل السيارات .. وقد
حاول بعض قادتها أن يقتعوا الناس بأن مصطفى مصلوم وأنه لم يمسه
بترسيكل سيارته ولكن لأحد يريد أن يقتع ويهدأ .. والثورة تشتد
حتى بدأ فريق من الأضواء يجمعون الحجارة يلقيون بها على سيارته
ويحاولون تحطيم زجاجها .. بينما هاء زوجته جالسة تصرخ وتقول
كلما كثيرا لا يسمعه أحد ..

إلى أن جاءت عربة الإسعاف وحملت حنة الرجل العجوز .. وجاء
البوليس وقضى على مصطفى وحرره للتحقيق معه بينما تبعه عشرات من
أفراد الجمهور وكل منهم متطوع لشهادة على أن هذا الرجل هو
القاتل .. وللأسف لم يتبعه أحد من قادة السيارات الأخرى الذين كانوا
مقتنعين ببراءته .. بينما زوجته تنغم من بعيد وهي تبكي ..

واستمر التحقيق طويلا .. ثلاث ساعات .. أربعة .. وقال ضابط
البوليس وهو ينتظر إلى مصطفى في إشفاق :

— إلى أرجح براءتك خصوصا بعد أن عانيت مكان الحادث
ورسمت خطوطا على الأرض تؤكد أن سيارتك لم تصطدم بترسيكل

مصاب .. ولكن هتجرحا كمالا عسى .. حسنة عشت
لا أستطيع أن أتجاهله وأتحدث

وفجأة دخلت سيدة كانت مصرة على لقاء ضابط البوليس لتدلى
بشهادة في الحادث .. وقالت فوراً دون أن تنظر إلى المتهم مصطفى :
— إن الحادث وقع أمام العمارة التي أقيم فيها وقد كنت واقفة في
الشفرة ورأيت كل شيء .. إن السيارة لم تصدم التريسيكل .. إلى
متأكدة .. رأيت كل شيء يعني ..

وأخبر مصطفى كأنه يهم بأن يبنى نفسه تحت قدم هذه السيدة
ويقبل حذاءها إنها السيدة الوحيدة التي تنهض سرعاً .. وتكسب عينا
أن تأتي إلى قسم البوليس لتقده ..
وقال ضابط البوليس بلا مبالاة :

— إذهب كيف سقط سائق على الأرض ..

وترددت السيدة برهة ثم صاحت كأنها تتحدى بوليس :

— من أين أدرى كيف سقط .. كل ما رأيته هو أنه سقط على الأرض
دون أن تمسه هذه السيارة ..

وسجل ضابط البوليس شهادة السيدة بحماية كبيرة .. وقد مصطفى
يشكره في كلمات حارة وصداقة قبل أن تنصرف .. وقد تقصت شكره
صامتة دون أن تنظر في وجهه

وقد مصطفى لقد بدأ بوليس مدى تركه حسب محاسبه وجه يرسه
إلى شخصية رحمة ..

— هذه شهادة براءتي .. ألا تستطيع أن تتركني لأعود إلى بيتي
هكذا تحت أمر التحقيق وتحت أمرك ..

وقال ضابط البوليس في إشفاق :

— هذه شهادة واحدة بين عشرات للشهادات التي تدبث ..
لا سبب أب أكتفى بها للإفراج عث .. وأن في انتظار سيرة الكشف
بني غنى المصاب .. حتى أستطيع أن أئخذ قراراً بالنسبة لك .. وقد
أرسلت الباشجاويش خصيصاً ليتعجل الكشف ..
وقال مصطفى في توسل ..

— هل تستمع رجلي أن تعود بالسيارة إلى البيت .. إنها مسيكة بعد
أن طارت ساعات ضويلة من طوكيو إلى القاهرة .. وهي لا تريد أن
تركني وتعود إلى البيت لأنها كانت السيارة معها فهي محبسة نكس
ماشترته خلال رحلتها .. وتخاف أن تترك السيارة ربما أكثر مما
تحاف أن تتركني ..

وضحت ضابط البوليس ضحكة إشفاق وقال

— لا مانع أن تأخذ زوجتك السيارة وتعود بها إلى البيت فقد رسمت
موقع الحادث .. وهذا يكفي ..

وتركته زوجته هناك وحيداً مع ضابط البوليس ..

وهو مرتج عن الحقد الذي يحل عليه يدهه التعب والإرهاق
وأعضائه كلها تكاد تكون منهته .. ويرتخي جفاه فوق عييه كأنه
نام .. لقد مضى عليه الآن أكثر من عشرين ساعة دون أن ينام .. ولكنه
لا يلبث أن يرفع جفاه عن عييه كأنما أفاقه دخول قضية جديدة عنى
حاضرة الضابط أو شخص آخر مقبوض عليه ..

وقد عييه أحيراً عنى صوت جرس تينون المصباح .. ورواه يستمع
وحاجاه يرتفعان في دهشة .. ويردد .. عربية .. عربية ..

وألقى الضابط بسماعة الطيعون ثم قال كأنه يحدث نفسه :
 — انتهى الكشف الطبي .. وقد مات الرجل .. مات مقتولا ..
 وقبل أن يصرخ مصطفى دفاعا عن نفسه .. استطرد ضابط البوليس قائلا كأنه يحدث نفسه :
 — هل تدري كيف قتل .. لقد أصابته رصاصة في منتصف قمة رأسه فقتلته .. وسقط من فوق التريسيكل مقتولا ..
 وقال مصطفى في ذهول :
 — كيف حدث هذا .. كيف يقتل في منتصف الشارع وأمام الناس .. ودون أن يدرى أحد ..
 وقال ضابط البوليس مبتسما من خلال خطوط بدأت تتجمع على جبينه كأنه يعاني من التفكير في موضوع صعب :
 — طبعا لست أنت الذى قتله .. فليس معك ولا فى سيارتك مسدس .. ثم إن وضع الرصاصة التى وجدت فى رأس القاتل لا يمكن أن تصل إليه من اتجاه جلستك داخل السيارة .. أنت برىء .. مفرج عنك .. تستطيع الآن أن تصرف .. وأقدم لك أسفى واعتذارى مما حملته لك .
 ولكن مصطفى لم ينصرف .. لقد دب فى أعصابه نشاط أنساه تعب وإرهاقه .. يريد أن يعرف كيف قتل هذا الرجل الذى اتهم هو بقتله ..
 وقال ضابط البوليس وهو لا يزال كأنه يحدث نفسه :
 — إذا كانت الرصاصة قد أصابت منتصف قمة الرأس فلا شك أنها أطلقت من أعلى .. أى من فوق موقع القاتل .. والاحتمال الوحيد فى

هذه الحالة أن تكون الرصاصة قد أطلقت من نافذة أو شرفة إحدى العمارات التى تحيط بموقع الجريمة ..
 وفحأة قفز ضابط البوليس من وراء مكتبه ثم عرج وجمع عددا من رجال البوليس حوله واستدعى سيارتين ركب فى إحدهما وسمح لمصطفى أن يركب بجانبه فقد كان ملهوبا على أن يعرف كل شيء ..
 وكان الضابط كان يبالغ فى الاعتذار لمصطفى بالاستجابة إلى لهفته .. والسيارة الثانية تتبعها محملة بأفراد قوة مركز البوليس ..
 ووصلوا إلى موقع الحادث .. ووقف الضابط يدير عينيه بين العمارات كأنه يقيس موقع كل منها .. ثم جمع القوة ودخل بها إحدى هذه العمارات .. ولم يتوقف عند الدور الأول من العمارة فاتحاه الرصاصة لا يمكن أن يبدأ من عند مستوى الدور الأول .. كان يبدأ من الدور الثانى ويدخل كل شقة ويسأل ويفتش .. كان يبحث عن أى شخص على معرفة بالقاتل .. كما كان يفتش لعله يجد مسدسا أو بندقية يمكن أن تكون قد أطلقت منها الرصاصة .. ولكنه لم يجد شيئا مما يبحث عنه فى العمارة الأولى .. وكان يترك كل شقة معتذرا لسكانها وإن كان قد أمر بالقضى على اثنين لأنه وجد فى أدراج كل منهما قطعة من الحشيش ..
 وقد قال مصطفى لضابط البوليس عندما بدأ فى هذا التفيش :
 — ألم يكن من الواجب الحصول على إذن من النيابة أولا ؟
 وقال الضابط ساعرا :
 — إذن النيابة موجود دائما .. وليس من الصالح أن تنتظر حتى يستطيع المجرم أن يخفى ما تبحث عنه ..

وبعد أن انتهى البوليس من تفتيش العمارة الأولى انتقل إلى العمارة الثانية التي تحيط بالموقع .. ووجد مصطفى نفسه يدخل مع البوليس شقة في الدور الثالث هي شقة السيدة التي تطوعت لإيقاده بالإلقاء بشهادتها .. وعرف أن اسمها فردوس .. وقد استقمت ابوليس في ساطة .. وكانت تصب في يدها بيدان في اثامة من عمره . وتلتصق بها ابنة لعلها في العاشرة . وعندما سألتها البوليس عن رجل اميت أحبات وهي تشهد في أمي .. الله يرحمه .. وعندما سألتها هل تعرف القاتل .. أحابت أنها لا تعرف حتى شكك .. فبني - تره إلا من شرفنها بعد أن سقط على الأرض .. وتم تفتيش اشقة وتم في ساطة وبمجرد إلقاء نظرات .. فلا يمكن أن يكون لدى هذه الأرملة الوحيدة أي سلاح .

وكان مصطفى طوال فترة تفتيش شقة فردوس يكرر لها شكره على تكليف نفسها مشقة الذهاب إلى مركز البوليس للمشاهدة براءته . وقال لها :

— ولو كنت أعلم أن هذه الشقة هي بيتك لمنعت البوليس من الدخول عليك وإزعاجك ..

وقالت متسمة ابتسامة تعلب عليها الحرارة .

— يا بوليس منذ بدأ تفتيش العمارة المحاورة وكل التفتيش والبيوت في انتظار التفتيش .. فلم أفاجأ بتشريفكم وإن كنت لا أدري سبب هذا التشريف .

وعاد مصطفى يعتذر لها ويكرر شكره

.. بعد بحتمل تعبه والإلمام بعد تفتيش شقة فردوس .. فعند

صديقه صابط البوليس وعاد إلى بيته وألقى بنفسه نائماً .. وكأنه لن يحس أبداً ..

ومضت ثلاثة أسابيع على الحادث دون أن يصل البوليس إلى شيء .. ولا يزال سر إطلاق الرصاصة على رأس المحور قائد التريسيكل مجهولاً .. والقضية كلها أصبحت قضية صيد مجهول .. ومصطفى لا يكف عن رواية الحادث كلما سحبت فرصة الكلام .. سواء تكلم لأحد أو تكلم مع نفسه .. ولا يستطيع أن يسي أبداً فردوس .. السيدة المحترمة التي تطوعت ونحمت المتاعب لتشهد أمام البوليس لصالحه .. إن الدنيا لا تزال تضم ملائكة وسط رحامها بالشرطي . كأنهم يهبطون من السماء لإيقاد الشر .. ماذا كان يدفع فردوس إلى التطوع لإيقاده لولا أنها ملاك وهب منه لمع الخير وإيقاد المصلوم .. وأخذ يلح على زوجته هناك بأن تصحبه لزيارة فردوس وتقديم هدية لها عثر فابحميلها وشكراً على تطوعها لإيقاده .. صحيح أنها لم تكن بسبب المباشر لإيقاده .. فقد كانت الرصاصة التي وجدت في رأس المحور لقتيل هي التي أنقذته .. ولكن يكفي أن فردوس تطوعت بمحاولة إيقاده بعد أن تحنى عنه كل الناس وهرب سائقو سيارات المدن حصروا الحادث وكانوا يستطيعون المساهمة في إيقاده .. ولم تكن هناك مقتنعة بأن تصل إلى حد زيارة فردوس في بيتها . إنها تفعل أن تنسى الحادث كله بما فيه فردوس .. ولكن مصطفى مستمر في الإلحاح عليها .. وهو لا يستطيع أن يذهب لزيارة فردوس وحده .. هـد جس لانقا . وقد تشير ريارته شكوكها .. بل قد تشير كلام الناس

فردوس لا تزال امرأة ناضجة لم تصل بعد إلى سن اليأس من أنوثتها .. وهو لا يستطيع أن يزورها إلا ومعه زوجته .. ريلة عائلية .. واضطرت هاء أن تستسلم لإلحاح زوجها وهي تزفر أنفاس الضيق .. ماذا يدفعه إلى هذا التصميم على ريلة فردوس .. إنه محنون .. والواقع أنه لم يكن هناك ما يلج على مصطفى لزيارة فردوس إلا عرفانه بحميلها الذي أسبغته عليه ولم يكن ينتظره من أحد ..

وذهب إلى فردوس في يوم إحازة لهاء من عملها كمصيفة ولا تسافر فيه على إحدى الطائرات .. وقد حملا لها « ثورته » في حجم الفطيرة الكبيرة الراهبة بالألوان ومعها هدية أخرى عبارة عن بنطلون وقميص لصبي صغير كانت هاء قد اشترتها من لندن لابن أختها ولكنها لم يتسعا لحجمه ..

واستقبلتهما فردوس بترحاب مهذب وكلماتها ترن بلهجتها البلدية .. إبهار عم مستواها المحترم فهي بنت بلد .. واستلمت الهدايا شاكراً وهي تردد من خلال فرحتها الهادئة :
— لماذا يا مت هانم .. لماذا كل هذا يا سعادة اليه .. ماذا فعلت أكثر من أن قلت ما رأيته ..

فأخذ مصطفى كعادته بعيد رواية الحادث كله ويكرر شكره لفردوس .. بينما زوجته جالسة صامتة تصيح من الزهق .. وفجأة دخل عليهم الصبي الصغير ابن فردوس الذي كان مصطفى قد لمحه واقفا في البكوة وقال لأمه دون أن يقترب من أحد من الضيوف :

— أين ممدس بابا يا ماما .. أريد أن ألعب به ..

وأرتمشت فردوس وصرخت في وجه ابنها صرخة مفاجئة :

— امش من هنا يا ولد ..

ثم عادت تصرح وتنادى انتهت الكبرى وقالت لها :

— خذى أخاك وابقى معه في الحجرة الأخرى حتى لا يزعم الضيوف ..

ومصطفى أحس بأنه فوجئ بشيء جديد .. وجحظت عياه وهو ينظر إلى فردوس كأنه يسألها .. ما هي حكاية هذا الممدس الذي كان يمسكه أب الصبي ..

وهأت فردوس قليلا بعد أن مرت بها برهة تهدجت فيها أنفاسها وقالت وهي تبذل مجهودا لتصع على شفتيها ابتسامة تبدو معتمة :

— إنه ولد متعب .. كان المرحوم والدته قد اشترى له ممدسا صغيرا كلعة يلعب بها .. وقد أضاعه .. ومن يومها وهو يسأل عن هذا الممدس .. ولا تشتري له غيره فإني لأحب أن يلعب الأولاد بالممدسات ..

وخيال مصطفى بأخذه بعيدا ويحس كأنه يرى عالما آخر أو كأنه يبدأ في رواية قصة جديدة عن كل ما حدث .. وتعهد كأنه مستمر في تبادل الحديث العائلي مع فردوس وسألها :

— متى توفي المرحوم ..

وقالت فردوس وهي تتهد في حزن تكاد تهم بالبكاء .

— منذ سبعة أشهر واثني عشر يوما ..

ثم نظرت إلى الساعة المعلقة في الحدار واستطردت :

— وخمس ساعات ..

واشترك مصطفى وزوجته هاء في عزاء فردوس والتحفيف من

حرفها على ذكرى المرحوم .. ولكن مصطفى انتهر سياق الحديث عن المرحوم وعاد يسأل :
— وماذا كان يعمل .

وأجاب فردوس كأنها تنبأه بزواجها المرحوم :

— كان محصلاً لجميع كل مستحقات الشركة . وكان معروفاً ومشهوراً بأنه في قمة الأمانة .. لقد كان يعود إلى البيت أحياناً وهو يحمل حفصة وهي مكدة بآلاف الحبيبات عشرات الآلاف .. وكان يرفض أن يفتحها أمامي لمجرد الفرجة .. كنت أتحاول عليه سرى شك استغود عندهم بكس فوق بعضه وتصبح سود .. ولكنه كان أميناً إلى حد ألا يسمح لأحد حتى أزوجه أن ترى أموال الشركة ويأخذ لمجرد نصرة .

واستمع مصطفى وحياله يأخذه إلى بُعد

وانتهت زيارة فردوس وأخذ يقود سيرته وروحه بحسنه دون أن يصف بحرف واحد على غير عذته وهو معروف عنه من أنه لا يكف عن الكلام ..

إنه مأخوذ بحياله ..

إنه يعرف الآن من أين انطلقت الرصاصة التي أصابت العجور الذي كان يقود التريسيكل وقتلته .

إن زوج فردوس كان محصلاً .. والمحصولون خصوصاً الذين عسيه تحصيل مبالغ كبيرة بحسب دشم سلاح مرصع يدفع به عن نفسه وعما يحمله من أموال إذا طمع أحد في سرقته .. وقد مات زوج

فردوس وترك وراءه سلاحه .. المسدس .. وبعل الشركة التي كان يعمل فيها تصدق باسترداد هذا المسدس بمذموب النقود .. أو لعله كان ملكاً خاصاً له .. وأهملت فردوس هذا المسدس وتركته بين مخلفات زوجها ملقى في الدولاب أو أدراج البيت .. والتفتت إليها الصغيرة الذي لم يتجاوز الثامنة من عمره وأحد يلعب به دون أن تهتم أمه ودون أن تكشف عن داخل هذا المسدس لتؤكد من خلوه من الرصاص القتال . أو لعلها كشفت عنه ولم تنبه أنه لا تزال فيه رصاصة .. وإنها يلعب بالمسدس وهو واقف . في الشرفة مقلدا الأعلام التي يراها في السيريون .. مقلداً .. بطل .. وضغط على الزناد .. وانطلقت الرصاصة وقتل الرجل العجور

ولاشك أن أمه كانت واقفة بجانب ابها في الشرفة .. ورأت القتل بسفط .. رأت ساس نهجه على مصطفى ونهجه بأنه صدم العجور بسيارته وقسه . وتحرك قسها الضيق وإيمانها بالله . إن ابها قتل الرجل العجور .. ولكنه الآن سيكون ميباً في قتل هذا الرجل الآخر الذي يتجمع حوله الناس ويكدون ينتسبون له .. إن الله قد يعاقب ابها لأنه قتل واحداً .. ولكن عقاب الله سيكون أقسى وأشد إذا قتل اثنين .. إنها يجب أن تنقذ هذا الآخر تحميها من غضب الله على ابها .. وهي لا تدري كيف تنقذه .. ولكنها مصممة على أن تحمف من غضب الله على ابها .. وقضت ساعات وهي مترددة وتمكر بدليل أنها لم تذهب إلى قسم البوليس إلا بعد أربع ساعات من القبض عليه .. ذهبت لتشهد بأنه بريء .. وهذا هو كل ما تستطيع .

هذه القصة تسيطر على خيال مصطفى حتى تحولت إلى واقع يعيش فيه .. وقد أراد أن يتأكد أكثر كأنه يحقق مع نفسه .. وكان قد عرف اسم المرحوم زوج فردوس .. عبد الله عبد الغنى عبد الله .. فذهب إلى سجلات الترخيص بحمل السلاح وأخذ بقلب فيها أياما حتى وجد هذا الاسم .. إنه مرخص له بحمل مسدس .. وهو مسدس من نفس النوع الذى انطلقت منه الرصاصة القاتلة ..

ولكن البوليس لم يعثر على مسدس فى شقة فردوس عندما فتشها .. وانضم مصطفى بينه وبين نفسه .. إن البوليس لم يفتش تفتشا حادا .. ثم أن فردوس قالت له إن كل الشقق والبيوت كانت فى انتظار هذا التفتيش بمجرد أن بدأ البوليس بالعمارة الأولى .. ولا شك أنها أحفت المسدس عن أن يصل إليه أى تفتيش أو لعلها بحكم الجهل أخفته فى سيفون دورة المياه .. رغم أن البوليس أصبح بحكم تعامله مع الجهلة يبدأ التفتيش دائما بسيفون دورة المياه ..

ماذا يفعل الآن ؟

هل يبلغ البوليس والنيابة لإعادة التحقيق فى مقتل العجوز قائدة التريسيكل .. حتى يؤكد تبرئة نفسه ويحقق العدالة .. ويردع الأمهات اللاتى يتركن أطفالهن يلعبن بالأسلحة والمسدسات ؟

مستحيل ..

إنه لا يستطيع أن يرد حميل المرأة التى تطوعت لإنقاذه بتمريضها هى وابنها للمرطقة وعذاب البوليس والنيابة .. ثم إن الحادث قيد صد مجهول بعد أن عجز البوليس عن معرفة من أطلق الرصاصة القاتلة ..

وما الذى الصغير يعتبر بحكم سنه لا يزال مجهولا .. إنه لم يوجد حد .. لا يمكن أن يكون إنسانا كاملا يحاسب ويعاقب على أفعاله ومصرفاته .. إنه مجهول كما أثبت تحقيق النيابة ..

ومصطفى لا يزال يروى الحكاية فى كل ندوة تجمعهم بأصدقائه ولكنه يحذف منها الجزء الأخير الذى يثبت اكتشافه لمن أطلق الرصاصة القاتلة ..

كانت تزور قبر حياتها ..

كانت ناهد مدووعة الحياة وهي على قدر ما تحب أمها بحس بالعبط منها؛ تساهل الحظاظ تبه أن تنور عليها . ورغم ذلك لم تكن أبداً تستطيع أن تنكسر من ذوق هذا الإحساس بعبء الثورة . إنها أه كاملة حادة .. محترمة .. تستطيع أن تفرص شخصيتها على كل المجتمع الذي تعيش فيه ويحيط بها . ورغم أنها امرأة حميدة ومعروفة من باقي الأمهات أنها حميدة إلا أنها لم تدع عبثاً أبداً أن حماها يجعل منها امرأة كبقية الجميلات .. امرأة مغرورة تحس بهذا الجمال وتحرس على استعلائه في معاشتها أو في مظهرها داخل المجتمع .. كما أن ناهد لم تحس أبداً بشيء ينقصها من أمها .. أنها ترعاها وتحيطها بكل ما تحتاجه أو حتى تنساه بت من أمها .. ورغم ذلك فإن ناهد تحس أن لأمتها سر لا تعرفه .. تحس كأن لها حياة أخرى غير حياة الأم وحياة البيت .. بل تحس كأن في حياة أمها رجلاً آخر غير أبيها .. وقد دفعها هذا إحساس مد المداة إلى أنها نشأت وهي تحس كأنها تشفق على أبيها وتعتمد أن تفيض عليه بحنانها والتدلى عليه وملاعبته والانشغال به .. ربما بكثير من المبالغة عما تعودته البنات في تدليل الآباء .. حتى أصبح معروفاً عنها أنها تحب أباه أكثر مما تحب أمها .. وأن كان ما تحس به هو أنها تعتمد أن تعوضه عن شيء يفتقه من أمها .. وإن كانت لا تعرف ما يفتقه من أمها .. إنها تعيش -مجرد إحساس .

وربما كان هذا الإحساس قد بدأ يتأهبها منذ كانت صغيرة وكانت في فترات يكون أبوها قد خرج من البيت وترى أمها تحمل التليفون حين به إلى غرفتها وتقف الباب وراءها بالمتحاح ثم تقضي وقتاً طويلاً من تحدث فيه بصوت وإن كان خافوا إلا أن رناته تسمع من خارج الغرفة .. وعندما كبرت قليلاً بدأت تسأل نفسها .. ترى من تحدث أمي .. وعندما كبرت أكثر بدأت تتصور أنه ما دامت أمها لا تتحدث حديث لا بعد أن يخرج أبوها وبعد أن تغلق وراءها الباب بالمتحاح فلا شك أنها تحدث رجلاً بينما وبينه حكاية .. خصوصاً وأن أمها لا تقبل لها شيئاً أبداً عن هذا الحديث كما تعودت أن تقول لها عن أحاديثها مع صديقاتها أو مع البقال والجزار . وقد قل وجودها مع هذه الأحاديث بعد أن دخلت المدرسة .. ولكنها كانت وهي في مدرسة حر عليها في كل يوم لحظات وهي تتجمل صورة أمها وقد حملت سبنون ودخلت به حجرتها وأغلقت وراءها الباب .. بل إنه بدأت تمر بها أيام ترى فيها أمها تخرج وحدها من البيت تحيط بها مظاهر غير المصاهر العادية التي تحيط بكل مرة تخرج فيها .. وتحدث ناهد نفسها تتصور أن أمها قد خرجت للقاء هذا الرجل الآخر .. وربما كانت ناهد زداد تأكيداً مما تتصوره لأنها لا تحس به إلا في أيام متباعدة ربما يمر سبوعان أو ربما شهر كامل وأمها تخرج دون أن يتأهبها هذا التصور .. إن أمها سيدة حريصة لا تنهار وراء الرجل الآخر وتحمل عليه بالخروج إليه حرصاً على مظهرها وإرتباطها بالعائلة والبيت . وهي في كل يوم تحاول أن تتجراً على أمها وتسألها عن تحدثه في التليفون وراء الباب المغلق .. ولكنها تحس أنها لو سألتها فكأنها

تتهمها .. فكيف تتهم أمها وهي ليست متأكدة من شيء .. وتقاوم ..
وتدفعها المقاومة إلى هذا الإحساس بالغيط من أمها وكأنها تهم بالثورة
عليها .. بل إنها استطاعت يوما أن تتجراً وتسأل أمها .. ضحطت على
أعصابها وانتظرت حتى فتح الباب المعلق بعد أن انتهت أمها من حديث
التليفون وقالت لها وهي تفتعل ابتسامة تبدو بها طليعية :

— من كنت تتحدثين يا ماما ؟

وترددت الأم في لحظة عابرة ثم ضحكت ضحكة عالية تبدو مفتعلة
وقالت وهي محتضن ابنتها :

— إنه حديث كل يوم .. فالتليفون مهمة عائلية لا أستطيع أن أتخلي
عنها .. ففي كل يوم يجب أن أسأل عن أمي وعن إخوتي الثلاثة .. وهو
حديث يبدأ دائما بالحديث علك وعن الأولاد والبنات .. وأحيانا إذا
اتسع الوقت أسأل عن بنات العم والصدقات أو أضطر للتحدث مع
البقال .. إنني لا أستطيع أن أستغنى عن التليفون كما لا أستغنى عن الأكل
والشراب ومتاعب البيت .. ولذلك أتحدث من غرفتي بعد أن أغلق
الباب حتى أتفرغ للتليفون .. وإياك يوم يكون لك بيت أن تتركى يوما
يسر دون أن تحدثيني وأحدثك في التليفون .. كيف أطمن عليك كما
أطمئن أنا على أمي وإخوتي ..

وسكنت ناهد ..

لعل أمها صادقة .. ثم لمادا تشعل نفسها بهذه الأوهام .. إن كل من
في البيت سعيد .. أبوها سعيد .. وأخوها سعيد .. وأمها طمعا

سعيدة .. فلماذا تحاول هي تعكير سعادتها .. ورغم ذلك فهي
لا تستطيع أن تتخلص من هذه الأحاسيس التي تدفعها إلى الغيظ من أمها
رغم أنها تحبها ..

وكبرت ناهد .. إنها في الثالثة والعشرين من عمرها وقد انتهت من
درستها جامعية وأصبحت موظفة في الشركة .. وقد أعلت خطوبتها
إلى يسر بعد قصة حب طويلة بدأت منذ النقا في الجامعة وسيتم الزفاف
بعد شهرين عندما يكون قد انتهى من فترة تحبده .. إنه حب أهم ما فيه
هو المصارحة الكاملة بينهما .. إنها تعلم كل شيء عنه .. وهو يعلم كل
شيء عنها حتى إنه من كثرة ما عرف أصبح يعتبرها هو الآخر وكأنها
تحب أباه أكثر مما تحب أمها ..

إلى أن كان يوم استأذنت فيه من عملها في الشركة بعد أن أحست
تعب .. إنها تعب دائما كلما همت بها الدورة الشهرية .. وعادت إلى
البيت .. ورأت أمها في غرفتها وهي محتضنة آلة التليفون وتحدث
دون أن تغلق الباب كعادتها .. ربما كانت مطمئنة إلى أن ابنتها في
عملها خارج البيت كزوجه .. وانزوت ناهد قبل أن تراها أمها وأحدثت
تسمع ما تقوله أمها في التليفون .. إنها تسمع كلاما غريبا وأمها تقول
لمن تحدثه :

— كيف أنساك يا ممدوح .. إنني من يوم أن ولدت ناهد وأنا أعيش
معلك كل يوم بل كل لحظة .. وتشعلني كما تشعلني ناهد .. هل
سيب .. إن ناهد هي أنت ..

وانتاب دهد بویه من الدهول .. وتسعت عدها حد حصين ..
وافرحت شفتها كأنها تشفق .. وألفت ظهرها مستندة على الجدار ..
كأنها تخشى أن تقع معشياً عليها ..
فلذا يعني هذا الكلام الذي تقوله أمها ..

لا .. لا يمكن أن يكون معاه هو ما حطر على بالها وهي سمعه
ولكنه كلام ليس له أى معنى آخر .. كلام ليس له إلا معنى واحد
معاد .. أمها تحبها من هذا رجلي آخر .. بها يسبدها
وكيف يدهد الآخر متى سمعت منه .. ولا اسم معنى
لأنه من مد تحبها وهي لا تستطيع أن تسمى معده .. وه يومه حده
حده .. لأنه من مدى حبها معها .. به هو يوم .. ومن نهد هو
من يحمل سبه في سعادة السداد .. ولدى حبش معه .. وحده كان هذا
سب كات ..

ب .. محميس سمعه ممدوح ولا تعرف أنه سمعه لأنه .. وسبحه
شهادة سداد .. به فاسد لا يحسن من سده .. به في سداد
مبارك لأنها حرم ..
إبها سة حرام

ووحدت نفسها تحامل وتزحف إلى ححرثها دون أن ..
سده .. تكاد تسقط في كل لحظة .. تحب بها ..
على فراشها كأنها ترهب أناسها الأخيرة ..

.. نعة تعصف بمرها وتطلق فيها صور يرسمها حياها ..
إنها ليست ابنة بابا رفعت .. إبها سة رجل لا تعرفه اسمه معده ..

إبها ابنة حرام ..

ابنة حرام ..

وتبدأ أربعة فترة ويبدأ فكرها وكأنه يحكى لها حكاية .. إن أمها
عرفت ممدوح وهي روضة رفعت .. إب روضة لواحد وعشيقه
لآخر .. ومثل هاتيك النساء إذا حملن لا يستطعن تقدير ابن من
سبحن .. هل يحسن من الروح أو من العشيق ... ولكنهن يستطعن
دلمان .. سس اسلولد بدروح حبي .. بأكد أنه من يحب العشيق
.. لكن كيف اسدعفت معها أن تكد أن انتها من سس عشيقها لا من
سس .. وجها حسي أصبح لا تراها إلا وترى فيها صورة عشيق كما
وات في سمول .. وكيف غادته من نها ليست سة أيها ادى
يحمل سبه وكبه سة .. حل آخر .. ابنة الحرام .. إبها تذكر أنه
كان به رمية في الحارة كات متهمه بأنها ليست سة ليها ..
وكيف هذه ارمية كات أمها سينة السمعة ومعرفة بأنه كان بها
عشيق .. ثم كان هذا إلى هذه ارملة تشبه العشيق في كل تفاصيل
خطوط وجهها .. ولكن أمها هي ليست سينة السمعة .. بالعكس .. إن
الناس يعتبرون به صهر البروجات .. وهي في كل مصهرها حادة ومحترمة
ومتعنة من كل ما يمكن أن يمس مصهر امرأة .. ولكن هل أحببت لها
.. فيها شه من روحها .. لا .. إب .. بعد تعرف نفسها وحرف سها كل
الناس بأنها تشبه أمها وليس فيها أى خط من خطوط أيها .. الأب الذى
تعرفه وتحمل اسمه ..

وقفزت ناهد من الفراش والتفتت امرأة صغيرة وعادت ترقد وهي
تخلق فيها كأنها تبحث في تفاصيل خطوط وجهها من حديد لمن حقا ..

قد فاتها مه .. خط من خطوط وجه أبيها .. ولكن لا شيء .. إن أحاساها
الأكثر يحمل الكثير من خطوط وجه أبيها .. أما هي .. فلا خطأ واحدا
أخذته عنه .. إنها كلها صورة من أمها .. ولكن لا .. لقد بدأت عيناها
تتركز على ملامح لم تكن تهتم بها من قبل .. إن بياض لون بشرتها
أفتح قليلا من بياض لون أمها .. واكتشفت أن أدنها أعرض قليلا من
أدنى أمها .. وأصابع يديها أقصر وممتلئة أكثر من أصابع أمها .. ثم
شعرها .. شعر رأسها .. لقد نسبت ناهد هذا الشعر .. إنه ليس في لون
شعر أبيها ولا شعر أمها .. إنه يحيل إلى اللون الأصفر الداكن .. في حين
أن رأس أبيها ورأس أمها يحملان شعرا داكن السواد .. وقد كانت وهي
صغيرة يتندر أفراد العائلة بلون شعرها .. وكانت أمها تقول لها إن حديثها
كانت سيدة من تركيا شعرها أصفر فاتح ولعلها جاء لون شعرها متأثرا
بهون شعر جدتها .. وحتى أبوها الذي تعيش معه كان يقول لها كأنه
يطمئنئها إن عمه كان متزوجا من سيدة إنجليزية .. ولذلك فأولاد عمه
شعرهم فاتح اللون ولعلها ورثت هذا اللون مع أولاد عمه أو لعل أمها
توحدت على هذا اللون وتمتد لها .. ولكن الآن .. وبعد أن عرفت
لمادا لا يكون هذا اللون هو لون شعر الرجل الآخر .. عشيق أمها ..
أيها الذي لا تعرفه ..

وعادت الزواجع تعصف بفكرها ..

إياها يحب أن تواجه أمها .. تواجهها بكل إصرار مهما بلغ بها الإصرار
من تحديها والقسوة عليها حتى تعرف كل شيء .. إن من حقها أن
تعرف من هو أبوها .. حتى لو كانت ابنة حرام .. لقد كبرت الآن
ويحب أن تعيش واقعا ومهما عذبها هذا الواقع فهو عذاب أرحم من

الحيرة والتشتت اللذين يمرقناتها ويهريان فكرها ويمرقن كل قطعة
مها ..

وتعود الزواجع وتخفت قليلا من حول فكرها .. وتساؤل نفسها :
إلى أين ستنتهي بها مواجهة أمها .. لقد عاشت طوال عمرها وهي تمر
في لحظات تشك خلالها في أمها كلما احتبأت في غرفتها مع التليفون
ويتأبها الإحساس بالغيط منها والثورة عليها .. ولكنها لم تواجهها أبدا
بهذه الأحاسيس .. ومعت الحياة سعيدة هادئة لا يقصها فيها شيء
ولا يعكرها سوى هذه الأحاسيس العابرة .. فمادا يحدث لو واجهتها
بعد أن أصبحت شكوكها اتهامات .. كيف تستطيع أن تعيش معها بعد
دث .. وكيف تستطيع أن تعيش مع أبيها وأحبها .. كيف تستطيع أن
تعيش في هذا البيت .. بل مادا يكون مصير هذا البيت الهادئ السعيد ..
وتحمدت عيناها وهما معلقتان في سقف الغرفة .. عندما وصل بها
التساؤل إلى مصيرها مع حبيبها وحبيبها ياسر .. إن حبهما قائم على
المصارحة الكاملة بينهما .. كل منهما يعرف كل شيء عن الآخر ..
فهل تصارحه بأنها ابنة حرام بعد أن تأكد أنها فعلا ابنة حرام .. وهل
يبقى حبه كما هو بعد أن ينتقل من حب ابنة شرعية إلى حب ابنة حرام ..
إياها هي نفسها قد لا تستطيع أن تحبه وهي ابنة حرام كما تحبه الآن وهي
ابنة كاملة ..

واطلق في صدرها قرار كالصراخ .. لا .. إنها لن تواجه أمها ولن
تصارحها بما اكتشفته ويعذبها كل هذا العذاب .. ويحب أن تبحث عن
حياة تحف عنها ..

وعادت الروائع تعصف بمكرها .. هاك شيء لا تستطيع الآن أن تعدل عه أو تهرب منه .. وهو أن تعرف هذا الرجل الآخر وتصوره كأنه أبوها .. إنها حتى لو واجهت أمها فقد تكذب عليها .. بل لاشك أنها ستكذب عليها .. ولكنك لو عرفت أنه شحوبا وغفرت في وجهه ولو من بعد فحس أنها سسكت مما إذا كان فعلا أبها أو لم يكن .. إن مجرد رؤيته ستحدد إحساسها به وإحساسها أيضا أنها شرعى هل هي ابنة مملوح أم ابنة رفعت .

و بعد عدة اروع سمعت أقدام أبيها وقد عاد إلى البيت .. وفترت من فوق الفراش وجرت إليه وألقت بنفسها بين أحضانه وشدته إلى صدرها بحف كئيها تستعجب به أو كأنها تستحبه حتى ينقضي أن لها كما هو ولا يركها ولأب نهس وهو مستسلم به يرت عليه بحنان قتيلا :

— ما بك يا انتي ؟

وقالت كأنها تنهم بال بكاء :

— تعب يا بابا .. مريضة ..

وقالت لها أمها وهي في استقبال زوجها :

— متى عدت .. إلى لم أرك ..

وأطلت على أمها وهي بين أحضان أبيها وقالت في حده وحده

— كنت متعبة .. وكنت تتحدثين في سبوع

وهي تها رفعت أن يريح على صدره تسحب عرقه ..

تسليا وعلى حير حادها وضعت يده .. كأنها شكره وتعتز به

عنيها صد دابة أريج وهي يست به .. ونسبه به نورا في حنا

والدهشة تشتد وهو يطر إليها ثم قلها عني حينها وهو يتعد عنها .. وله تحلس معهم على مائدة العدا .. إنها تعب .. وكلهم يعرفون أنها تصل إلى هذا الحد من التعب كلما بدأت بها السورة الشهرية .. فتركها تعود إلى غرفتها .

وفي أوائل المساء سمعت صوت أقدام أبيها يخرج من البيت ولا شك أن أحاما قد سبقه وخرج .. أصبحت وحدها مع أمها في البيت .. وتحاملت على نفسها وقامت من فراشها بعد هذه الساعات الطويلة التي قضاها وسط الروائع التي تعصف بفكرها .. وحطت مترحة حتى وقفت أمام أمها ووجدتها تحمل آلة التيفون ونهم أن تدخل بها إلى غرفتها .. وقالت الأم في حزع :

— لماذا تركت الفراش .. إنك متعبة .. بل يبدو أنك متعبة أكثر مما تعودت ..

وقالت ناهد وهي تستند على الحدار حتى لا تقع على الأرض

— من يعرفين شحبا اسمه مملوح ..

وبدا أن الأم ارتعشت لهذا السؤال حتى اهتز التليفون في يدها وسقطت من فوقه السماعة .. واجتت تنقط السماعة وهي تقول في صوت مرتبك في نبراته :

— من هو هذا الشخص ؟

وقالت ناهد وهي مسندة إلى الحدار وبصوتها ته سبي .. حه

— به شخص سمعت حديثه على التليفون وترددت سمعه

مملوح

وقالت الأم وهي تتسبح كأن صوتها مخنوق :
— متى كان هذا ؟

وقالت ناهد بنفس الصوت المحاف :
— هذا الصباح ..

وعادت الأم تتسبح وتشغل نفسها بوضع التليفون مكانه وقالت بعد فترة دون أن تنظر إلى ابنتها :

— آه . تذكرت .. لقد سألت هذا الصباح عن أحي طاهر وقالوا لي إنه عند صديقه ممدوح وأعطوني رقم التليفون فاتصلت به هناك .. وطعنا رد على ممدوح بنصه .. وأنا أعرف أنه صديق من زمان بعيد لحالك طاهر .. وإن كانت صداقتهما لم تجمعهما عائليا ..
وقالت دهد وهي تدل مجهودا أكثر للسيطرة على أعصابها .

— هل هو يعمل مع خالي طاهر ..

وقالت الأم ولعبها تحاول أن تكون طبيعية مع ابنتها فاحتصنتها كأنها نسيها على نفسها وقالت :

— لا، لا يعمل مع خالك .. وما أسمعته عنه أنه رحل أعمال له شركات كبيرة .. تعالى واجلسي بجانبى على الأريكة ..
وقالت ناهد وهي مستسلمة لأمرها وتركتها تشدها لتجلس على الأريكة :

— وما اسمه الكامل ..؟

وقالت الأم فى دهشة صريحة :

— لماذا تريدان أن تعرفي اسمه الكامل ؟

وقالت ناهد وهي تبسم ابتسامة مفتعلة :

— أنت تعرفين أن عملى فى الشركة يسمى العلاقات العامة .. أى يجب أن أعرف كل رجال الأعمال الذين يمكن أن تعمل معهم الشركة .. وربما كان هذا الشخص يمكن التعامل معه ..
وأحنت الأم رأسها كأنها تهتم بالاعتراف وقالت بصوت خافت :
— اسمه ممدوح عبد الرؤوف وهو معروف ..

ثم رفعت الأم رأسها واستطردت قائلة :

— سأعد لك كوب نعناع مغلى ..

وقامت من جانب ابنتها متفصصة وحطت بعيدا عنها كأنها تحرى هربا .

وكان قد مضى أكثر من ثلاثة أسابيع وناهد قد تركت الفراش .. وأصبحت قادرة على الحروح إلى العمل ولكنها لا تزال هزيلة ميمصومة الوجه .. ولا تزال أعاصير الفكر تعصف بها كلما كانت وحدها أو حاولت أن تنام .. وبينها وبين أمها شيء لا ينتهى .. إن كلا منهما ترخى عينيهما عن الأخرى كأنها تهرب منها .. ولا يتحدثان إلا فى كلمات عابرة .. وأمها أيضا بدأت تبدو كأنها تعاني .. ولولمها بهت وتميل إلى الهزال ..

ووجدت ناهد نفسها ذات صباح تصعد إلى مكتب ممدوح عبد الرؤوف .. وكان من السهل أن تعرف العنوان فهو رجل مشهور عنوانه معروف .. وقالت للسكرتيرة التى استقبلتها فى برود :

— هل أستطيع أن أرى ممدوح بك ؟

وقالت السكرتيرة في حفاء :

— لماذا ؟

وقالت ناهد كأنها تحدث نفسها :

— موضوع خاص ..

وقالت السكرتيرة في ارداء .. لعبها اعترضتها إحدى البنات اللاتي

لا يزلن يلقين أنفسهن على ممدوح طمعا في ثرائه :

— آسفة .. إنه مشغول ..

وقالت لها ناهد فورا :

— أبلغيه باسمي لعله يراني ... ناهد البلتاحي .

فتبته وهي تقول لنفسها .. لو قس فداها رعب أنه مشغول فمعنى

ذلك أنه يعترف بأنها ابنته .. فهو وإن كان لا يعرفها فهو على الأقل

يعرف اسمها ..

وبطرت إليها السكرتيرة كأنها تحقق في مظهرها لتطمئن إليها .. ثم

رفعت سماعة التليفون وقالت اسمها فيه .. ومرت برهة سريعة صامتة

كأن ممدوح يفكر بعد أن سمع هذا الاسم .. ثم قامت السكرتيرة

منظورة واقفة كأنها تلقت أمرا صارما وتقدمت لمأد وهي تردد :

— تفصلي .. تفصلي ..

واستقبلها ممدوح واقفا .. ومضت برهة وكل منهما صامت يتحدق

في الآخر .. لعله كان يستوعب شكلها .. وهي تبحث فيه عن الحقيقة

وعيناها معلقتان بشعر رأسه .. إنه نفس لون شعرها .. إنه أبوها ..

وأذناه أعرض من أدنى أمها .. وأصابعه أقصر وأغظ من أصابعها ..

وانتابها إحساس عجيب وهي تنظر إليه أول نظرة .. إنها تكرهه .. تكره

هذا الرجل .. إنه الرجل الذي استدرج أمها حتى أوجعها منها .. لا .

.. لم يحبها .. ولكنه ألقى بها في بطن أمها كما يلقى بعض سيحارة

بعد أن يدحسها .. أو كما يلقى بندرة لرفوف بعد أن يأكلها .. بها هي

عقب السيحارة أو بندرة لرفوفه .. وألقاها في حياة كما يلقى أي شيء

لا يريد صاحبها لأنه حرام ..

وكان يتسم لها باسمه حامية وهو يسوعها بين عييه وقال :

— هل أنت ابنة رفعت بك البلتاحي ؟

وقالت في فتور :

— نعم ..

واتسعت ابتسامته الحانية وقال كأنه فرح مهوور بها وهو يشير إلى

المقعد :

— تفصلي ..

ولم تقدم لتجلس على المقعد وقالت في سحرية مرة :

— هل تريد أن تعرف اسم أمي أيضا .. أم أنك تعرفه ؟

وبطرت إليها في دهشة حائرة وإن أدت ابتسامته حامية لا تتران معقدة

بين شفثيه وقال :

— إنني أعرف أيضا اسم والدتك .. إنها شقيقة صديقي طاهر ..

حالك .. وكما كلما جيرانا في الصغر .. تفصلي .

وبكها لم تحس ونبض واقفة وقالت في كسوت سريرة كأنها

تعد تطبيق هذا الرجل أكثر :

— سمعت أنك تبحث عن موظفة .. فبحثت أسأل .. إنني حيرة في

محال العلاقات العامة ..

وقال من خلال ابتسامته الحانية :
— الواقع أرى لأبحث عن موطعات ولست في حاجة إلى أكثر من
عدى في قسم العلاقات العامة .. ولكك تستطيعين أن تكوي معا
وتختاري أى مسئولية لك في المكتب ..

وقالت في حدة :

— لماذا توظفين عندك وأنت لست في حاجة إلى ..
وعادت الدهشة الحائرة إلى عيني مملوح وقال من خلال ابتسامته
التي لا تزال تنبض بالحنان :

— لأنك ابنة أخت أعز صديق لي .. صديق الصبا ..

وقالت دون أن ترفع أى ابتسامة على شفثيها :

— شكرا .. سأفكر .. عن إذنك ..

واستدارت له دون أن تصافحه وحطت كأنها تهم أن تجرى خارجة
من الباب .. ومملوح يقول من ورائها كلمات لا تسمعها .. إنها تكره
هذا الرجل .. كانت تحس وهو أمامها كأنها تهم أن تمدأظافرها وتنش
في وجهه حتى تمزقه وتشرب الدم الذي يسيل منه .. كيف يكون هذا
الرجل هو أبوها وهي تكرهه كل هذه الكراهية .. الرجل الذي ألقاها في
بطن أمها عقب سيجارة تمتع بها .

وعادت إلى البيت ولم تقل لأمرها إنها رأت مملوحا . لاشك أنه
سيقول لها في التليفون إنها ذهبت إليه ورآها .. لنتظر إلى أن تبدأها أمها
بالحديث عنه .. ولكن مرت الأيام وأمرها لا تحدثها في هذا
الموضوع .. موضوع اكتشافها لأبيها .. وهي قد تغيرت له تعد الفتاة

المنشقة المرحلة التي تملأ البيت بضجيجها وتحركاتها .. أصبحت فتاة
صامتة معزلة عن صديقاتها وتقصى عمرها داخل غرفتها وقد تعودت أن
تغلق بابها عليها كما تفعل أمها عندما يتحدث في التليفون .. وكانت
خلال هذه العزلة تدور في خيالها القصص وبعضها تكون كأنها تلمس
بها العنبر لأمرها .. لقد أحبت أمها مملوحا وهو جار لها .. ولكنها كان
لا يمكن أن تزوجه فهو في مثل سنها وأمامه سنوات حتى يتم دراسته
ويؤهل حياته للزواج .. كانت مد البداية وهي تعلم أنها لن تتروح
مملوح .. ولذلك قبلت أن يزوجها رفعت .. كان أكبر منها ومؤهلا
للزواج وليس فيه ما يعيبه بل إن فيه كل ما تنسأه زوجة .. ولكنها لم
تستطع أن تتخلص من حبها لمملوح فاحتفظت به في حياتها وهي
بفس الشخصية الجادة الكاملة التي تحتفظ بها بزوجه .. وربما
حملت من مملوح نتيجة خطأ في الحسابات التي تحرص عليها
النساء .. لا يمكن أن تكون قد تعمدت أن تحبها من مملوح .. ليست
هناك امرأة حتى ولو كانت عاهرة تمنى أن يكون لها مولود حرام .. قد
تكون أمها معنورة ولا تستطيع أن تحاسبها على إنجابها في الحرام ..
بصرف النظر عن أنها أم تخون زوجها ..

وقد بدأت هذه الأم تعاني الضعف والهزال أكثر حتى سقطت مريضة
لا تقوم من فراشها .. وهي تحو على أمرها وتراعيها بكل ما يحتاجه
مرضها .. ولكن كلا منهما لا تزال تهرب من أن تلتقي عينها بعيني
الأخرى .. وكل منهما لا تزال صامتة عن مصارحة الأخرى .. مع أنها
تعلم سبب ما تعانيه أمها كما تعلم هي سبب ما تعانيه .. حتى الأطباء لم
يحدوا سببا لكل هذه المعاناة وكلهم يقولون إنه نتيجة حالة عصبية أو

حالة حساسية .. ولا تحاول إحداهما علاج الأخرى من حالتها ..
وقد تغيرت ناهد أيضا بالنسبة لأبيها رفعت .. إنها لا تزال تحبه غاية
الحب ولكنه نوع آخر من الحب .. ليس مجرد حب الابنة لأبيها لقد
أصبح بها كله اعتراف بفضلها عليها .. إنه هو السائر الوحيد لكل
حياتها : هو الذى يقبضها من فصيحتها كائنة عشيق .. ابنة حرام ..
وهى لم تعد تحس بأنها تتدلل عليه أو تدلل .. إنها تحس كأنها
تشكره .. كأنها تستحلله ألا يتركها وحدها حتى لو عرف أنها ليست
ابنته .. وقد كادت تعود على تقبيل يده لولا أنه رفض لها هذه العادة
وقال لها ضاحكا وحيه وحنانه يفيض عليها :

— إنك تذكريننى بأيام رمان عندما كان الابن والابنة يقبلان يد الأب
والأم . وأنت لست من بات زمان ولأنا ريتك لتكونى من بات
رمان .. إنك الحيل الحديد الذى لا يعرف تقيل اليد .. بل يعتر تقيل
اليد إهانة وإذلالا حتى لو كانت يد الأب .. وبينى وبينك .. فأبى أحب
قبلتك على خدى أكثر مما أحبها على يدى .

واستطاعت أن تغلق عن تقبيل يد بابا رفعت .. ربنا يقبه لها فهو
يقبضها حتى من نفسها .

ولكن التغيير الأكبر الذى حدث فى حياتها هو مصيرها مع حبيبها
وخطيبها ياسر .. إنها لا تستطيع أن تصارحه بأنها ابنة حرام .. ولما
تصارحه بأنها ليست ابنة هذا الأب ولكنها ابنة رجل آخر .. وهى
لا تستطيع أن تعيش معه وهى تحفى عنه حقيقتها .. ولا تستطيع أن
تكون زوجة كاذبة محادعة وترك زوجها يحبها ويعيش معها على أنها
ابنة حلال . ويجب أن تهرب منه حتى لا تسمع حياة الكذب التى

تعيشها .. حياة المظهر الكاذب الذى لا يستطيع أن يعيش الواقع
الصريح .. وبدأت فعلا تهرب منه إلى أن صارحته بأنها لن تزوجه .. لن
تزوج أبدا .. وقامت ضحكة بين العائلتين .. ولكنها تصر إلى حد أن
اتهموها بالجنون .. أو ربما أحببت آخر تريد أن تزوجه .. وأنها قد
إردادت حالتها المرضية خطورة كأنها تسعى بنفسها إلى الموت ..
وبابا رفعت تشدد خيته فيها واقتاعه بأنها لم تعد طبيعية .. وهى بينها
وبين نفسها متأكدة أنها لن تزوج أبدا .. إلا إذا تقدم إليها واحد يعرف
مقدما أنها ابنة حرام ويصل حبه لها إلى أن يقنعها بالزواج .
والأيام تمر بكل هذا الثقل وكل هذه المرارة التى تهز فى حياتها
وحياة أمها وتنعس بابا رفعت ..

وتمر بها شهور .. وكلما مرت بها شهور .. تجد نفسها يوما تسير
فى الشارع وتقف أمام باب العمارة التى يقع فيها مكتب ممدوح ..
وتتظار طويلا إلى أن تراه من بعيد وهو يخرج إلى الشارع .. إنه لم
يتغير .. إنه هو كما هو وجهه أنيق وشعره الأصفر الداكن فوق رأسه ..
إن الذى يلقى بعقب سيجارة منتهى فى بطن امرأة لا يتغير ولا يتأثر
ولا يتندم على السيجارة التى انتهت من تدخينها ..

وتظيل النظر إليه من بعيد وهى ترى نفسها فيه .. ترى نفسها ابنة
حرام .. ترى نفسها عقب السيجارة الذى ألقاه فى بطن أمها .. وتهمر
دموعها .. إنها لم تأت إلى هنا إلا كأنها تزور قبر حياتها وترحم على
نفسها ..

وتاهت بعد العمر الطويل

كانت ناهد زوجة سعيدة .. عاشت واحداً وثلاثين عاماً وهي زوجة سعيدة ..

لم تتعرض حياتها الزوجية أبداً لما يمكن أن يعكرها .. وهي نفسها لم تفكر أبداً في تغيير أى شيء في حياتها الزوجية أو إدخال أى جديد عليها ولو لمجرد مقاومة الملل والزهد .. أبداً .. لم يطرأ عليها أبداً أى لمحة إحساس بالملل أو الرهق .. لقد كانت تحس منذ اليوم الأول الذى تزوجت فيه أنها وصلت إلى قمة السعادة وليس هناك شيء فوق القمة يمكن أن يغريها بأن هناك سعادة أكبر يمكن أن تجذبها .. وقد أصبحت كل أيامها تمر على وتيرة واحدة منظمة بالساعة والدقيقة .. والبيت الذى تزوجت فيه لا يزال هو البيت الذى تقيم فيه .. وحتى قطع الأثاث لم تغير فيها شيئاً ولم تحرك أى قطعة منها إلى مكان غير مكانها .. وحتى بعد أن انجبت ابنتها شهاب وابنتها لوتس اتسعت حياتها ولكن لم يشملها أى تغيير .. ظلت حياة منظمة بالساعة والدقيقة دون أن تصادف ما يعكرها أو ما يمسها بالملل أو الزهد ..

وقد كانت في صباح كل يوم تقوم من النوم في الساعة السادسة والنصف وتترك زوجها مراد في الفراش وتذهب إلى ابنتها وابنتها وتوقظهما في رقة وحنان وتبدأ في إعدادهما للذهاب إلى المدرسة .. وفي الساعة السابعة تحلما تعود إلى زوجها لتطمئن إلى أنه قد ترك الفراش .. فهذا هو مواعده .. ثم تتركه يدخل الحمام ويستكمل إعداد

نفسه للذهاب إلى عمله في مؤسسة الغزل بينما هي تدخل المطبخ لتعد طعام الإفطار للعائلة كلها .. وتحرص وهم على مائدة الإفطار أن تسأل كلا منهم عما يريد في يومه لتعده له .. ثم يخرجون من البيت ويتركونها وحدها .. وتبدأ بمنتهى الهمة والنشاط في تنظيف البيت وتنظيمه وتسوية كل ما فيه .. إنها لا تحاول أن تعتمد على عزيزة الشغالة ولا تتركها أبداً تعمل بعيداً عنها .. وبعد ذلك تخرج من البيت إلى الأسواق لشترى ما تحتاج إليه .. إنها وحدها التى تشتري كل شيء حتى ما يخص زوجها .. ثم تعود لتدخل المطبخ وتبدأ في طهو وإعداد الغذاء وعزيزة يحاسبها ولا تترك المطبخ لها وحدها .. إلى أن يعود ابنتها واستنها من المدرسة وقد تقدم لهما طعام الغذاء وحدهما في حين أن زوجها مراد ليس له موعد محدد لعودته من عمله .. قد يعود في الثانية والنصف أو الثالثة وأحياناً الرابعة .. وهي في انتظاره دائماً لتناول معه الغذاء .. ومن عاداته بعد العشاء أن ينام .. إنه يقول إنه يستريح ولكنه في الواقع ينام .. وإن كان نومه لا يستغرق إلا ساعة ونصفاً .. لا أكثر .. ويقوم من النوم ليخرج من البيت .. قد يكون لديه اجتماع في مؤسسة الغزل .. إنه يتقدم سريعاً في عمله ويرتقى في مناصب المؤسسة .. وحتى لو لم يكن مرتبطاً باجتماع عمله فقد يخرج لزيارة أصدقاء عمل .. وبعد أن يخرج تتمتع هي للمجوس مع الولد والبنات للإشراف على مذاكرة ومراجعة المواد الدراسية .. إنها حريصة على الإشراف على مذاكرتهما حتى بعد أن كبرا وأصبحا في المدرسة الثانوية .. بل إنها كانت هي نفسها تذاكر المواد الدراسية التى يدرسها حتى تستطيع أن تجلس يسهما كأستاذة .. وفي الساعة التاسعة يعود زوجها إلى

البيت .. إنه لم يتأخر أبدا عن الساعة التاسعة .. ويكون أشرف ولوتس قد باما .. وتقضى معه أجمل ساعات اليوم .. يشاهدان معا التلفزيون وهما يتناولان طعاما خفيفا للعشاء تذلل كل يوم مجهودا حاصلا لاختيار أصنافه حتى يكون لذينا شهيا .. وفي أغلب الليالي لا يتفرعان لمشاهدة التلفزيون بل يأخذ زوجها مراد في التحدث عن عمله .. عن كل ما حدث له في يومه .. كل ما يفرحه وكل ما يمتعه .. وهو يتحدث كأنه يفرح عن نفسه ويربح صدره مما يحمله دون أن ينتظر غالبا رأيها فيما يقول ودون أن يبدو وكأنه يستشيرها .. ولكنها بلا تعمد كانت أحيانا تقول رأيها وبلا تعمد أيضا كان يبدو أنه في انتظار هذا الرأي .. وهي من طول ما تحدث معها عن عمله أصبحت تفهم هذا العمل بكل تفاصيله وأسراره .. وتستطيع أن تحكم على كل من يعملون معه ويساعدونه أو يضايقونه ويتعبونه حتى دون أن تعرفهم شخصا .. لاشك أنها المستشارة الأولى لزوجها ولو أنها لا تعرض عليه ما تشير به .. ولا تقيم لنفسها شخصية المستشارة .. وتظل هذه الساعات الحلوة تجمعهما كل ليلة حتى الساعة الحادية عشرة على الأكثر .. إلا في ليالي يشدهما فيها ما يعرصه التلفزيون حتى الساعة الثانية عشرة .. ثم يجمعهما الفراش .. وتضمهما ليالي الشتاء وتبعد بينهما ليالي الصيف ..

كاد هذا هو كل يوم من أيام حياتها .. أيام منتظمة بالساعة والدقيقة .. يضاف إليها الأيام التي يدعون فيها إلى الحارح أو يقومون بدعوة بعض الأصدقاء ولكنها كانت أياما قليلة فلم تكن هي نفسها من هوة الدعوات .. وكانت تتخلل هذه الأيام فترات يسافر فيها الروح بعيدا عن بيته .. وقد يغيب أحيانا .. بل إنه سافر أكثر من مرة إلى أوروبا

وكان يعيب أسابيع .. ولكنها أيضا فترات لأيام منتظمة بالساعة والدقيقة .. وقد تغير بعض ما تفرصه هذه الساعات والدقائق من ناحية التنظيم مع كرم من شهاب ولوتس والتحاقهما بالمدراس الثانوية .. ولكنها دائما ساعات ودقائق في منتهى التنظيم ..

وكبرت وكبر زوجها مراد حتى أحيل على المعاش بحكم السن .. لقد وصل إلى الستين وهي في التاسعة والأربعين .. إن الفارق بين عمريهما إحدى عشرة سنة .. ولكنها لم تحس أبدا بهذا الفارق .. بل إن مراد لا يزال حتى الآن وبعد أن وصل الستين وهو في منتهى الصحة والنضارة والحيوية والشاطر .. وهما لم يفكرا أبدا في إحالته على المعاش إلا قبل أن يحل مواعده بشهور قليلة .. كأن سعادتهما واكتفاءهما الدائى بكل ما يعيشان فيه قد ألهاهما عن التفكير والإعداد للمستقبل .. المستقبل الذى ينزع عن عمله ويلقى به على أرض حرداء حاوية .. أرض المعاش ..

وعندما تذكرنا مستقبل المعاش ويدأ يفكران فيه كان زوجها مراد يبدو في منتهى الاطمئنان .. لقد اكتسب اسما لامعا محترما بين كل قادة صناعة الغزل .. ومن السهل بعد إحالته على المعاش أن يجد عملا رئاسيا في شركة من الشركات الكثيرة التى تنتج الغزل .. بل إن هناك شركة عزل أسست في السعودية وهو يعرف أصحابها ومؤسسيها معرفة شخصية ولا شك أنهم يتلهفون على أن يعمل معهم .. وسيتقاضى منهم مرتبا يوارى أضعاف المرتب الذى يتقاضاه من هذه المؤسسة الحكومية التى يعمل فيها .. إن إحالته على المعاش تعتبر فاتحة خير تفيض عليه وعلى العائلة كلها بالرخاء وتوفر لهم أرقى وأعلى ما يمكن أن تقدمه

الحياة .. ولكن الواقع أن مراد لم يحاول قبل أن يحل موعد إحالته على المعاش أن يتصل بأحد ممن يمكن أن يوفر له عملاً آخر .. لم يحاول أبداً أن يذل أى جهد ليضمن لنفسه مجالا جديدا للعمل والكسب ..

وحل يوم إحالته على المعاش ..

وبدأ كل شيء فى حياتها يتغير ..

وقد قالت له فى اليوم الأول :

— هل اعترت العمل الذى كنت تتحقق به ..

وقال مبتسما وهو يمدد على فراشه :

— لقد قررت أولاً أن أمنح نفسى إجازة على الأقل لمدة شهر ..

وبعداً أبداً فى اختيار ما عمله .. ربما كان على حق .. إنه طوال هذا العمر الطويل الذى قضاه يتهلك نفسه فى العمل لم يكن يمنح نفسه إجازة .. بل لم يكن يتحمل الإجازات الرسمية وكان يقضيها داخل المكاتب والمصانع متنازلاً عنها بحجة تطلوعه بالإشراف على العمل وإن كانت دوافعه الحقيقية هى الهرب من الإجازة فقد كان لا يجد شيئاً فى حياته إلا العمل .. ولعله يستسلم الآن للإجازة ويمنحها لنفسه لأنها إجازة مفروضة عليه بحكم المعاش. إنها ليست إجازة .. إنها حكم بطرده من العمل ..

وبدأت تحس به كأنه طرد فعلاً من العمل وليس فى إجازة .. فالتاس تستعمل أيام الإجازات فى إمتناع أنفسهم بمتع الحياة .. فى التزهات والزيارات والسهرات واللمب .. ولكن مراد لا يحاول أن يستغل إجازته فى شيء .. إنه يقضى كل أيامه إما راقداً فى الفراش أو جالساً على مقعده المريح أمام التلفزيون .. ويقضى ساعات طويلة يقبل فى

الصحف اليومية والمجلات دون أن يبدو عليه أنه يحد فى كل ما يقرأه شيئاً يشيره أو يهيمه .. ويقضى ساعات أطول مما تعود فى الحمام .. وساعات أطول مما تعود وهو على المائدة يتناول إفطاره أو غداءه أو عشاءه .. ولا يحاول أبداً أن يخرج من البيت ولو حتى لزيارة عائلته .. بل لا يحاول حتى أن يتحدث فى التليفون مع أحد .. حتى أحاديثه معها بدأت تتعبد وتختصر .. وهى فى عجب .. كيف انقلب مراد من إنسان يفرط فى العمل والشاغل إلى إنسان يفرط فى الكسل ويميش فى اللامبالاة .. ربما كانت هذه هى طبيعة كل من يتميز بالإفراط .. فهو إما أن يفرط فى العمل وإما أن يفرط فى الكسل .. وهى تدعو الله بأن يعود زوجها إلى الإفراط فى العمل ..

وبعد أن مر الشهر الذى قد حدده كإجازة يستريح بها ، إذا به لا يزال قاعاً فى البيت لا يتحرك .. وسألته وكأنها تنهره فى رقة :

— ألى تبدأ فى البحث عن عمل ؟!

ورد عليها بمنطق تسمعه منه لأول مرة .. صاح قائلاً :

— كيف تريدنى أن أبحث عن عمل .. هل أدور على الناس أستجديهم ليتفضلوا بالإشفاق عنيّ ويمنحونى عملاً .. هل تريدنى أن أنسى كل ما قدمته للبلد وأتقلب إلى شحاذ .. لا .. إنهم هم الذين يسعون ورأى ويتوسلون أن أقبل العمل الذى يعرضونه .. وقد أقبل أو لا أقبل .. إنى أستاذهم وسيد سيدهم .

وله يمع أحد ورأه ..

وبدأت تحس به وهو قابع فى البيت كأنه قابع على صدرها .. أصبحت تحس بكل ساعات ودقائق يومها كأنها مشارط تمزق فى إحساسها .. لم تعد تستطيع أن تجد ما تعودته .. إنها لا تستطيع أن

توقظه في الساعة السابعة صباحا لأنه ليس في حاجة لأن يكون له موعد يصحو فيه .. وابنها شهاب وابنتها لوتس قد يحرجان إلى المدرسة دون أن يريا وجهه ثم لا تستطيع أن تطف البيت وترسه وتشرف عليه وهو فيه .. إنها تراه كأنه أصبح قطعة من المحر أو الصخر تشوه جمال ونظام البيت .. وقد فقدت متعة انتظاره التي تعودت عليها .. متعة الشوق .. أصبحت تعيش وهي في انتظار متعة أن يخرج من البيت ويريحها من وجوده .. حتى بعد أن تدخل المطبخ لم تعد تحس بمتعة إعداد الطعام ينما هو جالس في الصلاة وكأنه جالس فوق كتفها .. ولم تعد ساعات الليل التي تجمعهما بعد أن ينام شهاب ولوتس تحد فيها المتعة التي كانت تنهاها في نهاية كل يوم .. كيف نهيا بحديثه في هذه الفترة وهو طول اليوم بجانها يتحدث كلما أراد ..

ثم زحف عليها إحساس بأن مجرد وجوده في البيت أصبح يفسد ابها وابنتها .. إنه طول عمره هائم في حب ابنه شهاب وقد أصبح في كل يوم بعد أن يعود ابنه من المدرسة يأخذه بجانبه ويجلسان أمام التلفزيون .. فيلبيه عن مذاكرة دروسه .. كما كان طول عمره عيفا بالسبة لابنته لوتس .. ويعار عليها من الهواء ويحرض عليها حياله الرجعى .. أين تذهب .. ماذا تلبس .. كيف تحطو في مشيتها .. ولماذا تظل من الشباك .. وقد أصبح وجوده في البيت عذابا لابنته لوتس .. لا يمر يوم إلا وتكفي وتهرب من أمامه حتى لا يحرجها بكلماته .. والمهم المذاكرة .. وناهد كأم لم تعد تستطيع أن تقوم بالإشراف على مذاكرة الولد والبنت لدروسهما .. فاذا استطاعت أن تأحدهما بعيدا عن أبيهما وتحلسهما بحاسنها للمذاكرة وحدث نفسها

لا تستطيع أن تركز ذهبا وإحساسها فيما يذاكرانه كما تعودت .. فبين كل سطر وآخر مما يقرأه تجدها ذهبا وإحساسها يشت إلى الحال الذي أصبح فيه زوجها .. والولد والبنت أيضا لا يستقران بين الكتب والكراريس ويقفزان بين كل لحظة وأخرى إلى أبيهما بحجة أنهما يسألانه سؤالا فيما يدرسان .. وهو نفسه قد يناديهما ويحطهما من أمام كتب المذاكرة ليريا مشهدا أعجبه على شاشة التلفزيون .. لقد أصبحت تحاف على الولد والبنت ألا يجعها في امتحان المدرسة بعد أن كانت تعيش وهي تعتبرهما من الطلبة العاقرة ولا تخاف عليهما من أي امتحان ..

وحتى عزيزة التي تعمل في البيت منذ أكثر من عشر سنوات بدأت تتعير .. ربما لم يعد البيت هو نفس البيت .. لقد كانت عزيزة تعمل وهي لا تتلقى الأوامر ولا تخضع إلا لست البيت .. ولم يكن رجل البيت يأمرها أو يطلب منها شيئا .. بل ربما كان لا يحس بوجودها إطلاقا .. لم يكن يطلب شيئا إلا من زوجته ست البيت .. وكانت ست البيت وحدها هي التي تتعامل مع عزيزة .. ولكن رجل البيت أصبح الآن مقيما طوال النهار والليل في البيت وأصبح يتعامل مع عزيزة .. أصبح لعزيرة سيدان لا سيد واحد .. لم تعد ملكا لست البيت وحدها ولكنها أيضا ملك لرجل البيت .. ولا شك أن عزيزة ترتاح أكثر في التعامل مع رجل البيت .. على الأقر هو حاهل بكل أعمال البيت ويكون أرحم عليها فيما يكلفها به وهي تستطيع أن تخدعه وتكذب عليه بسهولة .. وأصبحت ناهد تعاني حتى من عزيزة .. وقد أصبحت ناهد مقتعة بأنها يحب أن تغير من نظام أيامها التي

تعودتها .. إن الأيام مع زوج يعمل لا تصلح لتفضيها مع زوج على المعاش .. زوج عاطل .. وقد بدأت تفكر في إقامة الدعوات للأصدقاء .. وفي قبول الدعوات .. إذا كان زوجها لا يريد أن يخرج من البيت وحده فلتخرجه معها .. ومجتمع الدعوات والجلوس بين الأصدقاء قد يعيد إليه رغبته في العمل ويدفعه إلى البحث عن مجال يعمل فيه .. خصوصاً وأن بين الأصدقاء من كاد يعمل معه ومن المتخصصين في صناعة الغزل ..

وكان زوجها مراد يقاوم مقاومة عنيفة أى فكرة لدعوة أصدقاء أو قبول دعوة .. لم يعد يطيق أن يستقبل أى أحد من البيت أو يخرج من البيت .. أصبح كأنه يعيش وهو حى فى مقبرة جميلة لا يقصه فيها شيء .. ولكنها كانت تستطيع أن تتحاييل عليه وتلج إلى أن يقبل توجيه أو قبول دعوة .. وكانت توجه إليه الأسئلة عن العمل الذى قرر أن يقوم به بعد أن أحيل على المعاش .. وكيف يقضى أيامه ويملا فراغه .. وكان يكذب .. كان يقول إنه بعد دراسة واسعة عن صناعة الغزل سيسهرها فى كتاب .. وأحياناً يقول إنه يكتب مذكراته .. وأحياناً يقول إن شركات الغزل قد عرضت عليه العمل معها ولا يزال يختار بينها .. وكل ذلك كذب .. إنه يقضى كل أيامه وهو يفت صفحات الصحف والمجلات ويشاهد ما على شاشة التلفزيون ..

ويست ناهد ..

إن زوجها لن يعود إلى العمل أبداً ..

إنه مفرط فى الكسل وليس هناك أى دافع يقاوم به كسله .. وهو فى حالة اكتفاء تام .. ولا يطمع حتى فى الكسب وزيادة دخله .. ومالديه

يكفيه فقيمة معاشه لا تقل عن قيمة المرتب الذى كان يتقاضاه إلا عشرة جنيهات .. وقد جمع مبلغاً كبيراً بفضل إرادة زوجته وقدرتها على التوفير .. وهو مبلغ يضعه فى البنك ويدرس عليه أرباحاً .. علاوة على العشرين فدناً التى ورثها عن أبيه ضمن الأرض الواسعة التى يديرها أخوه الأكبر .. ثم إنه سعيد مع زوجته .. وسعيد بابنه وابنته .. وسعيد ببيته .. وسعيد حتى بعزيرة الشغالة .. فمادام يترك كل هذه السعادة ويتعب نفسه فى البحث عن عمل .. ثم إنه تعود العمل فى مؤسسات عامة تملكها الدولة .. تعود على أن يتعامل مع الدولة .. ولا يريد أن يحازف ويتعامل مع أصحاب أعمال خاصة .. قد يفقد هيته .. هية الدولة ويمرط شخصيته بين أصحاب رؤوس الأموال .. ولم تعد ناهد تطيق اليأس ..

ودون أن تحس وجدت نفسها تتركه .. وتترك ابناً وابنتها .. وتترك البيت .. وتهرب دون أن تفتح أحدهما بما قررت .. بل إنها هى نفسها تكن تعلم ماذا قررت .. وأخذت تحوب الشوارع طوال النهار إلى أن وجدت نفسها تذهب إلى بيت أختها الكبرى وتعلمها أنها ستقيم عندها ..

واتصلت أختها بزوجها مراد بالتليفون وصاح مراد :

— لقد كدت أحن وأنا فى انتظارها .. إذا لم تعد إلى البيت خلال

ساعة واحدة فلأتى أنا إليها ..

وقالت أختها فى هدوء :

— أفضل أن تركها عدى حتى تهدأ وتشتد أعصابها ..
واطمان ..

وتركها مراد إلى أن تعود ..

وأما تعذب .. إنه لم يمض على إحالة روحها إلى المعاش سوى تسعة شهور ورغم ذلك لم تحمله فكيف تحمله بقية عمرها .. ولكنها لا تستطيع أن تعيش بعيدا عن ابها واستها .. وهى فى كل صباح وكل مساء تطلب من أختها أن تطبها فى التليفون لتحدثها وتحدث عزيمة لتعطى إليها تعليمات بخصوصهما .. لم تكن هى التى تدير رقم التليفون حتى لا تواجه بصوت زوجها مراد .. ولكن رغم كل شيء فهى تحب مراد .. لا تستطيع أن تهرب من ثلاثين عاما من عمرها عاشتها فى حبه .. ثم ماذنيه .. إن هذه هى طبيعته .. كما كان يتحمل الإفراط فى العمل فهو يتحمل الآن الإفراط فى الكسل .. إنه لا يعتمد شيئا ولكنها طبيعته .

ولم تق فى بيت أختها سوى ليلتين وفى الصباح التالى وجدت نفسها تعود إلى البيت .. وقد عادت فى الساعة السادسة والصف صباحا حتى تطمئن على الولد والبنت وتعددهما للذهاب إلى المدرسة .. وفوجئت بأن وجدت روحها مراد متيقظا وأنه واقف مع عزيمة يشرف عليها فى إعداد الإفطار .. ومرح بعودتها فرحة كبيرة ولكنه ما كاد يقبدها مرحبا حتى تركها ودخل حجرة النوم وألقى بنفسه على الفراش .. وهى مذهولة بالدهشة بعد أن وجدت مراد متيقظا ويتولى إعداد الإفطار للولد والست .. وبدأت تقتنع بأن مراد ليس من طبيعته الاستسلام للكسل إلى حد أن يهمل الاطمئنان على مسيرة شئون البيت .. وقد كان يعتمد

عنها اعتمادا كاملا ويلقى نفسه بين الصحف والمجلات وأمام شاشة سمفزيون .. ولكن عندما غابت عنه وعن البيت نفص عن بعض الكسل .. بدأ يشرف على شئون البيت بستانى الشاطئ .. بل عرفت أنه خرج أمس إلى السوق واشترى اللحم والحبصار واشترى أيضا بطيختين .. واكتشفت أنه ليس جاهلا بأسرار السوق .. إن ما اشتراه يتوفر فيه جودة نصف والأسعار المعقولة .. لم يستطع أحد فى السوق أن يفشه أو يحدعه ..

وبدأ تمكيرا يتجه اتجاها جديدا ..

إنها لم تستطيع أن تقع روحها بأن يعود إلى العمل فى المجال العام وفى تخصصه بصناعة العزل .. ولكنه عنى استعداد لأن يعمل داخل بيت فى إدارة شؤنه والإشراف على ما تحتاجه العائلة .

وهى نفسها تحس بأنها تستطيع أن تعمل خارج البيت .. بل إنها طوال عمرها كانت تمر عليها فترات تتجمل نفسها وهى تعمل فى إحدى الشركات الكبيرة المتخصصة فى مد الأسواق بالملابس النسائية وملابس الأطفال .. أو تشارك إحدى صديقاتها الكثيرات اللاتى افتتحت كل مهنة بوتيكة ببيع ألوان النساء المستوردة وحققن ربحا صائلا . ولكنها لم تقدم على أى عمل وضلت طوال عمرها متفرغة للبيت لأنها كانت تتصور أن البيت لا يستطيع أن يستغنى عنها ولو ساعات من يومها ..

والآن يمكن أن يتغير الوضع العائلى .. لقد كان وضعها قائما على أن يعمل زوجها خارج البيت وتعمل هى داخل البيت .. ومنقلب هى هذا الوضع .. ستعمل هى خارج البيت وينحصر زوجها العمل على إدارة

البيت وتدير شؤون العائلة ..

ولم تناقش زوجها في هذه الأفكار التي بدأت تتحكم فيها إلا بعد أن استطاعت أن تنفق على أن تعمل في شركة « المرأة السعيدة » التي تدير عدة مصانع لإنتاج الأقمشة والملبوسات النسائية ولها عدة محلات منتشرة في القاهرة وفي كل عواصم مصر تبيع إنتاجها .. وقد رحب رؤساء هذه الشركة بأن تعمل ناهد لديهم .. إنها سعيدة يحترمها كل المجتمع ومعروفة بشطارتها وذكائها وجديتها ..

وفاجأت مراد قائلة :

— اتفقت على أن أعمل في شركة « المرأة السعيدة » .. بمرتب مائتي جنيه في الشهر ..

ورد عليها في دهشة :

— إننا لسنا في حاجة إلى هذا المرتب .. ونحن نتركبن البيت ؟
وقالت وهي تبسم له الابتسامة التي تعلم أنه يحبها ويضعف أمامها :
— لقد تعودنا على أن يعمل أحدنا في الخارج ويعمل الآخر في الداخل .. وبما أنك أصبحت تقيم في البيت فلا أعمل أنا خارج البيت ..
وصاح من خلال دهشته :

— لماذا ؟

وقالت من خلال ابتسامتها :

— كي لا يخسر أحدنا متعة انتظار الآخر حتى يعود إليه .. متعة الشوق ..

وربما كانت ساعتها على استعداد لأن تعدل عن كل أفكارها ومشروعاتها لو أن مراد صمم على أن تبقى متفرغة لبيت وبعدها بأن

مخرج هو للعمل .. ولكن مراد لم يصمم ولم يعد وقال ساخرا :

— لسجرب حياة جديدة ..

وخرجت للعمل ..

ولم تكن تعتمد قبل أن تخرج أن تلقى على مراد تعليمات بخصوص إدارة البيت واحتياجات العائلة .. لم تكن تريد أن تشعره بأنه قد أصبح الزوجة وهي الزوج .. ولكنها كانت تلقى مطالبها الخاصة بالبيت في كلمات عابرة لا تحمل لهجة الأمر كما تعود الأزواج وهم يفرصون على الزوجات مطالبهم ..

وكان أول ما عاودها منذ أن بدأت تعمل خارج البيت هي متعة الشوق .. الشوق إلى الأولاد .. والشوق إلى البيت .. والشوق إلى مراد .. الشوق إلى أن تعود إليه بعد أن كانت تعيش في شوق أن يعود إليها .. وكان العمل يمرض عليها كل يوم غيبة طويلة .. كانت تخرج مع شهاب ولوتس في الصباح ولا تعود إلا في الساعة الرابعة بعد الظهر وأحيانا الخامسة .. بل كانت أحيانا تضطر إلى الحروح في المساء لتعود للإشراف على العمل ..

المهم أن مراد تغير كثيرا ..

تغير وهو سعيد .. بل يبدو أنه أكثر سعادة ..

إنه يشرف بنفسه على إعداد البيت بعد أن تخرج ناهد .. وينزل إلى السوق ليشتري كل ما تحتاجه العائلة ..

بل أصبح يدخل المطبخ ومعه عزيزة .. لقد كان يدخل المطبخ أحيانا وهو معها .. وكان يتعاضد بأنه أمهر من بعد طبخ البيض الأولم .. ولكنها لم تعرف عنه أن هوايته للمطبخ تصل إلى حد إجادته

طهو كل هذه الأصناف .. وأكثر من ذلك .. لقد بدأ بنفسه يتحمل مسؤولية الإشراف على شهاب ولوتس في مداكرة دروسهما .. لقد قال لهما إنه أمهما أصبحت مشغولة وهو وحده الذى يتحمل مسؤوليتهما .. وطبعاً لم تستطع أن تستسلم كل الاستسلام لمسؤولية زوجها على البيت .. من المستحيل أن يصل إلى مستواها كست بيت .. وكانت بعد أن تعود إلى البيت فى كل يوم تصصح بعض ما قام به .. أو تتعمد أن تفعل شيئاً لم يفعله .. وكانت لا تستطيع أن تحرر المطبخ محررة كاملة .. كانت تدخل وتتعمد أن تطهو بنفسها صفا تعلم أن زوجها يستحيل عليه أن يطهوه .. إنه صم يحتاج إلى عذرية المطبخ .. وهى حريصة على أن تبرز عذريتها أمام ابنها واستها وتحدى بها زوجها .. بل إنها كانت لا تعود إلى البيت إلا بعد أن تمر على السوق حتى بعد أن تعودت على أن يشتري زوجها كل شيء .. وتتعمد أن تشتري ما تنصوّر أنه لم يحظر على بال زوجها شراءه .. فقط لتقعه بأنه لن يصل أبداً إلى مستواها كست بيت .. لن يستطيع الرجل أن يستمى أبداً عن المرأة فى البيت .. وكل ما فى الحياة أصبح يحيطها بمتهى السعادة ..

ولكن ..

إنها تحدع نفسها عندما تنصوّر سعادتها بالعمل خارج البيت وترك زوجها يعمل داخل البيت .. إنها تعيش مشدودة إلى البيت رغم كل ما يشغلها به العمل فى الشركة .. لا تمر بهادقائق متفرغة من العمل حتى تجد عقلها يشت إلى تصور ما يجرى فى البيت .. بل إنها بدأت تحس كأنها مفتاة من زوجها مراد لأنه أخذ منها مسؤولية البيت .. ثم بدأت تطراً على بالها فكرة أخرى ..

لماذا لا تحيل نفسها على المعاش وترك العمل فى الشركة وتعود وتستقر فى بيتها بجانب زوجها .. سيكون الاثنان — هى وزوجها — فى حالة واحدة .. كلاهما محال على المعاش .. وكلاهما اختار التفرغ لحياة البيت بلا عمل بعيداً عن ست ..

ولكنها لا تزال فى الخمسين من عمرها .. ولم يقض على عملها فى شركة « المرأة السعيدة » سوى عام واحد .. أى ليس من حقها أن تحيل نفسها على المعاش .. وليس هناك قانون يفرض عليها الإحالة على المعاش كما يفرض على زوجها .. حتى يكون الاثنان فى حالة واحدة .. وهى لا تزال تفكر ..

ويشدد صممها يوماً بعد يوم ..

إن متاع البيت ومتاع الروح أرحم من متاع البعد عن البيت وعن الروح .

إني سعيدة .. فقد أكلوا الحمى ..

كانت معروفة بذكائها أكثر من غرورها بأنوثتها .. وقد استطاع هذا الذكاء أن يجعل عمرها كله كأنه صفقة مربحة .. وكانت قد حصلت على الشهادة الثانوية والتحقت بالعمل في مكاتب مصانع الغزل والسيج التي يملكها الثرى ورجل الأعمال الكبير بلتاجي جمعة .. واستطاعت بذكائها أن تستغل بهرة وحرارة أنوثتها فانتقلت خلال عام واحد للعمل كسكرتيرة للسيد بلتاجي جمعة نفسه .. كانت إحدى ثرات ولكنه حصص لها مكتباً وحدها .. وكانت كل مهمتها كسكرتيرة قاصرة على أن تدخل على السيد بلتاجي عندما يذق لها الحرس أو ترد عليه عندما يذق لها التليفون .. وبعد عام واحد تزوجها السيد بلتاجي مع احتفاظه بزوجته الأولى ..

وقد انقطعت عن العمل كسكرتيرة والتردد على المصنع منذ تزوجت وتفرغت لزوجها في الشقة الرائعة التي خصصها لتكون بيت الروحية في أرقى أحياء القاهرة .. والسيد بلتاجي رجل منظم إلى آخر درجات التنظيم في حياته الخاصة كما هو منظم في عمله .. وقد حصص لها ثلاث ليالي روحية في الأسبوع .. ليلة السبت .. وليلة الاثنين .. وليلة الأربعاء .. وكانت متأكدة أنها في كل ليلة تزيد ارتباطاً بها .. دون أن تحاول أن تزيد من عدد هذه الليالي لتأخذ أكثر من زوجته الأولى .. إن ثلاث ليال تكفيها وتريحها الليالي الباقية من العهد لدى تبديلها فيها .. ولم يكن جهدها محصوراً في استغلال أنوثتها .. بل

كان يعتمد أكثر على ذكائها .. وكان أهم ما يشغل ذكائها هو فهم تفاصيل عمل زوجها .. وعلى أسرار مصانع الغزل والسيج .. كانت كأنها تريد أن تطمئن على نفسها إذا ما تركها زوجها فجأة .. أو يتوفاه الله وحسباً أن فارق السن بينهما كبير .. تريد أن تطمئن على الاحتفاظ بنصيبها في أملاكه الواسعة ودخله الكبير .. وحتى قبل أن يموت فهي تريد أن يكون نصيبها على الأقل في مستوى نصيب زوجته الأولى وأولاده منها ويوفر لها نفس مستوى الرخاء .. وكانت تستطيع وهو معها أن تشده إلى الكلام عن أعماله .. ووصل تمتعه بالحديث إليها إلى حد أنه كان أحياناً يستشيرها في بعض مشاكل العمل العابرة .. وأحياناً كان يرسل إليها الرسومات المعدة لتقول رأيها فيها وفي اختيار ألوانها قبل أن يحولها إلى أقمشة .. أصبحت كأنها مستشارته الخاصة بجانب أنها زوجته .. وكل رؤساء العمل في المصنع أحسوا بنفوذها عليه وبدأوا يحسبون حسابها .. وهي لم تحاول أن تجاهر بهذا النفوذ حتى لا تعرض نفسها لخلافات ومناقشات سافرة ، ولكنها عملت على اكتساب صداقة بعض العمال وبعض الرؤساء .. صداقة عائلية بريئة .. كانت تستطيع من خلالها أن تكشف تفاصيل أكثر من تفاصيل العمل لم تستطع أن تصل إليها من أحاديث زوجها ..

وقد أنجبت من زوجها ابنتها ليلي .. وبعد عامين أو ثلاثة تأكدت أنها لن تنجب منه أكثر .. وهي المسئولة .. فقد تعرضت في وضع ابنتها لما يحرمها من الاستمرار في الإنجاب .. وعلى كل حال فإن زوجها هو الآخر قد وصل من السن ما يخبره مع اهتمامه بالإنجاب .. ومنذ وضعت ليلي وهي تحيطها بذكائها بجانب أمومتها .. إنها

يجب أن تعدها لتحمل مسئولية مصانع أبيها وثروته بعد أن يموت وبعد أن تموت هي الأخرى .. حتى تستطيع ليلي أن تحتفظ دائما بصبيها وتحمي نفسها في مواجهة ولديه الآخرين من زوجته الأولى .. ولو أنهما أخواتها غير الشقيقتين إلا أن التباعد بين الييتين يصل إلى حد التاعد الكامل .. حتى إنها لم تلتق أبدا بهذه الزوجة الأولى وابنتها ليلي لم تلتق أبدا بأخويها .. وإن كانت تعلم أن لها أخوين وهما يعلمان أن لهما أختا ..

ومنذ بدأت ليلي تكبر وأمل أمها فيها يخيب يوما بعد يوم .. لقد أخذت عنها أنوثتها وإن كانت تشوبها بعض خطوط حافة ورثتها عن أبيها .. ولكنها لم تأخذ شيئا أبدا من ذكائها .. ولا بارقة طفيفة من هذا الذكاء .. وربما كان غياب ابنتها هو الذي جعل منها فتاة مستسلمة استسلاما كاملا لكل ما تطلبه منها .. ولكن ابنتها مهما استسلمت فهي لا تستطيع أن تنصب الذكاء في رأسها .. بل لا تستطيع حتى أن تثير فيها الإحساس بالطموح لتكون فتاة قادرة على تحقيق مصالحها .. إنها لا تستطيع حتى أن تثير فيها الرغبة في العلم .. وكانت دائما تلميذة خائبة .. وعجزت عن أن تثير فيها الإصرار على النجاح في المدارس بعد أن نقلتها من المدارس الفرنسية إلى المدارس الإنجليزية ثم إلى المدارس العربية .. حتى وصلت إلى السادسة عشرة من عمرها دون أن تحصل على شهادة لها ورد وإن كانت قد وصلت إلى القراءة والكتابة والتعلم ببعض الكلمات الفرنسية والكلمات الإنجليزية ..

إن كل ما تحس به هذه الفتاة .. ابنتها ليلي .. هو أنها أنثى .. وكل ما تسعى إليه هو التمتع بأنوثتها .. حتى لو خرجت عن استسلامها لأمرها ..

وختارت ليلي بعد أن تعدت السادسة عشرة ابن الحيران .. مصفى .. وبدأت تحدثه في التليفون .. ثم بدأت تلقاه .. وأمرها يعرف .. ولكنها لا تعتبر أن ابنتها وقعت في حب مصطفى .. إن ذكائها لا يعرف بالحب إطلاقا .. عابث وحده لا يكفي لبناء المستقبل .. ركت ابنتها مع مصفى على أنها فقط تنهو أنوثتها .. ولكن مصفى تخرج في الجامعة وتقدم بطلب الزواج .. وصرخت الأم .. لا .. مستحيل .. إنه شاب يسعى للانحياز بوررة الحارحية ليبدأ حياته موطئا في إحدى السفارات .. إنه مستقل لا يصلح لابنتها .. إنها تريد لها شادا بعد نفسه للأعمال الحرة .. يستطيع أن يقف بجانبها في حماية حقوقها التي سترتها عن أبيها .. إذا كانت ليلي لا تستطيع فعلى الأقل تنروح من يستطيع ..

ومصطفى يلح .. وليلي تمنح .. أريد أن أتزوج يا ماما .. إلى أن وافق الأب على هذا الزواج .. لأن الأب لا يمكن أن يصرأ على حاضره أن يبحث عن يحيى ابنته من ولديه الآخرين .. واضطرت الأم أن توافق .. وسافرت ليلي مع زوجها حيث عيش موصفا في إحدى عمارات في حراج .. وأحست الأم بعد أن سافرت ابنتها أنها فقدت كل ما قصت حياتها تسعى إليه وتحتفظ به .. فقدت مصانع العزل والسيح .. فقدت كل ما ميحلفه زوجها بلتاجي من لذة .. من سيحيمي حقوق ابنتها بعد أن يموت ..

وقد مات زوجها فعلا بعد عام واحد من زواج ابنتها .. ووقعت الأم وحدها بدفع عن حقوقها لافي تقدير الإرث فقط بل وفي إدارة هذا الإرث .. وأن تعرف أين كل مليم تركه زوجها المرحوم .. وتعرف كل

تفاصيل إدارة المصانع .. وولده رغم تباعدهما عنها .. ورغم الجفاء الذى يجمع بينهما .. لا يتخذان موقفا منها .. ولا يثيران أى مشكلة يمكن أن تؤدى بالعائلة كلها إلى القضاء .. بل إنهما سمحا لها بالاشتراك فى الإدارة وكونا مجلسا للإدارة تكون من بين أعضائه .. ولكن الأم لا تأخذ كل هذا على أنه حكمة منهما وحرصا على سمعة العائلة بل تأخذه على أنه نتيجة قوة ذكاتها ..

وهى تشيخ .. إنها تخاف أن تموت هى الأخرى .. ولعلها بعد أن تموت ينفرد الولدان بكل شيء ولا يبقى لابتها شيء ..

وكانت ابتها قد جاءت فى إجازة مع زوجها مصطفى فانفردت به الأم بعد أن تعلمت أن تستقبلهما بترحاب كبير .. وقالت له :

— لماذا لا تستقيل وتفرغ لإدارة المصانع التى لزوجتك نصيب كبير فيها ..

واعترض مصطفى .. إنه مصمم على أن يبقى فى السلك الدبلوماسى حتى نهاية عمره .. هذا هو استعداد وهويته .. وطال إلحاح الأم واشتدت المناقشات حتى يفت ..

وبدأت تركز كل ذكاتها على السيطرة على ابتها .. إنها تحاول أن تقنعها بأن مستقبلها ليس مع زوجها ولكنه مستقبل مع هذا الثراء الضخم الذى ورثته عن أبيها .. وسيضيع منها هذا المستقبل إن لم تمش له .. ويجب أن تعيش له حتى لو اضطرت أن تترك زوجها .. الطلاق .. واستسلمت ليلي إلحاح أمها حتى بدأت المشادات بينها وبين زوجها ثم رفضت أن تعود معه إلى مقر منصبه بعد أن انتهت إجازته .. صارحته

بأنها تريد الطلاق .. ولم يطلقها قبل سفره ولكنه تركها مع أمها لعلها تعود إليه .. إنه يحبها ..

وذكاء الأم ينطلق بها كصاروخ .. إنها حتى تحتفظ بإصرار ابتها على الطلاق فيجب أن تشعل أنوثتها .. وهى لم تشغل أنوثتها إلا إذا وصفتها فى طريق زواج آخر .. وقد اختارت هى هذا الزوج الآخر .. إنه مهندس شاب يعمل فى مصانع الغزل والنسيج منذ أكثر من عامين .. وكل من فى المصنع يشيدون بعمله .. إنه موهوب إلى حد البقرية .. وهى قد عرفت شخصيا وكان الوحيد الذى تشرح للمعلومات التى يلقها إليها والآراء التى ينصحها بها .. المهندس رفعت ..

وبدأت تدعو رفعت إلى البيت وترفع الكلفة بينه وبين ابتها ليلي كأنه واحد من أفراد العائلة .. وقد عرف أن ليلي طلبت الطلاق من زوجها .. ووجد أنه يستطيع أن يتمنى زواجها .. ثم بدأ يطلب الرواح فعلا .. وعمل ليلي لم تحب رفعت ولكن الحو الذى كانت تحيطها به أمها كان حوا يثير كل أنوثتها .. وكل ما تستجيب له أنوثتها مباح لها ..

إلى أن يرس منها زوجها مصطفى وأرسل لها الطلاق .. وستزوج رفعت .. ولكن رفعت يطلب التأجيل فترة إلى أن يتم زفاف أخته التى أعلنت خطوبتها .. ولكنه بدأ يتغير .. لعله قدر أن زواجه بليلى سيضعه فى نوع جديد من العلاقات مع أحويها اللذين يديران المصنع الذى يعمل فيه .. وهو يحترم الأخوين بل ويحافهما .. إنهما أقوى مما تقدر الأم .. ولعله قدر أنه لكى يعيش زواجه بليلى فيجب أن يعيش بين أصابع الأم .. وهو من الذكاء بحيث يقدر ذكاء هذه الأم ويخافه ويخشاه .. إنه ذكاء محصور فى الأنانية والملكية الخاصة ..

إلى أن جاء يوم فوجئت فيه الأم ومعهما ابنتها باستقالة رفعت من العمل في مصانع بلتاجي .. وجاء إليها معتذرا بأن الدولة عرضت عليه أن يعمل في مصانع المحلة متحملا مسئولية رئيسية وبعد إرساله في بعثة إلى موسكو لدراسة آلات السجج هناك التي تنوي مصر استيرادها .. وهي بعثة قد تطول إلى أكثر من عام .. لذلك فهو يطلب تأجيل الزواج .. ويترك ليلى حرة ..

وجئت الأم .. كأنها طعنت في ذكائها .. وألحت على رفعت في استجداء أن يعدل عن قراره .. أن يستسلم لما رسمته له .. وصعقت ابنتها ليلى .. إنها لا تحب رفعت ولكن أنوثتها كانت قد تعودت عليه واستقرت معه .. ووصل إلحاحها عليه إلى حد أن أمضت ليالى في فراشه .. وأنها تعلم وتتركها تعريه بكل أبوشها .. ولكن كان رفعت يكرر وهي بين أحضانه .. لا يستطيع أن يقرر شيئا الآن .. لترك جينا في يد القدر ..

لأنه يهرب ..
والأم ليست من الضعفاء حتى تتسسم عقر أو تترك ابنتها تتسليم له ..

وكان بين مهدي مصانع بلتاجي شاب آخر .. عباس مختار .. إنه في منتهى النشاط .. وإن كان نشاطه محيرا .. نشاط يثير دائما ضجة متعة ولكنه إذا وضع نفسه في عمل يحج دائما فيه .. وقد عرفته هو الآخر شخصيا .. كان هو الذي استطاع أن يصل إليها ويكسب رضاه باعتبارها من ورثة بلتاجي وعصوة في مجلس الإدارة .. وربما سعى إليها لأن ولدي بلتاجي كانوا يتعمدان إبعاده والحد من نشاطه مع

احتفاظهما به .. فأراد أن يستند عليها .. لماذا لا يكون هو من تسعى إنه ليرعى مصالح ابنتها بعد أن تموت .. لماذا لا يكون هو الروح المطلوب .. الزوج الذي يغيبها عن انتظار ما ينفه القدر على يد رفعت .. ودعته إلى البيت .. وتركته منذ اليوم الأول يفهم أن ابنتها سحبت عن روج .. ثم تركته يطلبها .. وليلى لم تفكر أبدا في الرفض أو القول .. بل لعلها لم تهتم بأن تعرفه أو حتى تهتم بالتدقيق في ملامحه .. إنها مكتوبة بما حدث لها مع رفعت .. وتريد أن تهرب من نكتها .. وعباس يملأ دنياها بشاطه ولا يكف عن إشغالها بنفسه وإصحاكها وتسليتها وشدها بعيدا عن نكتها .. لماذا لا تنزوجه .. على الأقل حتى تعيط رفعت وكأنها تقول له إنها تستطيع أن تحد مثله عشرات يتقدمون إليها بإشارة من أصبعها ..

ولم تنظر الأم مدة كافية حتى يعيش عباس معها كخطيب لابنتها .. وحتى تختيره وتعرفه أكثر .. لقد قررت أن يتم الزواج في الحال .. وعندما عرف أحوال ليلى وقل عقد القران ذهبا إلى الأم بصحاحنها برفض هذا الشاب .. إنه شاذ .. محبون .. ورغم كل مظاهر شاطه إلا أنه لا يوثق به .. ولكن الأم صممت أكثر .. لعلهم لا يريدونه لأبهم بحافوه .. يخافون من قوة وعيه تقف في وجوههم حمية لحقوق ابنتها وهم يديرون المصنع ..

واستسلم الأخوان حتى لإنهما حضرا عقد القران حرصا على المظهر العائلي .. وقد مضت الأسابيع وعباس يبدو كزوج مثالي .. هادئ .. حاد .. حريص على مظهره الحديد كزوج ابنة عضو مجلس الإدارة .. ولكنه بدأ يضيق بهذا المظهر وهذا الهدوء والجدية .. وكأنه عاد إلى

طبيعته .. عاد نشطا هذا النشاط المجنون .. ولم يعد يستجيب لمطالب الأم ولا يراعى خواطر ليلي .. إنه ينطلق حرا .. ولا يقلع إلا في العمل الذي يختار أن يضع يديه فيه .. ولا أحد يدري كيف ولا ماذا يختار .. وفي نفس الوقت لم يكن يحاول أن يجعل من نفسه شخصية بجانب شخصية ولدى بلتاجي .. إنه لا يريد أى مسئولية جادة من مسئوليات العمل .. والولدان يعاملانه كما تعودا معاملته .. يتركانه مجنوناً دون أن يحاولا التخلص منه ..

وبدأت الأم تفقد أملاها فيه .. بل بدأت تحس بأن قيمتها تنهار في المصانع بسبب هذا المجنون إليها كروح لايتها .. ويلي تنهار يوما بعد يوم مستسلمة لليأس .. إن هذا الزوج لا يحقق لها شيئا .. لا يستطيع أن يملأ حياتها .. ولا يستطيع أن تعيش مكنته به .. بل إنه حتى لا يستطيع أن يرضى أنوثتها ..

واتحدت الأم قرارها .. يجب أن يتم الطلاق .. وفرحت ليلي .. إنها فعلا تريد الطلاق دون حاجة إلى إلحاح أمها كما كانت تلح عليها لتطلق زوجها الأول مصطفى .. وأصبحت ليلي وحيدة ..

وعادت الأم منطلقة وراء ذكائها تبحث عن طريق آخر يضمن لابنتها حقوقها ويصون شخصيتها كورثة بلتاجي بعد أن تموت هي .. وكانت تحاول أحيانا تعليم ابنتها أسرار العمل في المصانع .. بدأت تحدثها كثيرا عن تفاصيل إدارة المصانع وإدارة أملاك أبيها .. بل إنها صحبتها أكثر من مرة إلى المصانع وفرضت حضورها معها في اجتماعات مجلس الإدارة .. لعلها تعلم وتعلم وتهم وتستطيع الاعتماد على نفسها .. ولكن المصطفى لا يستطيع

أن تفهم .. بل لا تستطيع أن تهتم بما تلقته لها أمها .. وعندما ذهب معها إلى المصنع تتعلق عيناها بوجوه الشبان من المهندسين وكبار الموظفين كأنها تختار واحدا منهم ..

ولكن ليلي كانت تمر بها ليلتي تقضيها مع دموعها وهي تستعرض كل حياتها .. إنها لم تمر بها أيام سعيدة هادئة مستقرة أحست فيها بأهميتها واستكمال كل شخصيتها .. أيام بعيدة عن هذا الضجيج الذي يصح في خيالها .. ضجيج آلات مصنع الغزل والنسيج .. وضجيج ربات الذهب الذي تركه أبوها .. لم تمر بها أيام سعيدة إلا أيام زواجها من مصطفى .. لقد كانت تعيش اليوم كله ويعيشه لها .. وكانت تفرح في العاصمة كلها التي يعمل فيها وفي المساء تبذل ملكة صغيرة بين سيلات السلوك السياسي .. لقد كانت تحبه .. ولكنه كان حاسلا سهلا يسديها حتى لم تكن تحس بأن هذا هو الحب .. ولكن أين مصطفى لأن .. لقد أصبحت في عالم غير عالمه .. وهي تتلمذ اليوم لأنها لم تحب منه .. لقد كانت واثقة من أنه سيقبى لها العمر كله حتى أجلت أمومتها لتتبع معه بمزيد من شبابها .. ربما لو كانت قد أنجبت منه لكان ابنتها الآن يجانبها يخفف من وحدتها وتكبتها .. ولكن أين الآن مصطفى على الأقل لتحب منه ولماذا يتركها لها ..

وهي من خلال كل دموعها لا تحس بأنها تلوم أمها .. هي التي طلقته من مصطفى .. وقذفت بها إلى رفقت .. وزوجتها من عباس .. ولكنها لا تحس كأنها تلومها .. إن استسلامها لا يتيح لها الإحساس بها إلا كآثم .. ولا يمكن أن يصل بها إلى حد لومها ..

ومضت شهور والأم وابنتها تائهتان .. لا يقصصهما شيء .. ولكنهما تائهتان وسط عواصف الذكاء التي تنطلق من عقل الأم ..
إلى بأن وقع الحدث الأكبر ..

لقد أمتت مصانع بلتاجي وصودرت كل ثروته ..
وجنت الأم .. وهمت أن تطوف بصرخانها .. ولكنها خافت أن يقبض عليها وتعتقل كما اعتقل ولدا بلتاجي .. واحتبأت هي وابنتها في شقتها التي صودرت أيضا وإن كانوا قد تركوا لها حق الإقامة فيها هي وابنتها . وقد صرفوا عنها إعانة حكومية قيمتها سبعون جنيهًا في الشهر لتعيش بعد أن صودر كل ماتمكها .. ولكن كان دكاؤها كأنه يسب بالعب فكادت دائما تحتصط بأموال لا يدري أحد مكانها حتى الحكومة .. ولم تكن تسحب من هذه الأموال إلا قروشًا فقط لتستكمل الضرورى من مضاف الحياة حتى لا يظهر عليها أى مظهر بدى على أنها تخفى شيئا عن الحكومة .. عن الثورة ..

ومضى شهران وهما يعيشان فى الشقة كأنهما يعيشان فى قبر .. ولا يحدثان حتى من يزورهما فى القبر ليرحم عليهما ..
ودق جرس الباب ذات يوم ..
إيه مصطفى ..

جاء من عمله فى إجازة ويمر عليهما ليطمئن .. ربما دفعه حافز الاطمئنان على ليلي وحدها .. إنه رغم كل ما حدث لا يزال يحبها .. أو على الأقل لا يزال يذكر أنه كان يحبها ..

وصرخت فيه الأم .. إنه الآن قد أصبح فى مركز السلك السياسى ولا شك أنه على صلة بكل الشخصيات المهمة فى البلد .. إنه يستطيع

أن يتخذها .. يستطيع أن يرد لهما على الأقل بعض ما كان لهما ..
ولكن مصطفى يعتذر .. إنه لا يستطيع شيئا .. وكلماته تقطر لوعة شتقة عليهما ..

وليلي استسلمت لدموعها وهى ترى مصطفى أمامها .. لا تجد ما تقول .. بل لا تستطيع أن تنطق بكلمة .. ومصطفى يربت عليها صامتا هو الآخر .. لا يدري ما يقوله .. ولكنه لا يستطيع أن يتركها .. وبعد أن تركها عاد إليها .. عاد كأنه عاد إلى حبه .. إنه لم يكن يعرف ما حدث لها بعده إلا أنها تزوجت وفشل زواجها .. وهو يقدر أنها لا شك تزوجت استسلاما للأم .. ولكنها لم تستطع أبدا أن تجد رجلا آخر غيره .. إنه يشعر بأنها مظلومة .. بأنها ضحية أمها .. ولم يعد هناك الآن ما يدفع الأم إلى حرمانها منه .. لم تعد هناك مصانع تريد لاستهارة جايديرها ويحفظ حقوقها فيها .. إيهما فى حاجة لمن يحمي مجرد وجودهما على قيد الحياة فى هذا المجتمع ..

وقال للأم إنه يريد أن يعيد ليلي زوجه له .. وهو يستطيع أن يصحبها لتقيم معه ومع ابنتها فى الخارج .. وسكنت الأم وهى راقدة على فراش المرض وقد ازدادت شيوخة حتى كأنها تلفظ نهايتها .. لم ترفض .. ولم يهن عليها أن تنازل عن كبريائها وتوافق .. إنها إذا وافقت على هذا الزواج فكأنها وافقت على صياغ كل ما جمعه دكاؤها خلال العمر كله ..

ومصطفى متعجل قبل أن تنتهى إجازته ويعود إلى عمله فى الخارج . ونم الزواج فعلا .. وحرحت ليلي من كل نكبتها ومن كل صياغها ومن كل نكباتها .. لم تعد تحس بأنهم أحدوا منها أو من أمها

شيئا .. لقد عادت إليها الدنيا كلها بعد أن عادت إلى مصطفى .. إلى
حجها .. أصبح كل ماتريده الآن هو أن تحب فوراً .. حالا .. حتى
يعطيها ولدا يحمها من وحدتها .. إنها لا تزال تخشى الماضى ..
تخشى الوحدة .. والضيق .. بعيداً عن مصطفى ..

وقالت تسأل مصطفى ورأسها راقد على صدره :

— لا أدرى لماذا أخذوا منا كل شيء ؟ ..

وقال مصطفى فى بساطته الحلوة :

— إنها الاشتراكية ..

وقالت ليلي ضاحكة :

— إنى أحب الاشتراكية .. فهي تعطينى نظير ما تأخذ .. لقد أعطيتى

الاشتراكية حبنى .. أعطيتى أنت ..

و كانت ليلي بسلاحتها تحس فعلاً أن ما يسميه زوجها بالاشتراكية

هو ما أعاده إليها .. لقد كانت المصانع التى ورثتها هى وأُمها هى التى

مَرقت حياتها .. والاشتراكية هى التى أعادت إليها الحياة ..

ووقفت أمام أمها الراقدة القراش تصيح ضاحكة :

— لقد أصبحت اشتراكية يا ماما ..

وصاحت الأم وهى تفرز أنفاسها :

— إنك كما أنت .. غبية .. حمارة .. حتى لو مزقوك وأخذوا

لحمك فلن تشعرى بأنه كان لك لحم ..

وأغمضت الأم عينها الغمضة الأخيرة ..

مهندس ميكانيكى

لم يكن محروس فى طفولته وصباه يتعمد أن يتعلم أى شيء .. كان
مجرد واحد من إخوته الثلاثة أبناء الباشاويش مجاهد .. عسكري
وليس ثلاثة أشرطة وأحد أفراد قوة حرس الوزارات .. وكان يعيش
كل دياه وكل عقلته داخل حارة الشيخ بركة بحى إمبابة .. ولكنه منذ
بدأ يعى وهو يتميز عن إخوته بأنه يمد أصابعه إلى كل شيء أمامه ويحاول
أن يلعب به .. ولكنه كان نوعاً غريباً من اللعب .. إنه يفتح كل غطاء
بصادفه .. ويفك كل مسمار تصل إليه أصابعه .. ويشد كل خيط
أمامه .. كان كأنه لا يريد أن يلعب فى الحارة مع بقية الصبية ولكنه
يقضى كل فراغه فى اللعب بكل ما فى البيت .. ورغم الضرب العنيف
لدى كاد يهال عليه به أبوه أو أمه كلما أفسد شيئاً كان لا يلبث أن يعود
ويمد أصابعه إلى كل شيء ..

ولم يحاول أحد فى البداية أن يفسر سر اختيار محروس لهذا النوع
من اللعب .. ربما كان شاذاً أو محنواً .. وليس أمام الوالدين
إلا الاستسلام لما كتبه الله عليهما فى ألبانتهما .. ولم يكتشف أحد أن
سر تمادى محروس فى مد أصابعه إلى كل شيء هو أن فى طبيعته حافز
يسيطر عليه ويدفعه إلى معرفة أسرار كل شيء .. وقد وقعت بين أصابعه
مرة الساعة الوحيدة التى يملكها أبوه ويعتز بها ويتفاخر بها .. فإذا به
يتحایل بأصابعه حتى يستطيع أن يفتح عطاها ثم يبدأ فى فك التروس
والمسامير من داخلها .. يريد أن يعرف كيف تدور هذه الساعة ،

ولمادا يعتز بها أبوه كل هذا الاعتزاز .. إلى أن خاف بأن يعود إليه أبوه ويضبطه يلعب بساعته .. وحاول أن بعيد كل شيء في الساعة إلى ما كان عليه فلم يستطع .. وصيطة أبوه .. وانهال عليه ضربا حتى كاد يهشم رأسه وهو يهدد أن يطرده من البيت ويرسله إلى القرية ليعيش فيها .. وحمل أبوه الساعة إلى محل الساعاتي ليعيدها إلى حالتها .. وبعد أيام كان محروس قد نسي آثار « العلقه » التي ناله وكان يعرف محل الساعاتي الذي يتعامل معه أبوه على ناصية الحارة فذهب إليه ، وقال في براءة :

— أبنى يسأل عن ساعته ..

وقال الساعاتي مبتسما مرحبا :

— ذكرتنى .. كنت قد نسيته رغم معزة أبيك ..

ثم التقط الساعاتي حطام الساعة وأخذ يعيد منها كل شيء إلى مكانه ومحروس بجانيه يطل عليه بعينين مهورتين .. يريد أن يعرف كيف تعود الحياة إلى هذه الساعة .. وربما لم يعرف كل شيء ولكنه على الأقل عرف بعض الأسرار التي تدور بها الساعة ..

وأكثر من ذلك .. لقد احتلى مرة بالمسدس المجرى الصحن الذي يحمله أبوه كأحد رجال حرس الوزارات .. المسدس الذي يحمله به كل ورير يقوم على حراسته .. وأيضا أحد قلب هذا المسدس بين يديه وهو يسائل نفسه في إلحاح .. كيف تعمل هذه الآلة الثقيلة .. إنه يعلم أنها تقتل ولكن ماذا فهي حتى تقتل .. وقد حدث وهو يقلب المسدس بين يديه ويحشر أصابعه في كل ما يستطيع أن يصل إليه منه .. حدث أن انطلقت منه رصاصة .. والحمد لله .. لقد أصابت الرصاصة حائط

العرشه ولم تصه .. وهجم عليه أبوه وكل من في البيت ونزع المسدس من يده ثم انهالوا عليه جميعا ضربا .. وصمم أبوه على أن يطرده من البيت لثيمين مع حالته .. والأب يكاد يجن .. كيف يحقى الخير عن الحكومة التي تحاسبه على كل رصاصة تنطلق من المسدس وكيف يحصل على رصاصة أخرى يضعها مكان الرصاصة التي أطلقها محروس .. ولم يمض أسبوع حتى كان الأب قد هدا وأربما قد استطاع أن يحل مشكلة الرصاصة الناقصة .. وعاد محروس إلى البيت ..

وربما كان أول ما يبرر في شخصية محروس هو اهتمامه بحفريات المياه .. كيف تصل المياه إلى الحنفية .. وما هو سر هذه الحنفية التي يدر عسيم المياه .. وأقدم وهو لا يزال في صباه وانتهاز فرصة حبه في البيت بعيدا عن أفراد العائلة ومد أصابعه إلى الحنفية .. واستطاع أن يحكما من مكانها وانطلقت المياه تغرق الحمام ولكنه كان من الدكاء بحيث استطاع أن يعود بالحنفية إلى مكانها ويوقف انهيار المياه .. بل إنه كلف نفسه بتخفيف الحمام حتى لا يعرف أحد من أفراد العائلة ما حدث ويوفر على نفسه العلقه التي تنتظره .. ولكنه في مرة ثانية عندما مد أصابعه إلى الحنفية لم يستطع أن يعيدها إلى مكانها ويوقف انهيار المياه حتى أغرقت البيت كله .. وبال العلقه الساحة إلى أن استدعت العائلة سبكا ليعيد إصلاح الحنفية .. ورغم أنه كان لا يزال يعاني من آثار العلقه إلا أنه تسلى ووقف بحجاب السباك .. الأسطى عوض .. وقد كان رجلا عجورا طيبا لاحظ اهتمام محروس بتنم ما يعمل فأخذ يشرح له كل شيء كأنه يعلمه .. وقد أحب محروس الأسطى عوض وأصبح يتردد عليه في ذكائه ويجلس بجانيه يراقب يديه وهي تعمل .. وأحب

الأسطى عوض محروس ويفرح بترده عليه ويكلفه بأعمال الصية الصغار .. بل إنه كان عندما تسنح الفرصة يصحب محروس معه عندما يستدعى لإصلاح دورة مياه فى بيت من البيوت .. وتعلم منه محروس الكثير .. ولم يعد يعد أصابعه إلى حفيات البيت فقد أصبح على علم بكل أسرارها .. فإذا تعطلت حفية قام هو بإصلاحها دون أن تضطر العائلة إلى استدعاء سباك .. بل أصبح يتولى إصلاح كل ما يخص دورات المياه .. السيوفون .. والباليغ .. والمجارى .. واعتزقت به العائلة على أنه ابن شاطر متفهم .. بل إنه دأب صيته فى الحي كله كواد شاطر يستطيع أن يصلح كل ما يصيب دورات المياه .. فإذا حدث عطل فى أى ست حاء أهله يستعشرونه .. ويستحب لهم فرحا كأنه سيلعب لهم لفصلة .. وكان أهل هذا البيت يكرمونه بعد أن ينتهى من الإصلاح ويقدمون له حفنة من الملح أو حبات من الماكهة وفى مرة قدم له سيدة البيت ساندوتش من الجبن .. كأنهم يدفعون له أمانه

وكان ذلك لم يؤثر على استمراره فى الدراسة فقد كان أهم ما يحرص عليه أبوه أن يحصل أنواره على شهادات دراسية رسمية .. وأخوه الأكبر فى الثانوية العامة .. وهو قد نال الشهادة الإعدادية ووضع أبوه فى المادسة الثانوية .. ولكنه رغم أنه ينجح فى المدرسة دائما إلا أنه لا يهتم إلى الدراسة .. ويحب فى قرارة نفسه أنه يضيع وقته فيما كل ما يهيمه هو تحريك أصابعه مع عقله .. وكان لا يزال الأسطى عوض ويساعده فى أعمال السباكة تطوعا .. بلا الأسطى عوض عندما بدأ يعرف أن محروس يتطوع

نصا لإصلاح دورات مياه بيوت الحي .. وكأنه يغنيهم عن الحاجة إلى سباك .. أى أنه يتسبب فى قطع بعض رزقه عنه .. ولكن الأسطى عوض لم بغضب .. وربما كان مقتناعا بأن محروس رغم غرامه بأعمال السباكة فهو لى يكون سباكا أبدا .. إنه فى المدرسة ووصل إلى التعميم الثانوى ولا شك أنه طامع فى وظيفة من الوظائف الحكومية المحترمة .. وكان الأسطى عوض قد صحب محروس معه يوما إلى محل بيع الأدوات الصحية الذى يملكه المعلم إبراهيم عبد المسيح ليشتري منه بعض ما يحتاج إليه فى عمله .. وقدمه عوض إلى صاحب المحل قائلا : — محروس فى المدارس .. فى الثانوى .. إنما سباك شاطر .. ده تلميذى ..

ونظر إليه المعلم عبد المسيح فى إهمال وبلا ترحيب .. وقد عرف محروس فيما بعد أن المعلم عبد المسيح ليس فقط صاحب محل الأدوات الصحية بل إن كثيرا من البيوت وخصوصا بيوت الأحياء الراقية تتصل به كلما حدث خلل فى دورات المياه ليذهب لإصلاحها وهو فى الغالب يرسل بدلا عنه واحدا من السمكرية الذين يعملون معه ..

وبدأ محروس يفكر فى العمل مع المعلم عبد المسيح .. إنه يعانى الملل فى دراسته الثانوية .. لا يحس بأنه يستفيد شيئا يريده أو يتطلع إلى مستقبل يتناه .. ومن الأفضل أن يستغل نفسه فى شيء يريده .. ولكنه قل أن يتخذ قرارا حدث أن كان أبوه يقوم بمهمة حراسة أحد الوزراء وسمع منه صدقة شكواه من متاعب دورة المياه فى بيته .. فقال أبوه كعادته فى التقرب إلى من يخدمهم :

— هل تسمح لى سيادتك بأن آتى إلى البيت بمن يحل كل المشكلة ..

وقال الوزير :

— يلىت !

وعاد أبوه يقول :

— إيه ابنى .. وأنا واثق أنه يستطيع أن يصلح أى شىء فى أى دورة مياه ..

وقال الوزير فى دهشة :

— هل هو سالك .. هل يحترف السباكة ..

وقال أبوه فوراً كأنه يدافع عن نفسه :

— لا بابيه إنه الآن فى المدرسة الثانوية .. ولكنه موهوب ونحس والحي كله نعتمد عليه كأن الله أرسله إلينا ليربحنا من مناع دورات المياه .

.. وقال الوزير ضاحكاً :

— أرسله يحاول إقاذنا ..

وأخذ أبوه إلى بيت الوزير وهو طوال الطريق يوصيه ويلح عليه بأن يبدل كل ما وهبه الله من ذكاء وجهد .. إن إصلاح دورة مياه الوزير قد تؤدى إلى ترقية إلى رتبة صول .. ثم تركه ليدخل بيت الوزير وحده .. وقد بدّل محروس فعلاً منتهى جهده حتى أصلح فعلاً دورة مياه الوزير بعد أن تعب أكثر من أربع ساعات .. بل إنه استطاع أن يصلح كل شىء دون حاجة إلى شراء قطع عيار جديدة حتى يأخذ عمولة من المحال التى يشتري منها كما يفعل السباكون المحترمون .. وقد أشاد الوزير بقدراته

مرحاً به ثم مد يده وأعطاه جيبها واحداً أنعاباً له .. وأحد محروس الحبيه الواحد صامتاً وحرص إلى أن وصل إلى أبيه الذى ينتظره على باب العمارة وأعطاه الحبيه الذى أخذ .. وصرح أبوه فيه

— كيف تأخذ منه .. إننى تبرعت بك لخدمته ..

ثم أخذ الحبيه وصعد به إلى الوزير .. ولا يدري محروس هل استرد لوزير الحبيه من أبيه أم أعطاه جيبها آخر فقد عاد إليه دون أن يقول له شيئاً إلا أن الوزير كان سعيداً بما قام به من إصلاحات .. وكان هذا هو أول جنيته يصل إليه نظير هويته لإصلاح دورات المياه ..

وبعدما قرر أن يذهب إلى محل المعلم إبراهيم عبد المسيح .. واستقله المعلم فى برود وهو يقول له أنه سيحربه .. وسيرسله للقمام بعمليات إصلاح .. والنصف بالنصف .. أى يكون من نصيه نصف ما سيحربه به من أنعاب والنصف الآخر من حق المحل الذى كان صاحب العسل فى تشفيه .. وأرسله فى نفس اليوم إلى بيت فى حى راق من أحياء الرمالك ..

وأنه محروس العملية على أكمل وجه . وباولته ست البيت جيبها واحداً أنعاباً له .. ربما كان الجنيه هو السعر الرسمى للسباكين .. فإن الوزير أيضاً لم يدفع له أكثر من جيه . ولكنه عندما ناول الحبيه للمعلم عبد المسيح ليحاسبه عليه صرخ فى وجهه :

— ما هذا .. هل أنت مجنون .. هل ذهبت لتعمل أم تشخذ .. وقال محروس فى براعة :

— لقد كانت عملية صغيرة سهلة ..

وعاد عبد المسيح يصرخ في وجهه :

— لمجرد أن تضع يدك لا تخرج بأقل من ثلاثة جنيهات .. حتى لو ركبت جلدة خفية ثمنها قرشان صاغ .. وسأسامحك هذه المرة لأنك لازلت جاهلا .. ولكلك لا تخرج بمليم .. لن يكون لك نصف هذا الجنيه .. لأن عبد المسيح لا يقلل أن يبيع نفسه بخمسين قرشا ..

وتركه يذهب دون أن يحقق الاتفاق بأن يكون لكل منهما نصف الأتعاب .. واحتفظ بالجنيه كله لنفسه .. ورغم ذلك قفى اليوم التالي هرب من المدرسة وذهب إلى محل عبد المسيح .. إنه لم يعد يذهب إلى المدرسة وتفرغ لعمل السمكرة .. واستطاع بسرعة أن يفهم السوق .. إنه يحرق من أصغر عملية يقوم بها ثلاثة جنيهات .. وأحيانا يصل إلى خمسة جنيهات .. بل إنه فى عملية كبيرة وصل إلى عشرة جنيهات .. إن المعلم عبد المسيح يرسله دائما إلى بيوت ناس أغنياء يستطيعون أن يدفعوا .. وكانوا عندما يحادثونه يكتفى بأن يقول كأنه يعطى صعر سه :

— هذه هى أسعار المعلم عبد المسيح ..

وتعود أن يرفع من قيمة المبلغ الذى يطلبه كأتعاب له حتى إذا طالت المناقشة تنازل عن بعض ما طله دون أن يخسر شيئا ..

وقد وصل مكسبه فى شهر واحد إلى ستين جنيها .. أكثر من مرتب أيه الشويش .. ولم يكن يعطى لأمه شيئا مما يكسبه يوما بيوم ولكنه بعد أن جمع مكسب الشهر فاجأها بأن أعطاها خمسين جنيها وهو يقول صاحكا :

— حذى كل هذا المبلغ .. وإما أن تشتري به كله ما يلزمنا أو

تدخرى لى شيئا منه .. أنت حرة ..

وفرحت أمه وهلت وأخذت تدعو له .. وعندما عرف أبوه لم يستطع أن يخفى فرحته .. وأخذ يسأل ابنه عن كل شىء إلى أن قال له :

— والمدرسة يا بنى ..

وقال محروس وهو مزهوا بنفسه :

— ماذا أفعل بالمدرسة .. على كل حال إنى أستطيع أن أحصل على

الشهادة وأنا فى البيت مادمت تريد شهادة ..

ولم يعكر أبدا فى الحصول على شهادة .. وتفرغ كله لعمله .. سمكرى .. وقد عرف بين كل من ذهب إلى بيوتهم بأنه عقرى فى السمكرة .. وهو يعتمد فعلا أن يبذل كل جهده فى كل عمل .. ويعتمد أن يتعلم وسائل جديدة للإصلاح وأن يكتشف كل الأسرار .. وكان علاوة على ذلك مهذبا بطبيعته وكان الزبائن يستريحون له حتى أصبحوا يطلبونه باسمه من المعلم عبد المسيح كلما احتاجوا إليه .. وقد وصل ما يحققه من دخل فى الشهر إلى مائتى جنيه وأحيانا يصل إلى ثلاثمائة .. فلماذا يشاركه المعلم فى نصف ما يكسبه بحجة أنه يستعمل اسم المحل .. إنه لم يعد فى حاجة إلى اسم المحل .. إن اسمه الآن أصبح معروفا .. الأسطى محروس .. وبدأ يضع لنفسه خطا جديدا .. فكان إذا أرسله المعلم عبد المسيح إلى أى بيت وبعد أن ينتهى من عمله فيه يترك لأهل البيت رقم تليفون ليتصلوا به إذا احتاجوا إليه .. ولم يكن رقم تليفون محل عبد المسيح ولكنه رقم تليفون مقهى مجاور .. وكان قد اتفق مع صاحب المقهى على أن يستعمل تليفونه نظير أتعاب .. وبدأ

لا يقضى يومه داخل محل عبد المسيح إلى أن يأتيه عمل يقضيه في المقهى .. وهو يخفى عن عبد المسيح كل شيء .. كل ما يقوله له إنه يستطيع أنه يباديه من المقهى إذا أراد .. ولكنه كان يناديه فلا يجده .. ويكون تلفون المقهى قد استدعاه إلى عمل .. إلى أن اكتشف عبد المسيح أنه بدأ يعمل لحسابه ويحرمه من مناصفته في الأرباح وقامت بينهما محادثات حادة انتهت بأن انقطع ما بينهما .. واتحد محروس من المقهى محلا له بل إنه اتفق مع صاحب المقهى على أن يحصل له ركما يستأجره مه ..

وقد بدأ عبد المسيح يحاربه وكان إذا طلبه أحد زبائنه قال له إن محروس سافر ليعمل في الكويت .. أو يقول له إنه لم يعد يصلح للعمل .. ولكن محروس لم يكن يهتم فإن زبائنه أصبحوا أكثر من زبائن محل عبد المسيح للأدوات الصحية .. إنه كلما ذهب للعمل في يث قدمه هذا البيت إلى عشرات البيوت الأخرى .. عشرات الزبائن .. حتى زبونه الأول الذي كان وزيرا يقوم أبوه الباشا ويش على حراسته لا يزال يتعامل معه ويرسل إليه عشرات الزبائن .. وكان لا يزال يحامل الورير في آتاعبه ولكنه لا يحامل أحدا غيره .. بل إنه من شدة ثقته بنفسه ابتكر نظاما جديدا للتعامل مع الزبائن .. فهو أولا يطالب بمبلغ يدفعه له نظير الكشف عن الجانب المعطل .. وبعد الكشف يطالب بآتاعب أخرى منفصلة نظير القيام بعملية الإصلاح .. إنه كطبيب متخصص بمعالجة دورات المياه .. وكان الزبائن غالبا ما يستسلمون لما يطلب .. إذ ربائنه كدهم من طبقة الأثرياء .. وقد وصل إلى أن أصبح الحد الأدنى لما يكسبه في الشهر إلى ثلاثمائة جنيه .. وأحيانا يرتفع إلى أربعمائة .. أو

خمسمائة .. وقد أصبح يقبل مسؤولية أعمال كثيرة تحتاج إلى أن يستعين فيها بعامل آخر أو اثنين .. وهو يكرم كل من يعمل معه حتى أحبه كل العاملين في محال السباكة .. وأصبح كأنه زعيم أو رئيس بينهم رغم أنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره .. وأحلامه لا تنتهي .. لماذا لا يقيم محلا تجاريا للأدوات الصحية وقد اكتشف كل أسرار هذه التجارة منذ كان يعمل مع عبد المسيح ؟ .. لماذا لا يصل إلى أن يكون مقاولا لتركيب الأدوات الصحية في العمارات الجديدة التي بدأت مشروعاتها تملأ القاهرة ؟ ..

وكان محروس منذ بدأ يعمل ويكسب وهو يتطلع إلى حياة أرقى يعيش فيها .. به لا يحقد على الأعياء ولكنه يريد أن يتمتع بما يتمتعون به .. وقد بدأ لا يطيق الحياة في حارة الشيخ بركة .. واستطاع بعد أن بدأ يربح أن يقل العائلة كلها إلى شقة في عمارة في إمابة على الشارع الرئيسي وتقل على النيل .. ثم بدأ يضع مظهرها جديدا للسكركى .. لماذا يذهب السكركى إلى عمله وهو مرتد ريا مبهلا متسحكا كأنه يعلن عن فقره وانحدار مستواه ؟ .. وبدأ يعتمد أن يكون دائما نظيفا كأنه من أولاد الطبقة القادرة .. وقد وصل إلى أن أصبح يرتدى بدلة كاملة من « البلوجينز » الأمريكية .. بطلون وحاكيت .. ودائما نظيفة فإذا اتسخت هي إحدى العميمات لم يذهب بها إلى العملية الأخرى .. فقد أصبح عده أكثر من بدلة .. وأصبح يحمل الأدوات التي يعمل بها في حقيبة أنيقة زاهية كأنها حقبة أحد كبار رجال الأعمال .. ثم أصبح له صبي خاص يحمل له الحقبة ويعمل معه .. بل إنه بعد أن راد دخله

استطاع أن يشتري سيارة صغيرة .. كانت قديمة واشترها مستعملة ولكنها كانت أنيقة .. وأصبح يقودها مزهوا والصبي يجلس خلفه كعادة أولاد النوات عندما يقودون السيارة ويجلسون الخادم خلفهم لا بجانبهم .. ويذهب بهذا المظهر الأنيق لإصلاح حنفية أو سيمون أو بالوعة مياه .. وقد بدأ يتمتع نفسه بالتردد على المحال الأنيقة المعروفة التي لا يتردد عليها إلا الأغنياء خصوصا ساعة تناول الغداء .. وقد يتناول الغداء في فندق من الفنادق الكبيرة أو في مطعم مشهور .. أما طعام العشاء فقد كان يفضل دائما أن يتاوله في البيت فهو لا يستغنى أبدا عن طبق الصارة التي تعدها أمه .. وهو مع كل هذا الطموح في الارتقاء بمتعة الحياة لم يجرفه الانحلال .. فلم يطرأ على باله أبدا أن يجرب الخمر .. بل إنه لا يريد أن يتردد على الملاهي ويكفيه ما يشاهده في التلفزيون الملون الذي اشتراه للعائلة ..

وقد وجد نفسه يوما يذهب لتناول العشاء في مطعم على الطراز الأمريكي يبيع اللحم المشوى والمراح المشوية .. إنه يعتبره أحد المحال الراقية بالنسبة له ولو أنه لا يجمع إلا الرئاس الطقة الوسطى .. وكان مرتديا البذلة اللوجينز الأنيقة النظيفة .. وهو يحس بأناقته ووسامته .. وصادف أن حاول أحد الواقفين في الطابور الذي يشتري أفراد العشاء أن يتعدى الفتاة التي تسبقه في الطابور .. وقامت حقاقة وتدحل صالح الفتاة ليقدها من المعتدى عليها .. ونظر إلى الفتاة وأحس بمجرد النظرة أنها تشده .. أحس أن لها طعما يفتح شهته .. إنها أول فتاة في حياته يحس نحوها بأى شيء .. وشكرته الفتاة على إقاده لها .. وبعد أن حمل كل منهما طعامه لم يجد مائدة يجلس إليها

إلا بجانبها .. وبدأ الحديث بينهما .. كانت تبدو وكأنها هي الأخرى .. شددت إليه .. وقال لها من خلال الحديث :

— أنا اسمى محروس .. هل أستطيع أن أعرف اسمك ..

وقالت في دلال ليس متعمدا :

— اسمى كريمة ..

لم يتوقف الحديث بينهما وكلاهما لا يبدو عليه أنه يعتمد الافعال في حديثه .. كأنهما ليسا غرباء .. إلى أن سألته عن عمله .. وقال فورا وقد ارتفع صوته قليلا :

— أنا مهندس ميكانيكى .. وأنت ؟ ..

وقالت مع صيحة حافنة :

— أنا طالبة في معهد التدريب المنزلى .. وإن كنت أعتبر نفسي

أستاذة ..

وعاد الحديث بينهما حتى تنبها إلى الوقت الطويل الذى مضى رغم أن كلاهما كان قد عاد واشترى طبق طعام آخر ربما لمجرد أن يظلا معا ..

وقال لها وهو يهم بالانصراف وفي لهجته تباه :

— هل تسمحين بأن أوصلك بسيارتى ؟ ..

وقالت وعياها تحتضنان عينيه :

— لا .. شكرا .. إن البيت قريب ..

ولم يلبح .. يكفى أن تعلم أنه يملك سيارة .. وقال لها :

— هل يمكن أن نلتقى ؟ ..

وقالت فورا :

— الأحد القادم .. مثل اليوم . ها ..

ولم يلبح . ليس له تجربة في الإلحاح على البسات وإعرائهن بما يريد . ووقف يتبعها بعينه وهي تتعده كأنه يستعرض قوامها ويتفرح على اهتزازها مع خطواتها . إنها لاشك تأسره .. ولكن لماذا حددت اللقاء يوم الأحد .. لماذا اختارت هذا اليوم ؟ .. لا يهم .. وطال اللقاء التالي أكثر مما طال اللقاء الأول وقلت في النهاية أن تركب معه في سيارته ليوصلها إلى بيتها .. وقد تركته عند ناصية شارع من شوارع الزمالك حتى لا يصل بها إلى باب البيت .. لا تريد أن يراها أحد وهي تنزل من سيارة غريب .. لاشك أنها من عائلة كبيرة راقية غنية مادامت تقيم في حي الزمالك .. حتى قالت له إن أبيها يعمل مزارعا .. لا بد أنه مزارع راق يملك عشرات الأفدنة .. وأيضا حددت له موعد اللقاء التالي في يوم الأحد .. لماذا يوم الأحد ؟ .. إنه لا يدري ..

وقبل الموعد استدعى بتليفون المقهى للعمل في بيت أحد الأحناب محي الزمالك .. إنه نفس الشارع الذي كان قد أنزلها على ناصيته .. سعد إلى الشقة وهو مرتد الرى البلوجير ومن حلقه المصمى يحمل محسنة الأيكة .. ودق جرس الباب .. وإذا به يفاجأ بأنها هي التي تفتح له كريمة .. وطر كل مهما إلى الآخر في دهشة .. إنها لا يمكن أن يراه .. أهل البيت .. إنه بيت عائلة أحبية .. ثم إنها تضع فوق ثوبها هذه المريلة البيضاء التي تعود أن يراها على المريات أو الحاديات في باب العائلات الكبيرة .. ولم يتكلم .. وفادته وهي صامتة إلى

.. أنقاصي مقدما خمسة جبهات نظير الكشف ..

وقالت دون أن تتحرك من جانبها :

— اكشف ..

ولم يرد عليها .. وبدأ يحرك يديه بين الحفريات والمواسير ثم توقف حافة والتفت إليها قائلا :

— أنا لم أكذب عليك .. فإن عملي هو عمل مهندس ميكانيكى وإن شئ تسمونه سباك ..

.. قالت وهي تتنسم في صوت مترج كأنه خجول :

— لا أنا كذبت عليك .. فإن عملي هو التدبير المزلى .. وإن كانوا يسمونه كمبريرة ..

و عاد إلى العمل وهو يتكلم قائلا :

— إن الناس تستهين بها رغم أنى أكسب على الأقل مائة وحمسين حنفا في الشهر .. وأحى الكبير موظف يتقاضى أربعين حنفا لا غير .. وقطع الحديث حتى يتفرغ لعمله .. وهي تتركه إلى داخل البيت وتعود إليه كأنها لا تريد أن تحرم عينها منه .. إلى أن أتم عمله وجاءت ست البيت وشكرته كثيرا كأنها بهرت بما قام به ودفعت له كل ما حذده من أتعاب ..

وقال لكريمة وهي تصعبه إلى باب الخروج :

— لماذا يوم الأحد ؟ ..

.. قالت ضاحكة :

— إنه يوم إجازتى ..

.. قال وهو يضمها بعينه :

— لن يكون في حاجة إلى إجازة حتى أراك ..

وبعد شهر تزوجا واستطاع أن يجد شقة في حي إمبابة قريبا من بيت العائلة حتى لا يعتمد على أمه وإن كان قد اضطر أن يدفع خمسمائة جنيه كخلو، أو كرشوة .. وإن كان قد دفعها بالتقسيط .. كل شهر مائة جنيه ..

وأصبحت كريمة حاملا .. وقال من خلال فرحته :

— سيكون ولدا بإذن الله ..

وقالت وهي تميل عليه :

— ماذا تريد أن يكون ابنك ..

وقال متباهيا :

— مهندسا ميكانيكا كأبيه ..

وقالت وهي تبعد رأسها عنه :

— حرام عليك .. إنني أريده أن يكون وزيرا .. أو طبيبا .. أو

سفيرا .. أو محاميا .. إنه لن ينقصه شيء ..

ولوى شفتيه سخطا وأدار لها ظهره غاضبا .. حتى زوجته تعتبره

مجرد سمكري ..

كلهم يدخلون .. وكلهم يخرجون ..

كان بشير جالسا يعد لنفسه كوبا من الشاي داخل المطبخ الواسع .. إن المطبخ هو المكان الوحيد داخل البيت الذي يستطيع أن يجلس فيه حرا .. وكان يبدو سرحانا ساخطا وهو يعد الشاي حتى إنه أسقط الإبريق الذي يغلي فيه الماء من يده فوق البوتاجاز .. ودخلت عليه أم عزيزة المسؤولة في البيت عن خدمة الست الكبيرة .. وقالت في لهجة أمرة :

— اليه يريد القهوة ..

وقال في لهجة ساخطة دون أن ينظر إليها :

— قولي له أن ينتظر حتى أنتهى من شرب الشاي ..

وففرت أم عزيزة فاها دهشة وصاحت :

— عجبة .. هل جنتت يا رجل ؟ .. سيدك اليه يريد القهوة وأنت

تتحرا وتطلب منه أن ينتظر إلى أن تشرب أنت الشاي !

والثفت إليها بشير وقال ساخطا كأنه ينهرها :

— من حق اليه أن يطلب مني أن أعد له مزاجه بالقهوة ..

ولا أستطيع أن أعد مزاجه إلا إذا عدلت مزاجي أنا أولا بشرب

الشاي .. ثم لا تقولي عنه إنه سيدي .. انتهى هذا اللقب من قاموس

الخدمة .. ولم يعد لي سيد إلا الله ..

وقالت أم عزيزة وهي تنظر إليه متحدية :

— وكيف تريدني أن أتحدث معك عن اليه ؟.. هل أقول لك إن صديقك عصمت يه يريد فنجانا من القهوة ؟.. إنه سيدك وسيد سيدك ..

وصاح بشير في وجهها :

— إنك امرأة عجور ولا تدري أن عصر الأسياذ قد انتهى .. تحدثني عنه على أنه سعادة اليه .. أو صاحب البيت .. أو السيد عصمت .. ولكن لا تقولي عنه إنه سيدى أو سيدك .. كل واحد فيا أصبح سيد نفسه .. بل إنه لا يستحق حتى أن تسميه سعادة اليك .. لقد أغيت الألقاب .. هو السيد عصمت وأنا السيد بشير ..

وصرخت أم عزيزة :

— لا تكن مجونا .. دع كل ما في يدك وأعد القهوة لسعادة اليه .. سيدك ..

وأدار لها ظهره وقال لها بلامبالاة :

— قولى له إنى سأقدم له القهوة بعد أن أنتهى من شرب الشاى .. وقالت أم عزيزة وهي تخرج من المطبخ كأنها تهرب منه :

— والله العظيم مجنون ..

ودخلت إلى رجل البيت عصمت يه وهو جالس فى غرفة المكتب المخصصة له يقلب فى أوراق انتظارا لفنجان القهوة .. وقالت فى عصبية :

— لا تكلفوني مرة ثانية بأن أطلب شيئا من بشير .. إنه مجنون .. ولن يكون لى معه بعد اليوم ولا كلمة واحدة ..

وقال عصمت وهو يتنسم من حلال طبيعته الهادئة :

— ماذا حدث ؟

وصاحت أم عزيزة كأنها تمجر قبيلة :

— إيه لا يريد أن يعد لسعادتك القهوة إلا بعد أن ينتهى من شرب الشاى .. تصور سعادتك !

وقال عصمت من خلال ابتسامته :

— ولا يهملك يا أمى .. دعيه كما يشاء ..

واحتفت أم عزيزة من أمامه وهو جالس إلى مكتبه ساهما متعجبا ولا يطر فى الأوراق التى أمامه ، فقد تعود ألا يبدأ العمل إلا بعد أن يشرب فحان القهوة حتى أصبح من المستحيل عليه أن يبدأ قبل القهوة .. ومرت به فترة أحس أنها طويلة .. أكثر من ربع ساعة .. حتى دخل إليه بشير يحمل فحان القهوة وهو يرتدى قفطان العمل الرسمى كسعر حى مثالى .. وقد قدم القهوة فى حركات حامدة دون أن يتنسم هذه الانتماسة التى يعتمدها السفرحى المثالى ليفتح شهية من يخدمه لما يقدمه إليه ..

وهم بشير أن يتعد حارحا من العرفة فاسترقفه عصمت قائلا :

— انظر يا بشير .. ماذا بك ؟.. إنك متعبر منذ أيام بل منذ أسابيع ..

حتى إن الست بدأت تشكو منك .. لقد أصبحت الآن تقدم الغداء .. تتعيب عن تقديم العشاء .. دون إذن .. وأصبحت تبتلو فى كل تصرفاتك كأن هناك ما ينعبك .. ونحن لم نسألك فى انتظار أن تبدأ وتقول لما ما ينعبك ..

وقال بشير فى لهجة جافة وهو يتنهّد ساحطا :

— الدنيا كلها أصبحت متعبة يا سعادة البية ..

وقال السيد عصمت وهو لا يزال محتفظا بابتسامته :

— اسمع يا بشير .. لقد مضى عليك الآن وأنت معنا في البيت أكثر من ثماني سنوات .. وأنت تعلم أنني لم أعد أعتبرك غريبا تعمل في البيت .. بل أعتبرك واحدا من أفراد العائلة .. كأنك ابن من أبنائي .. والأبناء يصارحون دائما آباءهم بما يتبعهم ..

وقال بشير وهو يحني رأسه حتى لا يواجه بعينه عيني عصمت :

— إن أبناء سيادتكم يعمل واحد منهم الآن في لندن والثاني في أمريكا .. وفقهما الله .. وزادهم من الربح ..

وأحس عصمت بنفسه في هدوء وقال :

— وهل تريد أنت الآخر أن تعمل في الخارج ؟ ..

وقال بشير وهو يرفع رأسه وينظر في عيني عصمت كأنه يواجه بالحقيقة :

— كل الناس يا سعادة البية تطفش الآن من مصر وتعمل بالخارج .. السفرجية والذكاترة والمهندسون وأبناء سيادتكم .. كل واحد يبحث عن الرزق الحلال ..

وسكت عصمت وابتلع ابتسامته وانكمش وجهه كأنه أصيب بصدمة .. إن بشير يفكر فعلا في ترك خدمته ولعله وجد عملا آخر في الكويت أو السعودية أو في أوروبا .. أو لعله وجد عملا في إحدى السماوات الأجنبية .. إن السمرجية الذين يعملون في السفارات يعثرون أنفسهم كأنهم يعملون في الخارج .. ثم قال عصمت في صوت

— أنت حر دائما يا بشير في البحث عن رزقك سواء في مصر أو

الخارج مصر .. ولكني أحب أن أقول لك إن ماتجدد هالآن تجدد في الخارج أبدا .. إن الذي يعمل في بيت من بيوت الأجانب لا يعتبر من أهله أبدا .. في حين أنك هنا تعتبر واحدا من أفراد العائلة .. والحجرة المحصورة لك فوق السطوح تعتبرها عرفة من غرف البيت .. ولم يحدث أن طلست شيئا وحرمت منه .. بل أعتقد أن روجتي تحمل منك كما تحمل متاعب أبنائها ويخفف عنها أنك لا شك تتصف بالسطوة والأمانة .. والمجتمع كله الذي تعيش فيه في مصر يشعر بأنه مجتمع عائلتك .. وأقاربك .. وأصدقائك .. كل ذلك لي تجلده في الخارج .. إن ابني الذي في أمريكا يفكر أن يعود بزوجته وأولاده إلى مصر لأنهم كلهم يعيشون هناك كغرباء رغم أنه يحقق أرباحا قد لا يستطيع أن يحققها في مصر .. وابني الثاني يخفف من عرته في لندن أنه في كل عام يقضى إجازة طويلة معنا هنا في مصر كما تعلم .. ثم إن هناك شيئا لا يقدره المدفعون للعمل في الخارج .. وهو أنه إذا كان يكسب خمسين جنيه في مصر مثلا فهي تساوي مائة جنيه يكسبها في الخارج .. فتكاليف الحياة هناك مع غربته تساوي أصعاف أضعاف تكاليف الحياة في بلده .. في مصر ..

وقاطعه بشير قائلا :

— ليست مائة جنيه يا سعادة البية .. إن ابن عمي إدريس ترك مصر وهو يعمل بحمسة عشر جنيه في الشهر وبدأ يعمل في سفارة عربية في باريس .. إنه يقول إن مرتبه هناك خمسمائة جنيه .. ونحن نعتقد أنه يكسب أكثر .. ربما ألف .. وقد اشترى خمسة أفدنة في قريتنا بجوار

أسوان .. وتزوج ابنة عمى رغم أنه لا يراها إلا كل عامين أو ثلاثة ..
وسمعا أنه متزوج من امرأة أخرى فرنسية تقيم معه فى باريس .. الدنيا
واسعة بإسعاد البية .. والرزق مفتوح وكثير ..

ونظر عصمت إلى بشير فى حيرة كأنه يودعه الوداع الأخير :

— أنا لألح عليك يا بشير .. ولكنى أنصحك .. وأنت حر .. ولن
أعصب منك إذا وجدت أى عمل آخر .. بل إنى أريد أن أحس بك كأي
من أنثائى حتى لو تركت البيت .. وأرجو إذا عملت فى الخارج أن تراك
كلما أمكن حتى نطمئن عليك ..

وقال بشير وهو يسحب من أمامه :

— أبغاك الله لنا باستعادة البية .. عن إذن سيادتك ..

وانحى عصمت فوق مكنته مستسلما لحواطره وبين شفتيه ابتسامة
ساعرة كأنه يسخر من الحياة كلها .. لقد تعود أن يرتبط فعلا بالخدم
الذين يعملون فى بيته ارتباطا عاطفيا خصوصا الذين تطول مدة خدمتهم
له .. إنها عاطفة تنطلق من النعود .. وربما كان أساسها أنه نشأ وترى
فى عائلة لم تكن تعتبر من يعمل فى خدمتها خدما .. بل كانوا فعلا
يعتبرون من أبناء البيت ومن أفراد العائلة .. فقد كانت عائلته مرتبطة
ارتباطا كاملا بالقرية وأهل القرية .. وكانت عائلة متواضعة حتى بعد أن
أصبح أبوه موظفا كبيرا وصل إلى منصب وكيل وزارة .. وكان والده
أول فرد من العائلة التى تقيم فى القرية يتم تعليمه فى القاهرة ويستقر
فيها .. ولم يكن فى البيت خدم .. بل كانوا يستدعون من القرية من
يقوم بمساعدة الأم فى أعمال البيت .. وعندما يولد لهم طفل يستدعون
له من القرية صبية تقوم على خدمته وتربيته .. وتبقى الصبية فى البيت

كخادمة ولكن كفرد من العائلة والطفل يناديها لمص .. أمى .. أمى ..
.. أمى .. وأمى سنية .. وحتى تكبر الصبية ويكبر معها الطفل فتولى
العائلة نفسها اختيار زوج لها من أبناء القرية .. ولا تعيدها إلى القرية
.. لا هى محالة بمصوغات ذهبية ، وتدفع لها كل نفقات زواجها
.. ونظن أنها تعرف فى القرية بأنها ابنة الطبطبوية وإذا حدث لها
شئ جاءت إلى القاهرة لتشكو إلى العائلة .. وهكذا كانت أم
عزيرة .. إنه ليس لها ابنة اسمها عزيرة .. ولكنها جاءت من القرية وهى
سنية انغمس على تربية عصمت .. وقد نشأ يادها فثلا .. أمى عزيرة ..
.. أن كبر عصمت وأعادتها العائلة .. إلى القرية لتزوجها ..

وطلت مريضة بالعائلة إلى أن مات زوجها فعادت بعد سنوات طويلة
إلى القاهرة فعادت لتعيش فى خدمة العائلة .. وفى خدمة ابنها عصمت
.. لدى ك .. قد تزوج وأصبح له بيت وعائلة وحده .. وظل عصمت
يادها حتى اليوم .. أمى عزيرة .. وانتقلت المناداة إلى ألسنة الناس
محرقة دسم .. أم عزيرة ..

وهو منذ تزوج وهو فى حاجة إلى من يعين روحه فى خدمة البيت
والأولاد حتى بعد أن استقرت معه أم عزيرة .. وقد عاش عمرا طويلا
شاهد خلاله تطورا كبيرا فى طبيعة الذين يخدمون فى البيوت حتى
وصلوا إلى أن أصبحوا كالتحف الثمينة البادرة من الصعب أن تجددها ..
وأصبح الشباب الذى يبدأ استقلاله بحياته أسهل عليه أن يجد فتاة
يتزوج ويقيم بخدمته بيته من أن يجد امرأة تكفى بأن تكون خادمة أم
.. عندما يعاونه على خدمة البيت .. بذلك فكثير من الشباب أصبحوا
يتزوجون لمجرد البحث عن من يتحمل معهم مسئولية خدمة البيت ..

وسعت الابتسامة الساحرة بين شفتي عصمت وهو يعيش حواطره .. إن هذا التطور في بعة خدم البيوت لم يبدأ في السواحل الأخيرة بعد ما يسمونه بالانفتاح، بعد إطلاق حرية السفر إلى الخارج فكما يتصور البعض .. ولكن هذا التطور بدأ من قبل ذلك ومذ قامت الثورة عام ٥٣ .. ومد فتحة الثورة أبواب الحكومة لتعيين ملايين الموظفين دون دقة أو اهتمام بشروط التعيين .. ودون اهتمام للبحث عن عمل لكل موظف .. يكفي أن يعمل لقب موظف ويقبض مرتبا أول كل شهر دون أن يعمل شيئا .. لقد قضت الثورة على مجتمع الأعيان بلا عمل وأقامت مجتمع الموظفين بلا عمل .. ولم يكن المتعممون فقط هم الذين يقلبون على التوظيف في الحكومة بل أيضا الطبقة التي لم تعد أو تكاد كما يقولون تفك الوطنى إلى وظائف الحكومة وتحدد الأبواب مفتوحة لها .. إنها نعم تكون موزعا في الحكومة .. تأخذ مرتبا كل شهر .. ومعاش .. بآلى .. ولا تعمل للحكومة شيئا إنما تحت لنفسك عن عمل آخر من حتى وأنت موظف حكومة .. وعصمت يذكر أنه بعد أن زرع وذلك قبل الثورة كان قد أصبح بعيدا عن القرية ولم يفكر في استئاء أحد من أهلها لمساعدة زوجته في أعمال البيت .. ولذلك طلب أبواب العمارة أن يبحث له عن صبي حتى يكبر داخل العائلة ويصعب من أفرادها .. وقد جاءه السواب سليمان .. ولم يكن صبيًا هم ولكنه كان في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره .. بكل روحته ارتاحت إليه نشاطه وأمانته .. وكثر في البيت وروى تعلمه كل شيء حتى أصبح طاحنا يقوم بإعداد الطعام لهم بحسب مؤبته عن كل أعمال البيت .. ومرتبه

مع مع ارتفاع مسئولياته .. لقد بدأ عمله في البيت يمرتب ثلاثة حبيبات وارتفع خلال عشر سنوات إلى خمسة عشر حبيبا .. وقامت الثورة .. وبدأ المجتمع يتغير .. إن سليمان يتغير تغيرا يبدو من شخصيته وفي المواضيع التي يسأل فيها وفي اللهجة التي يسأل بها .. ولم يكن هذا غريبا فعصمت نفسه يتغير .. وبعد سنوات منذ قامت الثورة أمنت الشركة الكبيرة التي كان يعمل فيها مديرا للحسابات وأصبح رئيسا لمجلس إدارة هذه الشركة .. وفوجئ بعد فترة قصيرة من نفيه رئيسا لمجلس الإدارة وهو حريص على أن يكون مثاليا في تحمل مسئولية هذا المصنع وإن كان قد تقمص شخصية جديدة وأصبح حريصا على أن يبدو في مظهر جديد .. فوجئ بسليمان السفرجى يطلب منه في بساطة أن يعين موظفا في الشركة التي أمنت .. وسأله عصمت في دهشة :

— لماذا ؟ ليس هناك عمل يصلح لك في هذه الشركة .. والمرتب الذى ستحصل عليه لا يزيد عن مرتبك الآن .. وقال سليمان فى إصرار :

— إن كل من أعرفهم أصبحوا موظفين .. وأبالي أن أترك العمل عدك في البيت .. كلهم توظفوا بفصل وساطة من يعملون عنده دون أن يتركوهم ..

ورفض عصمت أن يعينه في الشركة .. إنه لا يريد أن يعرف عنه أنه غير من يعمل في بيته .. وكأنه يفرض على الشركة أن تدفع مرتب من يقوم على خدمته الخاصة .. ولكن سليمان لم يكف عن الإلحاح .. وكان يلح لأعليه وحده بل على كل أصدقائه ومعارفه سعيًا لإقناعه

بتعيينه .. إلى أن لانت زوجته لهذا الإلحاح .. وسعت هي نفسها لدى
أصدقاء العائلة حتى عين سليمان موظفاً في الحكومة .. وبمجرد أن
أصبح موظفاً احتفى .. لم يحاول أن يتردد عليه ولو لشكر زوجته على
ما قدمته له .. بل إن عصمت رآه مرة يسير في الشارع القريب وهو
متأكد أن سليمان رآه أيضاً ولكنه لم يتقدم إليه ولو لتحيته .. لقد رآه
وكانه يهرب منه .. وبعد مدة سمع من يواب العمارة أن سليمان افتتح
محلاً للخردوات في إحدى حواري حي بولاق الذي أصبح يقيم فيه
وذلك مع احتفاظه بوظيفته .. موظف الحكومة .. ومن يومها بدأ
عصمت يقدر مصير الإدارات الحكومية والشركات المؤممة .. لا أحد
يعمل لها .. ولكنه إلى الآن وبعد أن مرت كل هذه السنوات لم يستطع
أن يفعل شيئاً رغم أنه لا يزال رجلاً مهماً في الدولة ..

وبعد أن خرج سليمان من خدمة البيت بدأ البيت يعاني من أشكال
حديثة تعمل فيه .. وقد حاولوا له يوماً بالمفرجى عوض .. وهو رجل
ليس صعيماً ومعروف أنه سبق أن عمل مع كثير من البيوت الراقية .. ورغم
أن عصمت رفعت مرتبه إلى عشرين جنيهاً في الشهر إلا أنه لم يستمر معهم
أكثر من أيام .. وخرج بلا سبب .. وتعجب عصمت وزوجته .. إلى
أن قالت إحدى الجارات :

- احمدا الله على خروجه .. إن يده طويلة ..

واكتشف عصمت أن سبب خروح عوض هو أن سيدة البيت
معرفة بها أنها سيدة حريصة منتهى الحرص .. ليست بحيلة ولكنها
لا تمل أبداً أن تكون معلقة أو يسرقها أحد .. إنها قد تدفع جيبها كهيئة
والها لا تنقل أن يغالطها أى واحد من ملهم واحد .. وكانت حريصة

أيضاً على أن تحتفظ بمفاتيح كل ما في البيت في يدها .. ليس في البيت
كله دولاب أو درج يمكن أن يفتح غريب دون إذنها .. وربما حاول
عوض أن يفتح درجاً أو دولاباً ليمد يده الطويلة وعندما عجز ثم
اكتشف حرص ربة البيت خرج من الخدمة ..

ورغم ذلك لم يكن كل حرص زوجته فوق المستحيل على الأيدي
مربلة .. لقد قلوا مرة أن تعمل في البيت امرأة شابة قالت إنها
مطلقة .. وذلك بعد أن عجزوا عن العثور على رجل لخدمتهم ..
وعصمت وزوجته كانا يفضلان دائماً خدمة الرجال .. وكانت سنية يبدو
مناعهم أخف في تحمل مسئولية المرأة العاملة .. وكانت سنية يبدو
عليها أنها امرأة جادة لا تحاول أن تسلط أنوثتها على حولها ولا يبدو
عندها أنها تبحث عن رجل ليترجها .. وربما كان الأكثر أماناً أنها لم
نكن امرأة جميلة معربة .. وقد استطاعت فعلاً بشطارتها ونشاطها
وحديثها أن تكتسب ثقة ست البيت .. واستطاعت أن تكسب حب أم
عزيزة التي كانت قد أصبحت مستقرة في البيت .. حتى إن أم عزيزة
بدأت تعتبرها وتعاملها على أنها ابنتها التي تفخر بأخلاقها .. ولكن لم
يقص على وجودها سوى شهرين حتى وقفت تستأذن في ترك الخدمة
بحجة أنها عرفت أن ابها مريض ويجب أن تنعز لرعايته .. ودهشت
ست البيت .. حتى لو كان ابها مريضاً فإنها تستطيع أن تراعيه دون ترك
الخدمة .. بل إنها ليست وافقة أن لها اسماً .. لقد مضى الشهران دون أن
تذكر عن هذا الالين شيئاً أو تستأذن ساعة لمشاهدته .. وليس هناك أى
سبب آخر يدفعها إلى ترك الخدمة .. واضطرت أن توافقها والشك
يعصف بها .. وانتظرت حتى جمعت حاجتها داخل حقيبتها قبل أن

تصغى لها حسابها .. وإذا بها تلاحظ أن الحقيبة منفوخة أكثر من اللازم
و كأنها تحمل أكثر بكثير من حاجات سنية .. وقالت لها ست البيت وهي
تحاول أن تكون هادئة ..

— هل تسمحين بفتح حقيقتك .. لا مؤاخذه .. ولكن هذه هي
عادتي قبل أن يغادر أحد من العاملين البيت ..

وصاحت سنية وهي تقف أمام حقيبتها كأنها تحميها :

— حرام عليك ياسنى .. لا يصح .. أنا لست من هؤلاء ولا أسمع
بأن أقتش كأني متهمة بالسرقة ..

وآزاحتها ست البيت من أمامها وانحنت بنفسها تفتح الحقيبة ..
وسنية بدأت تبيكي وتحاول وقف أيدي سيدتها عن التفتيش .. ولكن
ست البيت أقوى .. ورفعت قطعاً من الملابس كلها من ملابس سنية ثم
بدأت تكتشف قطعاً من ملابس زوجها وأولادها ..

وصرخت ست البيت صائحة في أم عريضة :

— أفتلى أبواب البيت كله وأمسكى هذه الحرامية إلى أن أستدعى

البوليس ..

لم رعت سماعة التليفون واتصلت بزوجها عصمت في مكتبه وطلبت
منه أن يرسل أحد سكرتيريه ليقوم بإبلاغ البوليس والقبض على سنية ..
وسنية تصرخ باكية وهي تلطم خديها وتشد شعرها ثم تنحنى على
الأر من قتل أقدام سيدتها :

— سمعيني ياسنى .. احنا غلابة ياسنى والشيطان أظطر منا ..

— أهو حلك ياسنى واقطلى بي ماتريدين .. ولكن لا تتركيني
الأمير ..

وانتهى اليوم بأن عفت ست البيت عن سنية وتركها تحرح دون
مديمها للبوليس وبعد أن استردت منها كل ماسرقة .. إنها معلا
غلابة .. ولكنها طلعت أياماً وهي لا تمكرك ولا تتحدث إلا عن هذه
السرقة .. كيف استطاعت سنية أن تسرقها .. من الغريب أنها لم تسرق
إلا ملابس الشتاء مع أننا في الصيف .. وهي قد تعودت أن تجمع
الملابس التي لا تستعمل وتحفظ بها في دولاب السدرة القريبة من
السقف وتعلقها بالمفتاح الذي تحتفظ به في سلسلة مفاتيحها التي
لا تمارقها .. ولكنها أحياناً تترك سلسلة المفاتيح بجانب فراشها عندما
تدخل الحمام مثلاً .. وربما انتهزت سنية فرصة استطاعت فيها أن تفرد
بسلسلة المفاتيح ثم تفتح دولاب السدرة وتعود وتتركه مغلقاً دون أن
يكون مغلقاً بالمفتاح .. وبعد ذلك أصبحت تنهز الفرصة أو تقوم في
الليل والبيت كله نائم وتصعد إلى السدرة وتأخذ ماتريد .. وهي
مطمئنة إلى أن سيدتها لن تشك وستظل دائماً مطمئنة إلى أن باب دولاب
السدرة مغلق بالمفتاح .. وإذا كان هذا هو ما حدث فماداً تفعل ست
البيت .. هل تمر كل يوم وكل ساعة على كل الدواليب والأبواب
لتطمئن أنها معلقة بالمفتاح ولم يتركها غريب مضقة بلا مفتاح .. إنها
لا تستطيع أن تمش كل هذا الشك وكأنها أصبحت عسكري البوليس
الذي يمر بالليل على الحوايت ليتأكد أنها مغلقة بالأقفال .. وقضت
عمرها طويلاً وهي تفكر كيف تحمي بينها بوسائل وتنظيم جديد ..
وارتفعت ابتسامة عصمت الساخرة إلى شفثيه وهو يستعرض
ذكرياته مع الخدم ..

لقد عملت في البيت امرأة أخرى تختلف عن سنية .. لقد كانت

(١١ م — وتاهت ..)

شابة أيضا وتدعى أيضا أنها مطلقة .. ولكنها كانت جميعة هذا الجمال
البلدى المثير .. وكانت تعتمد أن تنبأى بهذا الجمال .. إن ثوبها دائما
محرق شبهها ويرر تفاصيل هزة ردفيها من مؤخرتها وهى تسير كأن كل
خطوة غمجة تنفج بها .. ودراعيها دائما مكشوفتان .. وعقها يترنح
من فوق كتفيها كأنه عقى بطة .. وحاجباها دائما يتحركان .. وشعرها
مكشوش فوق رأسها .. وعصمت مد رآها وهو يحس كأنه يقاومها
حتى إنه كان يعتمد ألا يكلمها بشئ ويعود نفسه ألا يتبعها بنظراته ..
وولده هشام ووليد استقلها بدهشة .. وقالا لأُمهما ضاحكين :
— ماذا جرى يا ماما ؟ .. هل اتفقت مع أرنست للعمل عندنا ؟ .. إنها
نحمة سيمائية ..

ولاشك أن الأم لم تكن مرتاحة إلى هذه الحادمة .. واسمها
هدى .. لعله لم يكن الاسم الذى ولدت به ولكنه الاسم الذى احتارته
تحملها .. ولكن الأم كانت تتحملها لأنها أثبتت منذ اليوم الأول
شطارتها فى خدمة البيت وقدرتها على تعصية كل احتياجاته .. ولكنها
كانت لا تكاد تنتهى من عَمَلِها حتى تقفز فى العمارة كلها .. أحيانا
تكون عبد البواب .. وأحيانا تكون فى ريارة حده وحاديات هذه الشقة
أو تلك .. ولها دائما عذر فى تعيها هذه اللحظات عن البيت .. ولكن
حكايته بدأت تنتشر فى العمارة كلها .. والأم ساكنة محتملة مادامت
هذه الحكايات لا تمس بيتها .. بل إن ابها هشام .. وكان قد وصل
فتوة الشباب .. دخل مرة على أمه محتدا صائحا :

— هذه المرأة يجب أن تخرج من البيت .. لم أعد أحتملها .. إنها
تحاول أن ترفع الكلمة بينى وبينها .. بل إنها تحرضنى على نفسها ..

وفى الليلة العاصية دخلت حجرتى وأنا أنام بحجة أنها نسيت المقشة
تحت السرير .. وبقيت تتمحك حتى طردتها من الغرفة بعد أن كدت
أنهال عليها ضربا ..

وضحك الأب وهو يسمع شكوى ابنة .. إن هدى على استعداد لأن
تعرضه هو الآخر على نفسها لولا تصميمه على الاستمرار فى تجاهل
وجودها ..

وقالت الأم وكأنها تستجدى ابنها هشام :

— يا ابى كلهن من هذا النوع .. المهم تصرفاتك أنت معها
ومعاملتك لها .. وتستطيع أن تركها تئس من حرارتها وتصح
مؤدبة .. ولكن الواقع أنها بنت شاطرة .. إنها تريحنى فى البيت ..

ولم يقض على هدى فى البيت أربعة شهور حتى جاءت تعتذر عن
اضطرابها لترك الخدمة .. وبفس الحجة التى سبق أن اعتمدت عليها
سنية .. إن اسها مريض .. واضطرت المست أن توافقها على ترك
بيت .. أو ربما كانت قد ضاقت بها .. وتركها هدى ببساطة تفتش
حقيقتها قبل أن تخرج .. إنها لا تشرق .. ولكنها قالت كأنها تطالب
بحق :

— سأخذ الراديو يا سيدتى ..

وصاحت ست البيت :

— بأى حق تأخذين الراديو ؟ ..

وقالت هدى بلا اهتمام وهى تتعج :

— ألم تركيه لى فى المطبخ لأتسلى بسماعه ؟

وصاحت ست البيت :

— أنا لم أتركه لك .. ولكى أتركه فى المطبخ ليتسلى به كل من يعمل عدى ..

ولم تصمم هدى على أخذ الراديو .. وخرجت .. ولكن الغريب أنهم اكتشفوا بعد يومين أن هدى أصبحت تعمل فى شقة أخرى من شقق العمارة .. وقال عصمت لنفسه إنها لا شك استطاعت أن تغرى جاره أو أحد أبنائه .. إنهن يعتمدن على دخل الإعرء أكثر مما يعتمدن على دخل الخدمة .. وقد تقلت هدى فى خلال عامين بين أكثر من ثلاث شقق فى العمارة نفسها للعمل فيها .. ثم خرجت من العمارة كلها لتعمل فى عمارة بعيدة .. والغريب أيضا أنها بعد كل هذه السوات جاءت إلى بيت عصمت تطلب العودة إلى العمل فيه .. ولكنهم رفضوها .. رغم إشفاقهم عليها .. فقد ظهر عليها المرمطة والبهذلة وتهدل جمالها الذى كانت تنباهى به .. وذكريات عصمت تجمع بين عشرات عملوا فى خدمة بيته ..

وضحك عندما تذكر حسن .. إنه صبى فى الثانية عشرة من عمره جاء لهم به البواب وقال لهم إن أباه يعثر من الشخصيات المعروفة بين أهل النوبة وأنه يعمل مشرفا على خدمة السفارة البريطانية .. ورحبت العائلة بحسن لأنهم يستبشرون حيرا بأن يبدأ العمل عندهم صبية صغار حتى يصبحوا بعد أن يكبروا كأهمهم من أفراد العائلة .. وتقديرا لأهمية والد حسن قدسوا مرتبه بخمسة عشر جنيا فى الشهر .. إنه مرتب كبير بالسبة لسنه .. وقد بدأ حسن مدلا يتحرك فى البيت كأنه من أفراد العائلة فعلا رغم أنه لم يحص عليه فى العنل سوى أربعة أيام .. إلى أن فوجئت به ست البيت فى اليوم الخامس بأن دخل الحمام .. حمام

العائلة .. وأخذ يستحم فيه مستعملا كل الأدوات التى يجدها حوله .. وصرخت ست البيت وأخرجته من الحمام وهى تصيح فيه : — إن لك حماما خاصا بحجرتك فوق السطح .. وقال وهو يعافرها :

— إنه ليس حماما خاصا بى .. إنه لكل من يقيم فوق السطح .. وصاحت :

— ولو .. إنه الذى تستحم فيه ..

وقال كأنه بهم بالكاء :

— إنى أحب أن أستحم ها فى الحمام ..

وصرخت فى وجهه :

— لا يمكن .. أتفهم .. لا يمكن .. وإياك أن أراك ثانية تستحم ها ..

وجرى من أمامها وخرج من البيت ولم يعد ..

ولم تكن ثورة ست البيت تعبر عن نوع من النعالى والتعريق بين أصحاب البيت ومن يعملون عندهم .. ولم تكن قد قرفت من حسن وهى تراه تحت الدش الخاص بهم كأنه يلوثه .. ولكنها تؤمن بأن دورات المياه فى البيت غير دورات المياه العامة التى تقام فى الشوارع .. إنها تحتاج لوع من الألفة والتعود بين الذين يدخلونها يستعملونها .. ولكل منهم فيها أدوات خاصة قد تكون بينها أسرار يستعملها فى معاملة جسده لا يعرفها العرباء .. وحتى أم عزيزة التى تعتبر فعلا من أفراد العائلة وعصمت يادها .. أمى عزيزة .. لا تستطيع أن تحل حمام العائلة لتستحم فيه أو تستعمل باقى دورات المياه .. إنها

لا تدخل هذا الحمام إلا نظيفه وتكس وتمسح فيه .. وقد تركت دور المياه الأخرى في البيت الصيقة المحصصة للضيوف لتستعملها أم

عزيزة ..

وقد تأثر عصمت بحببة أمه في الصبي حسن .. لقد كان وسيما مرحا ودمه خفيف وكان ينتمي فعلا أن يعيش معه كأحد أبنائه ..

وهو يذكر أيضا بين من دخل يخدم في البيت .. محروس .. لقد كان رجلا مهيبا جاء يخدم مطفا منتهى الرسميات .. حتى إنه سأل مثلا في أول يوم عن موعد تقديم طعام الغداء .. وقيل له إنه يقدم في الساعة الثانية والنصف .. ولكن عصمت تأخر بعد يومين في العودة إلى البيت .. شغلته أعماله .. وتقدم محروس إلى سيدة البيت يقول في لهجة مهذبة رسمية :

— موعد تقديم الغداء هو الثانية والنصف .. والساعة الآن الثالثة ولم يصل السيد بعد .. وأنا آسف .. مضطر أن أنهي عملي وأخرج .. عن إذن سيادتكم ..

وأنهى عمله وأخرج وسيدة البيت صامتة مذهولة .. ولكهم تحملوا .. يجب فعلا أن يضعوا للبيت نظاما صارما محترما يتقيد الخدم به ولا يتحملون مسؤولية الخروج عنه .. إنهم يريدون أن يرتفعوا بالبيت إلى المستوى الراقي .. مستوى اللوردات وأولاد الذوات ..

وبعد أربعة أيام نادى عصمت على محروس ليتفق معه على المرتب كما تقضي الأصول .. وكان قد قرر أن يدفع له أكبر مرتب دفعه حتى اليوم .. وقال له :

— سأحصى لك أربعين جنيهًا في الشهر .. وذلك غير المكافآت

التي تحصل عليها في كل مناسبة أو كلما أقما دعوة ..
وابتسم محروس ابتسامة مهذبة وقال :

— آسف يا أفندم .. إنك تعلم أنني كنت أعمل في بيروت .. في بيت ابن عم رئيس الجمهورية .. وكان مرتبي يصل إلى مائتا مائتين وخمسين جنيهًا مصريًا .. ثم جئت إلى مصر وعملت في السفارة البولندية وكان مرتبي يساوي مائة وخمسين جنيهًا .. وأنا أقدر طبعًا طبعًا وإمكانية كل مكان أعمل فيه .. ولا أستطيع أن أعمل عند سيادتكم بأقل من مائة جنيه في الشهر .. وأنا واثق أن وجودي في رعاياكم يعوضني عن كل الفارق في المرتب ..

ونظر إليه عصمت طويلا .. إن كل ما يقوله محروس حقيقي .. ولكنه لم يحسب حسابه .. وقال في لهجة حاسمة :

— آسف يا محروس .. لا أستطيع ..

وقال محروس محتفظًا بابتسامته :

— يكفيني شرف التعرف إليكم .. السلام عليكم ..

وأخرج من البيت ..

ودهرش عصمت ثم بدأ يلوم نفسه .. قد يكون هو الذي أخطأ عندما ارتفع نفسه إلى مستوى ابن عم رئيس جمهورية لسان وإلى مستوى سفارات الأجنبية ويحاول أن يكون له نفس مستوى خدمة البيت .. كي أن يخدمه محروس .. إذ خدمة البيوت تحسب باختلاف طبقات أصحاب البيوت .. وهو ليس من الطبقة العالية التي يخدمها محروس .. وعاد البيت يستقبل وجوها وشخصيات مختلفة من الخدم والخدامات .. وتطول مدة بقاء كل منهم أو تقصر ولكنها لا تزيد أبدًا

عن بضعة شهور .. إلى أن جاءهم بشر .. إن شكله غريب .. طويل وتحين ووجهه الغامق السمار مكون بين أنفه وفمه وذقنه وعييه تكوينا غريبا .. إنه ليس وسما ولكنه ليس مفرا ومن السهل أن تعود على مظهره وشكله سريعا .. ومنذ اليوم الأول ظهرت مواهبه فى الخدمة وحيوته الدائمة .. وهو يفهم فى كل شيء .. وهو لا يكتفى بالخدمة العادية بل يستطيع أن يقف فى المطبخ ويعد أطباقا معينة من الطعام .. وأكثر من ذلك .. إنه يقضى البيت عن استدعاء سكرى ويصلح يديه الحقيقات .. وأحيانا يفنهم عن استدعاء نجار ..

وفى أيام اكتشاف عصمت أن بشر يعيش كل حياته وحيدا .. فهو لم يتروح رغم أنه وصل إلى سن الأربعين ولا يبدو عليه فى أسلوب حياته أنه سيتروح أبدا .. وليس له علاقة مع أهل قريته فى بلاد النوبة قريبا من أسوان .. كل ما يعرفه عن قريته هو اسمها .. ثم إنه ليس محتلطا اختلاطا تاما بأصدقاء من المهنة .. إنه يعرفهم ولكنه لا يعيش حياتهم .. ويبدو أن الجميع يحبونه كما يحبه بواب العمارة الذى جاء به .. ولكهم يحبونه كأنه إنسان شاذ بينهم ويشفقون عليه ويحملونه .. وربما كانت وحدة بشر قد ربطته بالبيت أكثر .. فهو غالبا مقيم فيه أو فى العرفة المحصنة له فوق السطح .. وبسرعة استطاع أن يعتبر نفسه من أفراد العائلة .. إنه يعيش بينهم فى بساطة دون مظاهر المروة .. ودون أن يبدو عليه مظاهر من الحقد أو العيظ الطبقي .. إن كل الفارق بينه وبينهم كما يحس به هو اختلاف المسئوليات .. ولكهم اكتشفوا شذوذه منذ البداية .. إنه قد يقضى شهرا أو شهرين وهو يعمل بشاط رائد ويقدم للبيت أكثر مما يطلب ثم فجأة وبلا أى مقدمات تصيبه نوبة

من الكسل .. فلا يعمل شيئا إلا النظار بالعلم .. ويتكاسل فيما يطلب منه .. وشفاته تصحاح دائما مقوبتين فى سخط وقرف .. وكل ذلك دون أن يعرف أحد السبب أو يقول هو السبب .. وقد تستمر هذه النوبة أسبوعا أو أسبوعين ثم فجأة أيضا تعود الانسامة إلى شفته ويعود إلى منتهى نشاطه .. وأيضا دون أن يعرف أحد السبب ..

ومن شذوذه أيضا أنه كان عاليا قليل الكلام .. وكان الصمت الدائم يعلب عليه .. وهو يعمل ومعه دائما الراديو يسمع منه الأعانى والكلام .. ويتنقل به من عرفة إلى غرفة .. وإن كان دائما حريصا على ألا يحمل الراديو معه عندما يستدعيه أحد من أصحاب البيت .. إنه حريص على المظهر المؤدب المهدب .. ولكنه كان أحيانا تنتابه نوبة تطلق به متكلما ويصل به الكلام إلى حد الصياح حتى يعطى على كل ما يديعه الراديو .. دون أن يفهم أحد شيئا مما يقول .. وأحيانا يبدو أنه يصب كلامه متار كأمع أم عزيزة التى تحبه هى الأخرى وتشفق عليه .. ولا تفهم أم عريرة لماذا هو تأثر عليها وتحمله صامنة رغم أن هذه النوبة التى تصيبه قد تستمر ساعات ..

ولعل شذوذه الأكبر أنه كان يشرب الحمر .. ولكنه كان فى العادة حريصا على ألا تؤثر الحمر على عمله فلا يشربها إلا فى يوم إجازته الأسبوعية .. وكان فى يوم الإجازة يأتى ليعد الإفطار ويجهز البيت ثم يختفى منذ الصباح حتى اليوم التالى .. وكان بمجرد أن يحتفى ينجه إلى حانة من الحانات الرخيصة المعدة لهذه الطبقة من شربى الحمر .. ويبدأ فى تناول الككوس .. ويظل يشرب طول النهار حتى تهدد الحمر وإما أن يستطيع أن يعود إلى عرفته فوق السطح وإما أن يلقي بنفسه على

أى دكة من ذلك البوابين الذين يعرفهم .. ويأم .. ويعود إلى البيت في اليوم التالي طبعاً دون أن يتكلم وإن كان أحياناً تبدو فيه بعض الاهتزازات من بقايا ما في جوفه من خمر .. ولكنه كان أحياناً يخرج عن القواعد التي وضعها لهذا الشئ وحسباً في الليالي التي يكون في البيت سهرة تجمع الأصدقاء وتقدم فيها الخمر .. وكان يشير كأنه يجد نفسه لا يستطيع أن يقول فكان يدخل إلى المدعوين ويجمع من أمامهم الأكواب ليغيرها .. وعالماً ما تكون في هذه الأكواب بقايا خمر بل لعل يشير أحياناً كأنه يعتمد أن يرفع الكوب من أمام الضيف قبل أن يتم شرب ما فيه .. ثم يدخل المطبخ ويبدأ في شرب ما تبقى من خمر في أكواب الضيوف .. وفي ليلة يبدو أن يشير حمل الكثير من الأكواب حتى تلاعبت به الخمر .. وفوجئ عصمت به وهو يدخل إلى قاعة الضيوف وهو يترنح والراديو في يده مفتوح إلى آخره .. وبلا استئذان وفي منتهى البساطة جلس يشير على مقعد بين الضيوف يستمع إلى الراديو .. ولم يشر عصمت وبضربه مثلاً ويسحبه خارج القاعة .. ولكنه بالعكس ابتسم له وأخذ يداعبه كما جاءت أم عزيزة وراءه وأخذاً يضحكان معه وهما يجذبان في رفق حتى عادا به إلى المطبخ .. وانقضت السهرة كلها والضيوف يصحكون ويتسكعون على يشير ، وعصمت بتعمد أن يروي النادر حتى يعطى حمله من يشير .. كأنه يعطى عورة من عورات البيت ..

ورغم هذه العراة في شخصية يشير وكل مظاهر شذوذه فقد كان البيت يتحمله في محبة وإشفاق .. وكان يعوضهم دائماً عن غرابته وشذوذه بنفائه في العمل من أهل البيت والعائلة .. وبأمانته المطلقة ..

وبوحده التي تتركه متفرغاً لهم .. وكانت ست البيت تقول دائماً .. — إن يشير لا يمكن أن يتركها يعمل في مكان آخر .. فإن أحداً لا يستطيع أن يتحمله إلا أنا ..

وفعلاً كانت العائلة كلها مطمئنة إلى أن يشير سيبقى في خدمتها إلى الأبد .. ولا يمكن أن يرتاح إلا معهم .. وبسبب له مطالب لا يستطيعون أن يحققوها له .. حتى بالنسبة لمرتبه الذي يدفعونه له .. إنه لم يطلب أبداً أي زيادة .. وعندما جاء إليهم عرض عليه عصمت أن يدفع له ثلاثين جنيهاً في الشهر .. وقبل يشير فوراً دون محاولة .. ولم يطلب خلاص السوات أي زيادة .. ولكن عصمت من تلقاء نفسه يرفع من هذا المرتب حتى وصل الآن وبعد ثماني سنوات إلى خمسين جنيهاً .. وحتى المكافآت التي كان من المفروض أن يدفعها له عصمت في كل مناسبة أو في كل دعوة يقيمها في البيت نظير خدمة الضيوف .. كان يشير لا يسأل عن هذه المكافأة ولا يبدو عليه أنه في انتظارها بل لا يبدو عليه الفرحه الكبيرة بها .. وهو ما كان يدفع عصمت كثيراً إلى نسيان دفعها له .. إنه غريب في تنظيم حياته حتى إنه كان يجمع مدخرات من هذا العرتب .. وكان يحتفظ بهذه المدخرات لدى أم عزيزة .. وأم عزيزة تحفظ بها بالتالي عند ست لبيت .. إن له من المدخرات الآن حوالي خمسمائة جنيه وهو أكمل من أن يفكر في استعمالها في شئ .. إلى أن فوجئ عصمت أخيراً بيشير يحدثه عن العمل في الخارج ويبدو أنه مصمم على ترك خدمته والعمل في الخارج أو في إحدى السفارات أو لدى أحد من الأجانب الذين امتلأت بهم مصر ..

وجلس عصمت وزوجته يتحدثان عن مصير الخدمة في البيت بعد أن يتركهم بشير .. وكان من رأى زوجته أنه بعد بشير فلن يجدوا أبداً أحداً يحل مكانه .. وعصمت يترحم على أيام زمان عندما كانوا يستدعون بنات وصبية من القرية ليتولوا خدمة البيت .. كانت القرية زمان تعتبر كلها عائلة واحدة يتعاون بعضها مع بعض .. ولكن القرية الآن أصبح فيها كل بيت منفصلاً عن الآخر ولا يهتم به .. بل أصبح البيت الواحد يضم إخوة لا يهتم أحدهم بالآخر .. وكل منهم منفرغ للاهتمام بنفسه .. هكذا أصبحت الحياة لا يستطيع فيها الإنسان أن يتحمل إلا مسؤولية نفسه .. وقالت زوجته إنهم يجب أن يستسلموا للتطور .. وتعيش العائلات كما تعيش في أوربا وأمريكا .. كل فرد من أفراد العائلة يخدم نفسه .. لقد تطورا إلى حد أنهم لم يعودوا في حاجة إلى سائك أو نجار أو كهربائي فكل أفراد العائلة أصبحوا يجيدون هذه المهام .. لا يمكن أن تستدعى العائلة سائكا ليصلح جلدة حافية المياه .. أى طفل يستطيع أن يتعامل مع جلدة الحافية .. حتى أن كل هذه المهام الفردية .. السباك والنجار والكهربائي قد احتمت من البلاد المتقدمة .. وحتى إذا احتاحت العائلة إلى عامل يساعدوها في مطالب البيت أو مربية ترعى الأطفال فهم يستأجرون هذا العامل على حساب مدة ساعة العمل .. قد يدفعون له أجر ساعة أو ساعتين أو ثلاث .. ولا يحتاجونه إلا يوماً واحداً في الأسبوع أو يومين .. لماذا لا نطبق هذا النظام عندنا وترتاح من متاعب وتكاليف الخادم المقيم ؟ ..

ولكن عصمت بدأ تفكيره يأخذ في اتجاه آخر .. إن مهمة الخدمة

داخل البيوت هي مهمة غير معترف بها لارسمياً ولا اجتماعياً .. إن خدم البيوت يؤلفون الهيئة الوحيدة التي ليس لها نقابة .. نقابة تحمي حقوقهم ويعرض مطالبهم .. إنه حتى نساء الشوارع في باريس قد أصبح لهن نقابة .. ولكن خدم البيوت عندنا ليس لهم نقابة .. وإن كان قد قيل إنهم هم أنفسهم لا يريدون نقابة ولا يريدون أى اعتراف رسمى بهم لأنهم يكسبون من حريتهم المطلقة أكثر .. لا يريدون أن يتقيدوا بأى قيود تحرمهم من التنقل بين بيت وبيت أو باختيار نوع العمل .. وربما أكثر من ذلك .. فإن العاملين في البيوت يرفضون هم أنفسهم الاعتراف بمهنتهم ويشربون منها كأنها عورة .. ولا يقبل أى واحد منهم أو واحدة بأن يعرف عنه أنه خادم أو حادمة .. أو سفرجى أو كمريرة أو دادة .. حتى بعد أن حرم لقب خادم ووضع مكانه لقب عامل .. عامل في بيت .. رفضوا أيضاً اللقب الحديد مع أن رئيس الجمهورية يتفاخر بأن مهنته هي مهمة خادم .. خادم الشعب .. وخادم الأسرة يساوى خادم الشعب .. إن اللقب الذى يقبونه على أنفسهم هو لقب « موظف » ..

ثم قال عصمت لنفسه كيف يفاجأ أو يدهش عندما يبدأ بشير في محاولة ريادة دخله ؟ .. إنه هو شخصياً بعد أن تخرج في الجامعة لم يكف يوماً عن التفكير في زيادة دخله .. لقد بدأ يعمل بمرتبة اثني عشر جنيهاً في الشهر .. وارتفع مع السنين إلى خمسة وعشرين .. ثم إلى ستين .. وبعد الثورة ارتفع مرة واحدة إلى مائة وعشرين .. وكان هو نفسه الذى سعى إلى هذه الزيادة باعتباره من أفراد الجيل الجديد .. ثم عندما عين رئيساً لمجلس الإدارة أصبح مرتبه أربع مائة وعشرين جنيهاً

بعد خصم الضرائب .. إن كل رئيس مجلس إدارة يتقاضى خمسة آلاف جنيه في العام سواء أكان يستحقها أم لا يستحقها .. ورغم ذلك فهو نفسه لا يزال يفكر في زيادة دخله ويصل تفكيره إلى العمل في الحارح كما ساعد ولديه على العمل في لندن وفي أمريكا .. فلماذا لا يكون بشير مثله ؟ .. إنه بنى آدم هو الآخر وحقه لا يختلف عن باقي البني آدمين .. الاختلاف لا يكون إلا في نوع العمل أو نوع المسؤولية دون اختلاف في طبيعة احتياجات البشر .. ولكن بشير يهمل نفسه .. إنه في حلال ثماني سنوات لم يزد دخله سوى عشرة جنيهات أو عشرين .. ويجب أن يتولى هو حماية بشير .. سيرفع مرتبه مرة واحدة إلى ستين جنيها .. وسيقدم له الحقوق التي كان من المفروض أن تكون له لو كانت له نقابة .. سيعد له سجل تأمين في هيئة التأمينات حتى يصمم له معاشا إذا انقطع عن العمل .. ولعل بشير بعد ذلك يقلل أن يبقى في خدمته ..

وكان عصمت قد عاد إلى البيت في نفس المساء ووجد بشير في المطبخ فدخل إليه وبدأ حديثه قائلا :

— إنك لن تكون في حاجة إلى ترك البيت والعمل في الخارج .. ونظر إليه بشير وقال وهو يبدو مترنحا :

— من قال هذا الكلام ؟

وقال عصمت في دهشة وقد تذكر أن هذه ليلة السبت التي تعود بشير فيها أن يعود سكران :

— أب ..

وقال بشير ولسانه يترنح بين شفثيه :

— وهل هذا معقول يا سعادة البيه ؟ .. أترك البيت وأذهب إلى أين ؟ .. هنا بيتي وعائلتي ..

وتعجب عصمت .. لا بد أنه كان في ثوبة من نوباته الشاذة عندما كان يحدثه عن العمل في الخارج .. وتركه في المطبخ دون أن يرد عليه ..

ولكنه ليس مطمئنا إلى بقاء بشير في خدمة البيت ..

هكذا تزوجا ...

جلستُ في العرفة التي تجلس فيها دائما طالما كانت في البيت .. وعلى نفس المقعد الذي أصبح معروفا أنه مقعدها الخاص حتى بالسببة للضيوف .. فكل من يدخل هذه الغرفة يعلم أن ليس من حقه أن يجلس على هذا المقعد .. وأمامها جهاز تلفزيون من أكبر وأحدث طراز ويلتصق به جهاز فيديو ومن حوله عشرات من شرائط الأفلام ملقاة في إهمال .. وقريبا منه جهاز راديو كاسيت من آخر طراز هو الآخر وحوله مجموعة كبيرة من شرائط الكاسيت .. ومكتبة لا تغطي الجدار كله ولكنها مكتبة متوسطة الحجم .. وفي أعلى المكتبة أرفف تحمل عشرات الكتب .. وأغلبها كتب أدبية تضم معظم القصص التي نشرها كبار الكتاب .. وأسفل المكتبة دولا ب لا يزال مفتوحا وتتجمع فيه عشرات من اللوسبيات ..

في مثل هذا اليوم منذ عشر سنوات مات زوجها .. وهي ليست مستسلمة للحزن في ذكراه .. إنها لم تفاجأ بموته وكانت منذ تزوجته وهي تنتظر أن يموت قبلها .. فقد تزوجته وهي في السابعة عشرة من عمرها يسما كان هو في الأربعين من عمره .. أي كان الفارق بينه وبينها ثلاثة وعشرين عاما .. وربما اختاره أهلها لها لأنهم قدروا أنه يستطيع أن يوفر لها حياة أرقى من مستوى الحياة التي يعيشونها .. وهي لم تعترض .. فلم تكن من البنات اللاتي يحملن بأنواع معينة من الرجال .. ولم تكن عواطفها قد تحركت نحو أي شاب يرغم أن كثيرا من الشان

كانوا يحاولون ملاحقتها والوصول إليها .. ثم إنه كان رغم سه وسيما وسامة الرجل وكان ممشوق القوام كأنه من أبطال الرياضة .. وقد أحست منذ اليوم الأول للزواج بارتباطها به .. ولا تدري هل كان ارتباط حب أم ارتباط الزوجة العاقلة بزوجها .. ولكن ما كان يطمى على إحساسها به هو أنه أستاذ يعلمها الحياة ويفتح أمامها أبوابا لم تكن تدري أن في الحياة مثل هذه الأبواب .. وقد كان رجل أعمال متخصصا في عمليات التصدير والاستيراد .. وكان يقوم بهذه العمليات بطريقة غريبة .. فلم يؤسس مثلا شركة تحمل مسؤولية أعماله .. بل لم يكن له مكتب خاص .. ولكنه كان يقوم بعملياته عن طريق اتصالاته الشخصية معتمدا على نفسه فقط .. ولكنه منذ تزوجها وهو يعتمد أن يشرح لها أسرار كل عملية يقوم بها ويعرفها بالشخصيات التي يحتاج إليها في كل عملية ويعلمها كيف تتعامل معهم وكيف تقيم لهم الدعوات .. إنه يعتبرها شريكته ويخلق منها سيدة أعمال .. وسيدة الأعمال يجب أن تتوفر فيها مواهب التعامل مع الرجال .. كيف تجتذب الرجل .. وكيف تصل به إلى إثارة كل آماله حتى الآمال البعيدة عن العمل .. آماله فيها هي شخصيا .. وقد تعرضت لكثير من محاولات الرجال للوصول إليها .. بل كانت هي أحيانا تثير في الرجل أن يقدم على هذه المحاولات حتى يضعف أمامها فينذل مجهودا أكثر من إتمام العملية التي يقوم بها زوجها مرصاة لها .. ولكنها لم تستسلم أبدا لأي رجل .. كانت من النباهة بحيث تستطيع أن تحفظ بآمال الرجل فيها دون أن تستسلم لهذه الآمال .. كانت مثلا تترك الرجل يحدثها في التلفون أو تحدثه هي وتتركه يعتقد أن حديث التلفون لا يعلم به زوجها .. إنها تحدثه أو

(١٢٣ - وتاهت ..)

تركه يتحدث خفية عن زوجها .. وكانت قادرة على أن تستمر بهذه المحادثات التليفونية شهرا أو شهرين دون أن تستسلم للرجل ودون أن يفقد أمليه فيها .. إلى أن تتم العملية التي يقوم بها زوجها .. وكان لها أسلوبها بعد ذلك في قطع هذه المحادثات التليفونية دون أن تغضب هذا الرجل .. تبعده دون أن تخسره .. وزوجها يعلم ألا بأول كل اتصالاتها بالرجال الذين يتعامل معهم .. ويسكت لأنه يعتبرها اتصالات تتطلبها العمليات التي يقوم بها .. يسكت وهو مطمئن إليها .. إنه واثق أنها لن تقدم على أكثر من ذلك .. لقد علمها أن العمل لا يفرض عليها أن تعطى أكثر .. وهي لا تدرى إذا كانت لا تعطى استجابة لتعليماته أم لأنها تحبه .. ولكنها واثقة أنها لا تعطى لأنها تخاف الله .. إنها منذ نشأتها وهي تخاف الله .. ربما لو استسلمت للحرام لعاقبها الله وصب غضبه على أولادها أو لهدم بيتها .. وقد مرت عليها حالات أحست فيها كأنها تكاد تستسلم .. وكان الرجل يفر بها كما تغريه .. ولكنها كانت تقاوم إلى حد أنها تعاني عذاب الحرمان .. ولم تكن تستمد القدرة على المقاومة من حبها لزوجها أو اقتناعا بتعليماته ولكن كانت تستمدها من خوفها من عقاب الله .. خوفها من الحرام .. وقد أسجبت من زوجها ولدين .. هشام وعصام .. وقد بالغت في رعايتهما وإحاطتهما بأمرتهما .. كانت الأمومة هي الحب الوحيد الذي عاشت فيه .. إن الأمومة ليست مجرد ارتباط كارتباطها بزوجها أو بأهلها .. إنها حب .. وهو حب ركزت عليه كل حياتها وكل مستقبلها .. إن زوجها سيموت قبلها ولن يبقى لها في حياتها إلا ولداها .. إنهما حتى قبل أن يموت زوجها هما كل مالها ..

وقد مات روحها وهو في الستين بعد أن عاش شهورا يعاني من أزمة قلبية .. وكانت خلال هذه الشهورة هي التي تتولى إدارة كل أعماله .. بها تعرف كل ما في هذه الأعمال من أسرار .. ولم يصحها أى انهيار سموت ولم تحزن حزنا عميقا يؤثر في تماسكها بنفسها أو في الحرص على ترتيب كل خطواتها .. فلم يكن الموت مفاجأة .. كانت تنتظر دائما أن يموت .. واستطاعت بسرعة أن ترتب كل حياتها وحياة ولديها .. واستطاعت أيضا أن تستمر في عمليات الاستيراد التي تركها لها .. إن بينها عمليات تدبر دخلا ثابتا يمكن أن يعينها عن السعي وراء عمليات أخرى .. لقد تركها زوجها وهي غير محتاجة .. تركها وهي تستطيع أن تعثر بنفسها ميويرة ولو أنها تعتمد دائما أن تحقى عن الناس أنها وصلت إلى درجة ميويرة ..

وفوجئت بعد شهور من موت روحها بمن يتقدم لها عارضا الزواج .. ربما قدروا أن روحها المرحوم لا يستحق أكثر من هذه شهور حزنا عليه واحتفاضا بذكره .. ثم إنها لا تزال شابة في السابعة والثلاثين من عمرها .. وهي جميلة هذا الجمال الهادئ .. جمال يستأسيت .. إن كل رجل يتصاها زوجة له ويجرى كل منهم إليها قبل أن يسقه آخر ..

ولكن لا ..

مستحيل ..

لن تزوج أبدا ..

كيف تدخل على ولديها رجلا غريبا .. لم يعد في حياتها مكان إلا لولديها .. ثم من أدراها بالدوافع التي تدفع كل هؤلاء الرجال للتقدم

إليها .. ربما لم يكن محروداً لأنها لاتزال شابة أو لأنها تعتبر جميلة .. إنما لأنهم يعرفون أنها غنية .. وكلهم يطمعون في أن يتزوجوا أموالها .. حتى صديقاتها اللاتي يعربها بالزواج ربما كانت كل منهن ستأخذ من العريس عمولة أو قيمة السمسمرة في تزويجه من امرأة غنية .. إنها لن تتزوج أبداً .. وإذا حدثت وفكرت في الزواج فهي على الأقل لن تتزوج إلا رجلاً تعرفه معرفة تامة .. معرفة الحب الذي تسمع عنه .. وقد تزوجت زوجها المرحوم دون أن تعرفه .. ولكنها أيامها كانت صغيرة ومستبعدة لإرادة أهلها .. ولم تكن كما هي الآن .. أما لولدين .. وسيدة أعمال .. وغنية .. ولكن ..

مع مرور السنوات بدأت تعاني من الوحدة .. تحس بفراغ واسع .. إنها امرأة ناقصة .. كل امرأة بلا رجل هي امرأة ناقصة .. كأنها نصف مخلوقة .. وولداها لهما حياتهما الخاصة التي لا تستطيع أن تعيشها معهما .. كما لا تستطيع أن تخرجهما من مجالهما ليعيشا مجالها .. إلهما أحياناً بحاملاتها ويقضيان اليوم معها .. أو يصحبانها إلى السينما أو إلى مسرح وتحس وهي معهما بأنها تحرمهما من شبابيهما .. وتكلفهما بأعمال منزلية ليست من اختصاصهما .. ثم إنها لم تعد ترحب بدعوات إلى الحفلات الاجتماعية .. إنها لا تطيق أن تدخل إلى حفل وحدها وتخرج وحدها .. امرأة بلا رجل .. امرأة ناقصة .. ولم تعد تستطيع أيضاً أن تقيم مثل هذه الحفلات في بيتها تدعو إليها الأزواج مع الزوجات .. ليس في البيت رجل يستقبل الرجال .. وليس من الطبيعي أن تجعل ولديها يقفان لاستقبال رجال كبار لا يعرفانهم وليس

بيهما وبينهم أى موضوع لأى حديث .. وأصبح من عاداتها عندما يصيق بوحدتها أن تدعو واحدة من صديقاتها أو اثنتين ليحكما معها مدلهما ورفقه .. حتى أصبح يقال عنها إنها بخيلة لا تفتح بيتها للدعوات .. وهي ليست بخيلة .. وقد تكون حريصة على ما تنفقه .. فهي لا تترك العرش يحرث من يدها إلا بعد أن تنقع بمصير هذا القرش وأين يذهب .. وهي ليست مستعدة لأن تترك آلاف القروش تخرج من يدها لتقيم في بيتها حفلاً إلا إذا تأكدت مقدماً أنها لن تكون في هذا الحفل امرأة ناقصة أو لا إذا تأكدت أنه سيكون في هذا الحفل الرجل الذي تريد أن تستكمل به نقصها .. ولكنها لاتدرى كيف تجد هذا الرجل لتدعوه إلى كل حياتها ..

وكانت قد مضت خمس سنوات وهي تعاني وحدتها .. تشعل نفسها ببيتها ولديها وبعض العمليات التي ورثتها عن زوجها والتي أصبح القيام بها روتيناً ليس فيه جديد ولم تصف إليها جديداً يشير اهتمامها ويشعل حماسها وينسبها وحدتها .. ومعاناة الوحدة تشد بها في الليل فتجلس أمام التليفزيون أو تدير أشرطة الفيديو أو تقرأ في كتاب أو تستمع إلى موسيقى أو أعية على شريط كاسيت .. ولا تستطيع أن تدخل إلى الفراش الخالي إلا إذا تسب عليها النوم قرب المحر و كأنه قد أعنى عليها ! .. وكانت أحياناً تحاول أن تنقع نفسها بالزواج من واحد من هؤلاء الغرباء الذين يتقدمون إليها .. بل إنها كادت توافق على لزواج من عبد المقصود منصور .. إنه مليونير .. ومعروف كواحد من أغنى أغنياء مصر .. وقبلت فعلاً أن تلقاه في دعوة لدى إحدى صديقاتها .. ولكنه رغم ما يتمتع به من الصحة والعافية في الستين من

عمره .. أكبر منها أيضا بعشرين سنة .. وهى لا تريد أن تكرر مأساتها مع روحها المرحوم فتروح رجلا تنتظر موته مديوم الزواج .. كما أنها تريد أن تحقق أملها فى ألا تروح رجلا إلا بعد أن تعرفه معرفة تامة .. بعد أن تحب .. إلى أن استطاعت أن تقاوم إغراء ملايين عبد المقصود وتعذل عن زواجه ..

إلى أن قابلت مدحت عبد الله ..

لقد قابلته صدفة وفى دعوة غير مقصودة لدى صديقتها ميرفت .. لقد جذبها إليه منذ اللقاء الأول .. إن مجرد كلامه يحذبها .. إنه يشكلم جادا ولكن جديته تكسر ها بساطة مريحة وتحفظ الابتسامة على شفاه كل من يسمعه .. وهو ليس رجل أعمال كأغلبية الرجال الذين عرفتهم .. إنه موظف كبير فى درجة وكيل وزارة .. ويملك أرضا رابعة واسعة تحمله فى مستوى طبقة الأعياء .. وهو أكبر منها قليلا .. إنها الآن فى السابعة والثلاثين وهو فى الواحدة والأربعين .. إن فارق السن مادام أقل من عشر سنوات هو أصلح فارق بين روح وروحة .. والأهم من كل ذلك أنه فى مثل وضعها .. لقد كان متزوجا وزوجته توفيت مد خمس سنوات فى نفس الموعد الذى توفى فيه روحها .. وتركت له زوجته ابنتين كما ترك لها روحها ولدين ..

ولكن يحب أن تعرفه أكثر .. وقد وفر عليها التفكير فى الطريق إلى معرفته عندما قال لها وهى تنصرف عن المحفل ..

— هل أستطيع أن أوصلك مادمت وحيدة ؟ —

وكانت ساعتها تسمى أن توافق ولكنها قدرت أنه من الأفضل ألا تستسلم لأمتيتها وقالت ..

— شكرا .. إن معى سيارة ..

قال فى هدوء وفى لهجته الجادة البسيطة كأنه لا يتجراً بطلب ليس من حقه :

— هل أستطيع أن أتحدث إليك فى التليفون ؟ —

وقالت وهى تحفى عينها عنه كأنه قد بدأ شئ بينهما :

— أنا فى انتظارك ..

وحدثها فى اليوم التالى مباشرة .. وكانت فى انتظاره فعلا .. وحست ربما لأول مرة فى حياتها بقليلها يحقق وهى تسمع صوته .. إنها تتحدث معه فى التليفون كما لم تعود التحدث مع رجال الأعمال أو الموظفين الكبار الذين لهم دخل بأعمالهم التى كان يقوم بها روحها وتولتها بعده .. إنه ليس بينه وبينها أى عمل .. كل ما يسه ويسه بادرة حب قد ينتهى إلى زواج ..

وقد طل الحديث بينهما أياما وأسابيع قبل أن يصل إلى موضوع الزواج .. كأن كلاهما كان يحاول أن يكتشف أعماق الآخر ويدخل فى شخصيته .. وهى لا تشع أبدا من هذه الأحاديث .. ولم تكن تقبل أبدا أن يستجيب لرغبته فى لقاء خاص بهما .. كان كل ما يحصل عيه هو لقاء آخر عند صديقتها ميرفت .. بل لم تقبل أيضا أن يوصلها فى سارته بعد ريارية ميرفت .. دائما مفصلة بسيارتها .. إنها تحكم عقها قبل أن تستسلم لعواطفها .. إلى أن فاتحها فى الزواج وهو يحدثها بالتليفون ..

وعلى عكس ما تصورت وجدت نفسها مترددة .. حائرة .. إنها تعيش الآن حياة منظمة مرتبة ترتيبا يشمل اليوم والساعة والدقيقة ..

فكيف تقلب هذا الترتيب وتزوج ..

إنها أولا لا يمكن أن تتزوج إلا بموافقة ولديها هشام وعصام .. إنهما أصبعا كأنهما وليا أمرها .. هما المسئولان عنها .. حتى ولو كانت مجرد مسئولة عاطفية .. وقد كبرا .. هشام الآن في السنة النهائية بكلية التجارة .. وعصام في الجامعة الأمريكية يدرس إدارة الأعمال .. إن كلا منهما يعد نفسه ليسير في نفس الطريق الذي كان يسير فيه والدهما .. طريق الأعمال الحرة .. معتمدين على ماورثاه منه وما صانته لهما أمهما ..

ولنفرض أنهما وافقا على زواجهما .. وهي لا تستبعد موافقتهما .. إيهما معترفان بأنها ضحت بنفسها من أجلهما وعاشت كل هذه السنوات في حرمان .. عاشت نصف امرأة .. حتى تنفرغ لهما .. بل كان إيهما هشام يصحك معها قائلا :

— سأزوجك يا ماما ..

وترد ضاحكة :

— إني متزوجة من اثنين .. أنت وأحيك ..

فبرد وكأنه جاد رغم أنه يضحك :

— الزواج الثالث سيشارك معا في إسعادك .. على الأقل يحمل معا مسئولية السهر معك .. ولا نلوم أنفسا كلما تركناك وحيدة ..

ولكنه كان مجرد كلام أقرب إلى تبادل البكات .. ولا تدرى ماذا سيكون عليه إحساسهما عندما تقلب الكفة إلى واقع يعيشان فيه .

عندما تتزوج فعلا ..

ولنفرض أنها تزوجت فأين تعيش مع زوجها .. هل يكون لهما بيت حديد .. بيت الزوجية .. لا .. مستحيل أن تترك الشقة التي تعيش فيها .. ومستحيل أن تترك ولديها وحدهما مهما ضمنت توفير مطالب الحياة لهما .. إنها تحس أنها لا تستطيع أن تعيش خارج هذه الشقة .. لقد وضعت فيها يدها كل لمسة .. وجددتها أكثر من مرة حتى أصبح كل ناس يعترفون بأنها أفخم شقة في مصر كلها .. ولا تستطيع أن تصور أن تصحو في الصباح ولا تلقى بوجه ولديها .. إنها لم تعود أن سلهما قسمة الصباح كما تفعل باقي الأمهات .. ولكن أن تضمهما بيتها في الصباح يملأ إحساسها بأموعتها أكثر من القللات ..

إدارته حيث لم يكن هناك طريق إلا أن يأتي زوجها معها ويعيش في نفس الشقة ومعهم ولداها .. ولكن .. كيف يتحمل الولدان رؤية أمهما وهي تدخل مع الرجل العريب حجرة النوم .. ويعيشان في خيال أن أمهما الآن عارية في أحضان رجل .. ربما تحملا إلى أن يعودا .. ولكن هناك مشكلة أخرى . إنها لا تزال تحتفظ حتى اليوم باسم المرحوم على باب الشقة .. ولا تزال تحتفظ بصورته الكبيرة معلقة في وسط حدار صالون الاستقبال .. فهل ترفع اسمه من الباب وتنزع صورته من فوق الجدار يوم تتزوج .. فهل يحتمل ولداها .. إنه اسم أبيهم وصورته اللذان يؤكدان أن البيت بيتهم .. لعلهما سيشرعان أن أمهما قد نزعتهما هما من حياتها ومن بيتهم ..

ولكن لمادا تحصر كل تعكيرها في ظروفها هي وحدها .. إن حبسها مدحت عبد الله له أيضا نفس الظروف .. إن له بنتين تعيشان معه منذ توفيت أمهما .. وأصبحنا الآن كأنهما المسئولتان عنه في بيته .. فكيف

فكيف تغلب هذا الترتيب وتزوج ..
إنها أوالا لا يمكن أن تتزوج إلا بموافقة ولديها هشام وعصام .. إنها
أصبحت كأنهما وليا أمرها .. هما المسئولان عنها .. حتى ولو كانت
مجرد مسئولية عاطفية . وقد كبرا .. هشام الآن فى السنة النهائية بكلية
التجارة .. وعصام فى الجامعة الأمريكية يدرس إدارة الأعمال .. إن
كلا منهما يعد نفسه ليسير فى نفس الطريق الذى كان يسير فيه
والدهما .. طريق الأعمال الحرة .. معتمدين على ماورثاه منه
وما صانته لهما أمهما ..

ولمرض أنهما وافقا على رواجها .. وهى لا تستبعد موافقتها ..
إنهما معترفان بأنها صحت بنفسها من أحلهما وعاشت كل هذه
السنوات فى حرمان .. عاشت نصف امرأة .. حتى تنزع لهما .. بل
كان ابنها هشام يضحك معها قائلا :

— سأزوجهك يا ماما ..

وترد ضاحكة :

— إني متزوجة من اثنين .. أنت وأخيكت ..

فيرد وكأنه جاد رغم أنه يضحك :

— الزواج الثالث سيشارك معنا فى إسعادك .. على الأقل يحمل معا
مسئولية الشهر معك .. ولا نلوم أنفسنا كلما تركناك وحيدة ..

ولكنه كان مجرد كلام أقرب إلى تبادل البكت .. ولا تدرى ماذا
سيكون عليه إحساسهما عندما تغلب النكته إلى واقع يعيشان فيه ..
عندما تتزوج فعلا ..

ولمرض أنها تزوجت فأين تعيش مع زوجها .. هل يكون لهما بيت
حديد .. بيت الزوجية .. لا .. مستحيل أن تترك الشقة التى تعيش
فيها .. ومستحيل أن تترك ولديها وحدهما مهما ضمت توفير مطالب
الحياة لهما .. إنها تحس أنها لا تستطيع أن تعيش خارج هذه الشقة ..
لقد وصعت فيها يديها كل لسة .. وجددتها أكثر من مرة حتى أصبح
كل الناس يعترفون بأنها أقفخ شقة فى مصر كلها . ولا تستطيع أن
تتصور أن نصحو فى الصباح ولا نلتقى بوجه ولديها .. إنها لم تعود أن
تسبها قبة الصباح كما تفعل باقى الأمهات .. ولكن أن تضمهما بينها
فى الصباح يملأ إحساسها بأموئتها أكثر من القلات ..

إذا تراه حث فلى يكون هناك طريق إلا أن يأتي زوجها معها ويعيش فى
نفس الشقة ومعهم ولداها . ولكن . كيف يتحمل الولدان رؤية
أمهما وهى تدخل مع الرجل العريب حجرة النوم .. ويعيشان فى خيال
أن أمهما الآن عارية فى أحضان رجل .. ربما تحملا إلى أن يتعودا ..
ولكن هناك مشكلة أخرى .. إنها لا تزال تحتفظ حتى اليوم باسم
المرحوم على باب الشقة .. ولا تزال تحتفظ بصورته الكبيرة معلقة فى
وسط جدار صالون الاستقبال .. فهل ترفع اسمه من الباب وتنزع
صورته من فوق الحدار يوم تتزوج .. فهل يحتمل ولداها .. إنه اسم
أيهم وصورته اللدان يؤكدان أن البيت بينهما . لعلهما سيشرعان أن
أمهما قد نزعتهما هما من حياتها ومن بيتها ..

ولكن لماذا تحصر كل تفكيرها فى ظروفها وهى وحدها .. إن حبيبها
مدحت عبد الله له أيضا نفس الظروف .. إن له بنتين تعيشان معه منذ
توفيت أمهما .. وأصبحنا الآن كأنهما المسئولتان عنه فى بيته .. فكيف

يتحلى عههما ويتركهما وحيدتين بعد أن يتزوجها ويقيم معها فى شقتها ..

وقد حطر على خيالها أن يأتى بالبنين معه ليقموا جميعا معها .. إن الشقة واسعة وتستطيع أن تخصص لهما حجرة من أجمل وأحلى عرف البيت .. ويصبحون كلهم كأنهم عائلة كبيرة .. راحة وزوج وولدان وبنان .. ولكنه لم يقبل .. إن البنين قد أصبحنا فى الساعة عشرة والخامسة عشرة ولا يمكن أن يضعهما مع شابين عرييس وإلا ثار حولهما كلام الناس .. ويعرضهما لكل ما يمكن أن يحدث بين البنات والأولاد .. ولئى يأمن عى سانه مع أولادها إلا إذا تزوجا جميعا بعصمه من بعض .. يتزوجها وتزوج ابنه ولديها .. ولكن مستحيل ..

لا يمكن أن تفرض على ولديها أن يتزوجا من ابنه لمجرد تحقيق غرضها الخاص بالزواج به .. وهو أيضا لا يستطيع أن يفرض على ابنته أن تزوجا ولديها .. وإلا كان الأمان فى منتهى الأمانى إلى حد التصحية بالأبناء ..

لماذا لا يترك ابنه لتعيش فى بيت أخته أو بيت أخيه ؟ .. لقد قال لهما يوما إنه سبق أن قرر فعلا أن تعيش ابنه مع عمتها .. ولكنه إلى اليوم لا يستطيع أن يعقد قراره أو يوافقهما فيه .. لقد كثرت الاستاء وتعودت عى الحياة معه .. وأصبحت لكل منهما شخصية قائمة على مسئوليتها عى أيبها ومسئوليتها أمامه .. لو كانتا صغيرتين فى الرامة أو الثالثة من عمرها لأمكن أن تعودا الحياة بعيدا عى أيبهما وإن نكتسبا القدرة على الحياة مع العم أو العمة .. أما الآن فمستحيل .. إنه يحس كأنه سيحرمهما من الحياة إذا تركهما بعيدا عنه .. كأنه يقيهما فى الشارع .. وهو على حق .. ربما

لو كان ولداها هى الأخرى صغيرين لاستطاعت أن تتزوجه بسهولة ودون أن نواجه كل هذه المشاكل .. وليس هناك الآن طريق لتزوجه إلا أن تنتظر حتى يتزوج ولداها ويكون لكل منهما بيت خاص .. ويتصر هو الآخر إلى أن تتزوج ابنه وتصح كل منهما ربة بيت خاص بها وبعد ذلك يتزوجان .. وقد يتحقق ذلك بسهولة .. لقد قال لها إن ابنته الكبرى قد خطبت .. المهم أن يتحملا الانتظار .. وهى تستطيع فى معترفة أنها تحبه وأنها تريد .. ولا شك أنه أيضا يحبها إلى درجة أنه يتحمل عقبتها المعقدة كأنها تحمل فى رأسها « كمبيوتر » بحسب حساب كل خطوة تحطوها ولا تستطيع أن تحارف أو تحصى حصوة لا تتفق مع حساب هذا الكمبيوتر ..

وطالت حيرتها حتى مضى عامان وهى تعاني ما يدور فى عقلها وتعانى حرمانها منه .. ولكنها لا تزال تحتفظ به فى لقاءات التليفون وفى لقاءهما عن طريق صديقتها ميراث .. وكانا يتحدثان طويلا بحثا عن الطريق .. وربما كانت تحفى عى بعض خواطرها ولكنها لم تكن تحفى شيئا من كل ما يدور فى رأسها عن صديقتها ميراث .. وكانت ميراث تصرح فى وجهها كل يوم :

— تزوجى أولا .. ثم فكرى فى ذلك فيما بعد الرواح ..

كان من رأى ميراث من البداية أن يعقدا القران دون أن يهتما بأين يقيمان ولا كيف يقيمان .. إن الرواح هو تسجيل شرعية الحب .. وهى تحبه وتريده .. فلتسجل أولا شرعية الحب وشرعية ما تريد منه .. وبعد ذلك تفكر فيما سيكون عليه الأولاد والسات وفى البيت الذى سيكون بيت الزوجية .. ليتزوجا كما هما الآن .. هى فى بيتها مع ولديها وهو

فى بيته مع بنتيه .. ويلتقيا فى هذا البيت أو ذاك .. لقاء الحب .. أو
يخصصا بيتا ثالثا للقاء الحب .. هكذا تتم الآن كثير من الزيجات .. بل
إن أرملة الشقيق جعلت الروحة تعيش مع أهلها والروح يعيش مع أهله ..
ويلتقيان دون حاجة إلى بيت الزوجية .. حتى لو كانت الزوجة فى بيت
أهلها أو عاش هو فى بيت أهلها فلا يمكن اعتبار هذا البيت بيتهما
وحدهما .. بيت الزوجية .. وإنما هو بيت اللقاء .. لقاء الحب
الشرعى .. أى أن الزواج الآن أصبح يقوم الآن على تحقيق واقع الحب
أولا إلى أن يتمكن الزوجان من تحقيق واقع الزواج .. وواقع الحب
مقبول من المجتمع مادام حبا شرعيا كواقع الزواج تماما .. أى تستطيع
أن تبقى فى بيتها مع أولادها ويبقى هو فى بيته مع ساته والمجتمع كنه
معتزف بحبهما .. معتزف بأبهما زوجان .. ويظهران معا أمام الناس ..
وتوجه إليهما الدعوات معا .. اعتراها بأبهما زوجان ..
وكانت ترفض الاقتناع بهذا الكلام .. وصديقتها ميرفت تصرخ
فيها :

— هل تتصورين نفسك كأنك فتاة صغيرة عذراء تريد أن يكون
زواجها كاملا من كل لوازمه .. بيت .. وجهاز .. ومهر .. وشبكة ..
وحفل زفاف .. والعوالم تزفك .. مبروك عليك عريسك الحقة ..
لا يا صديقتى .. إنك تتزوجين فى ظروف خاصة لا تحتمل كل هذه
التقاليد .. إنك تتزوجين وأنت على حافة النهاية .. ولا تملكين
إلا ما يستر وجودك وأنت على الحافة ..

وهى تعاند صديقتها .. ربما كان من غرورها بنفسها وثقتها فى
دكايتها ما يجعلها تصر على أن يكون زواجها كاملا من كل جوابه ..

ولكنها مع مرور كل هذا الزمن الطويل بدأت تلين .. وبدأت أمية
الزواج تسيطر عليها دون أن تستقر على رأى .. ولكنها قررت أن تقدم
حبها إلى ولديها .. واتفقت معه ومع صديقتها ميرفت على أن يرواها
فى البيت .. وقالت لولديها إنها تريدتهما أن يكونا حاضرين لتقديم لهما
شخصية جديدة عليهما ..

وجاءت ميرفت وزوجها ومعهما مدحت الذى استطاع بسرعة أن
يأسر الولدين بحديثه الحاد السيط الذى يريح العقل ويحتمط بالانتماء
بين الشفتين ..

وكانت الزيارة ولا أحد يريد إنهاؤها .. قد زالت الكلفة بين الجميع ..
حتى أحسنت أنها تزوجته فعلا وأنها معه فى بيتها بعد الزواج .. وبعد أن
خرجوا سألت ولديها فى لهفة :

— مارأيكما فى مدحت يه ؟ ..

وقال هشام :

— لقد أعجبنى ..

وقالت :

— إنه متقدم للزواج ..

وصاح هشام :

— زواجك أنت يا ماما ؟ .. أنا موافق ..

وقالت :

— ولكنك لا تعرفه ..

وقال بسرعة :

— يكفى أنك تعرفيه وطبعما موافقة ..

وقالت وهي تحاول أن تتسم: ..
 — كيف أتزوج وأنا متزوجة منكما أنتما الاثنين؟ ..
 وقال عصام بعقيلة الحامدة الأمريكية :
 — إن زواجك يحل مشكلتك ومشكلتنا نحن الاثنين .
 قالت وقد عادت إلى حيرتها :
 — ولكن كيف أعيش متزوجة ..
 وعاد عصام يقول بعقيلته الأمريكية :
 — هدا ما تقررانه أنتما الاثنين .. وأنا وهشام موافقان مقدما على كل ما تقررانه ..
 إن ونديهما يتميان لهما المرواح فعلا .. وقد حدثتهما وأعجنتهما شخصية حبسها مدحت ..
 وقد قال لهما مدحت إنه أبلغ انتبه أنه قرر الزواج .. وقال إنه اختار العروس وحدثتهما عنها .. وقد فرحت استه كأنهما تسميان إبقاده من وحدته ومن حرمانه . وقد جعلهما تحادثانها في التليفون مرات كثيرة .. وهي تفرح بحدثهما ونسأل محبوسا في أن تحادثتهما بشخصية الأم . ثم بعد ذلك التقت بهما عند صديقتهما ميرفت .. إنهم ابنتان رائعتان .. مهندتان .. جذابتان .. ولكلها بيتها وبيت نفسها كانت تحس أنها لا تستطيع أن تعيش معهما .. إن أمومتها لا تنزع لهما . ربما كانت تعار منهما على حبسها . أوهما .
 وهي لا تزال مترددة .. لا تستطيع أن تفرح من حيرتها .
 ولا تستطيع أن تتخلص من حبها ومن أمنيتهما أن تتزوج إلى أن اتصلت به صديقتهما ميرفت ودعتها لزيارتها في موعد محدد ..

ووجدت هناك مدحت كأنه في انتظارها . وقالت لهما ميرفت في صوت جاد :
 — هل أنت موافقة على الزواج من مدحت ؟ ..
 وقالت وهي تتهد :
 — ياليتني أستطيع ! ..
 ثم قلت لمدحت :
 — طبعاً أنت تسمى هذا الزواج ؟ ..
 وقال مدحت في فرح كأنه يعلم شيئا :
 — طبعاً .
 وقالت ميرفت كأنها تزغرد :
 — إذا لمد تزوجتما .
 ثم فتحت الباب المؤدى إلى الغرفة الأخرى وهي تصيح :
 — انفضل يا حضرة المأدون .. تعالين يا بنات ، تعال يا هشام وأنت يا عصام ..
 ودخل المأدون والأولاد والبنات .. ورفعت هي عبيها في دهشة ثم صحت .. لقد دبروا وأعدوا كل شيء لتحقق أمنيتهما .. واستسلمت .. وعقد القرائ ..
 وأحست كأنها عادت صغيرة رغم أنها اليوم في السابعة والأربعين .. وحس أنه اسرد شابه رغم أنه وصل إلى الحادية والخمسين .
 إن كلا منهما لا يزال مستقرا في بيته مع أولاده .. ويلتقيان لقاء الحب في بيتهما .. وولدها حريصان كلما جاء زوج أمهما ليتناول

معهما العداء أو العشاء أن يتركا البيت لهما فترة طويلة .. ولكهما قررا أن يتخذا شقة خاصة بهما هما الأثيس .. شقة الحب .. يلتقيان فيها كأنهما حيان لم يتروجا بعد . وإن كان قد أصبح من حق الأم أن تستأذن ولديها في أد تقضى الليل بعيدا عنهما .. وأصبح من حق الأب أن يستأذن الابنتين في أن يبيت خارج البيت كأنه مسافر لقضاء ليلة في الإسكندرية .. والبتان والولدان يعلمون كل شيء .. والأب والأم يصارحانهما بكل شيء .. والمجتمع كله أصبح معترفا بهما كزوجين ..

وهما يعيشان على أمل واحد .. أن تزوج البتان .. ويتزوج الولدان .. وتنقل بزوحها إلى شقتها التي تحها وتستكمل كل نواحي الرواج ..

لقد أصبَحَت رشيقة ..

لم تكن تحس أن شيئا تغير .. لاقيتها ولا في لحية كلها .. إنها منذ تزوجت وكل شيء يسير هادئا سعيدا كأن الحياة تسكب حولها قسرات العسل .. وتشر في طريقها زهرات الفل .. وقد تزوجت عن قصة حب لا تزال تعيش فيها يوما بعد يوم .. لقد كان روحها محمود لا يصدق أنه يمكن أن يتزوجها .. وهو إلى اليوم وبعد كل هذه السنوات يطرأ إليها وعينا منبهرتان كأنه لا يصدق أنه تزوجها فعلا .. ويمد يديه كثيرا ويتحسسها كأنه يريد أن يطمئن ويتأكد أنها أصبحت بحابه .. وقد أنجب ثلاثة .. ولدين وبنتا .. ولو كانت قد تركت نفسها لكانا قد أنجبا عشرة .. فهما لا يشبعان أبدا أحدهما من الآخر .. ولكنها تبتهت إلى أنه يكفيهما ثلاثة .. ولم تكتف بالاعتماد على حبوب مع الحمل .. إنها تضيق بهذه الحبوب ولا تستطيع أن تكون حريصة على عدم النسيان .. ثم إن محرد تناول هذه الحبوب يعكر متعة إحساسها وهي في أحضان زوجها .. إنها تحس وهي تناول الحبة كأنها مقبلة على إجراء عملية .. في حين أنها لم ترقد أبدا بحباب روحها وهي تفكر في إجراء أى عملية ولكهما بلا تعمد لا يكادان يتلامسان حتى يدوبا في الحب .. وقد يقتصر على لقاء الشقاء بالشفاه .. ولكنه دائما منتهى الحب .. أما إذا تناولت الحبة فهي لا تكتفى بمنتهى الحب ولكنها تحس كذ المروض عيها أن تقوم بالعملية حتى يلاحب .. ثم هناك ما هو أكثر .. إن هذه الحبوب تصد النفس .. وهي منذ تزوجت ومنذ استقر حبها ونفسها (م ١٣ — وثالث)

مفتوحة للأكل .. أصبحت تحس أن الحياة كلها ليس فيها إلا متعان ..
 متعتها بالرجل الذى تعاشره وتستحلبه .. ومتعتها بالطلق الذى تعده
 وتأكل ما فيه .. وقد اشتهرت بسبوعها فى إعداد الأطباق .. واستطاعت
 أن تعيد مجد المطبخ التركى الذى كان يعد أطباق السلاطيس .. لقد
 أصبحت أطباقها معروفة فى المجتمع كله .. طبق ورق العنب
 بالكوارع .. وطبق الملوخية البورانى بالأرانب .. والشركسية ..
 والشكشوكة .. وعيش السراى .. والفطير المشلت .. و .. و .. بل
 إنها استطاعت أن تعد السمن البلدى داخل البيت بعد أن فقدت ثقتها فى
 السمن الذى تشتريه من السوق .. وحتى لا تترك حبوب مع الحمل
 تؤثر على شهيتها وتصد نفسها ذهبت إلى الطبيب وأجرت عملية بسيطة
 أراحها من الحمل .. واحتفظت لها بشهيتها المفتوحة حتى آخرها ..
 وصحيح أن صديقاتها بدأن يحذرنها من السمنة .. إن قوامها يزداد
 اكتنازا يوما بعد يوم .. ولكن لعل صديقاتها يبالغن .. إنها تقف أمام
 المرأة فتجد قوامها قد ازداد اكتنازا ولكنه لم يفقد رشاقته .. حتى إذا
 كان قد تعدى الرشاقة فهو على الأقل لم يفقد جماله .. إن القوام لا يفقد
 جماله إلا إذا تهدل .. وقوامها لم يتهدل ولم يسقط بعضه على بعض ..
 إنه لا يزال قواما مشدودا يشد بعضه بعضا محتفظا بجماله .. ولعلها
 بدأت تعترف بأنها أصبحت فعلا سمينة عندما بدأت تحتاج إلى خمسة
 أمتار من القماش لتفصيل ثوبها بعد أن كانت قبل الزواج لا تحتاج إلى
 أكثر من ثلاثة أمتار ونصف .. ولكن ماذا يهم .. المهم هو الاحتفاظ
 بالصحة .. إن ما يحتفظ للمرأة بأنوثتها وإغرائها ليس وزنها .. وهل هى
 رفيعة أم سمينة .. بل إن كل إغراء المرأة وأنوثتها يعتمدان على سلامة

صحتها .. وهى والحمد لله فى صحة جيدة .. رائعة .. إنها لم تعكر
 أبدا على مزاج زوجها بمرض يصيبها ويحرمه منها .. بل لم تصب أبدا
 بركام يبعد شفتيه عن شفتيها أو بكحة تنطلق منها وتلوث وجهه ..
 واحتفاظها بصحتها هو الذى احتفظ لزوجها بكل متعته بها .. بل إنها
 كلما سميت ابتكر زوجها حركات جديدة فى إشباع متعته كأنه يعجب
 فى ملعب من لحمها .. وهى تلعب معه وترداد متعتها هى الأخرى ..
 ولم تهتم أبدا بزيادة وزنها .. حتى بعد أن أصبحت أعجوبة تلفت
 النظر بسمتها .. وعلى كل حال فإن كل نساء العائلة يعشن مكافحات
 للسمنة .. إن أحتها اعتماد اضطرت أن تحرى عملية جراحية فى
 صدرها حتى تشد ثديها بعد أن انهارتا حتى أسحنا تلامسان بطنها ..
 وإن أحتها هوقية وعائشة تعيشان محرومتين من الأكل خاصعتين لقواعد
 « الرحيم » وتعديان نفسيهما بالألعاب الرياضية ، وتمشيان على
 أقدمهما كل يوم ساعات حتى تقوما إطلاق ردفيهما إلى التهدل
 والابحاح لتصبح مؤجرة كل منهما كأنها هودج حمل تحمله عبي
 طهرها .. ولكنها هى لا تهتم بمقاومة السمنة .. بل إنها تعودت أن
 تزهر بها .. فهى رغم هذه السمنة تحس كأنها أجمل أخواتها وأنوثتها
 أشد إغراء من أنوثتهن .. يكفى جمال وجهها .. إنها مد كانت صغيرة
 والعائلة كلها تتغنى بجمال عينيها الواسعتين .. واكتنار شفتيها كأنهما
 أعدتا للقبل .. وأنفها الرفيع المتعالى كأنه تحفة غالية تركها الله على
 وجهها .. وحديها المشدودين اللذين يحملان بريق قمر الرابعة
 عشرة .. وشعرها الطويل فى لون الليل الذى تنفس فى عقصه وابتكار
 ضفائره .. وكل هذا الجمال .. جمال وجهها .. يزداد جمالا مع

ازدياد سميتها مهما حدث لقوامها.. كأن كل الرجال يكتفون به على
ملهوفين إلى وجهها ولا يخطر لهم الاطلاع على قوامها ..
وكانت أحيانا تتعجب من حكمة الله في خلق أفراد العائلة .. إن
نساء العائلة بما فيهن أمها سمينات .. إما يعشن مقومات للسمه ، بما
تطلق أحسادهن ويحمن كل يوم مريدا من اللحم والدهن كما يحدث
لها .. وذلك بعكس رجال العائلة بما فيهم أبوها .. كلهم لا يتعرضون
للسمه .. ولكن مهم قوام رشيقي لا يبدل أى مجهود للاحتفاظ
برشاقتها .. حتى زوجها محمود .. إنه فارغ القوام ليس رفيعا كعبد
القصب ولكنه أيضا ليس سمينا كشجرة الحمير .. وهو لا يهتم أبدا
إذا كان سمينا أو رفيعا .. ولم يخطر على باله أبدا أن يزن نفسه في
الميزان .. ومعروف عنه أنه أكل .. بل إنه يفوقها في شهيته ويأكل
أضغاف ما تأكله .. إذا أكلت طبق شرابية أكل طبقين .. وحتى
لا تحتل أكثر من نصف فرخة بينما هو لا يترك من الفرخة كلها شيئا
بل إن طبعته في الإقبال على الأكل كانت تفتح شهيتها أكثر .. بل قد
يدفعها إلى تحدى شهيتها فتأكل أكثر .. كما دائما كأنهما يتنافسان
فيمس بتنمغ بالأكل أكثر .. ولكنه لا يتغير أبدا مذكرفه .. ولم يمس
ولم يتفخ ولم يتهدل قوامه .. إنه محتفظ دائما برشاقة قوامه دون
يبدل أى مجهود أو يطلق على نفسه أى شروط للاحتفاظ به ..
الرشاقة .. وكانت تقول ضاحكة : إن ما يأكله لا يطبق أن يبقى في
أمعائه أو ينتشر لينام في لحمه ، ولكن كل ما يأكله يهرب منه ويتركه
كما دحبه فلا يمس به .. وتتسع ابتسامتها وهي تقول لنفسها إن كل
سهما يكمل الآخر .. فهي تحتفظ في جسدها بالأكل الذي يهرب من

جسده .. أى أنها ليست سمية بما تأكله وحدها ولكن بما تأكله
معا ..

وكان قد مضى أكثر من عشر سنوات على زواجها عندما بدأت
تحسن أن زوجها محمود يتغير .. إنه لم يعد يسرف في تحسها عندما
تكون في أحضانها كما تعود وعودها .. ولم يعد يلعب كثيرا فوق ملعب
جسدها .. بل تقتضى ليالي طويلة دون أن يمد يده ليلمسها .. وإذا
حاولت هي أن تلمسه استقبل لمستها في برود وقال بكتة تافهة ثم أدار
لها ظهره .. وأحيانا تمر بها ليلة يبدو فيها أنه تذكر مسئوليته فيقل
عليها .. ولكنه لا يتحسها بهذا الانبهار الذي كان دائما يلزمه
ولا يلعب في ملعبها بهذا الفن الذي كانت تعتبره دائما متحصصا فيه ..
ولكنه يبدو كأنه يقوم بمهمة روتينية .. ويحرص على أصول النعمة حتى
يدخل الحول في الملعب .. وقد أصبح الحول الذي يدحبه عاديا كأنه
حول في منعب يفرده فلا يثير اسهارة ولا تحس فيه بروعة النعمة ..
وكانت تطرد هذه الأحاسيس بمحاولة إقاع نفسها بما تسمعه بأن
الحياة الزوجية لا يمكن أن تستمر طويلا كما بدأت .. وعلاقة بين
الزوج والزوجة تتطور بتطور الزمن .. لا يمكن أن تنتظر من زوجها اليوم
ما كانت تنتظره من طوال السنوات الماضية .. ولتعترف أنها هي نفسها
تطورت وخفت تهاوتها على زوجها عما كان عليه .. الحب لا يزال كما
هو .. إنها نحوه نفس الحب الذي جمعها وتروجا به .. ولكن مطالب
الحب تطورت وأصبح لها أشكال جديدة وأساليب جديدة ورنه
جديدة .. إن كل مولود أنجبته أخذ من حبها له .. ولم يعد هو وحده
كل الحب .. وكلما كبر المولود أخذ أكثر .. ولعله أخذ من حبه لها

كما أخذ من حبها له .. لم يأخذ الحب نفسه ولكن من مطالب واحتياجات هذا الحب ..

ولكن زوجها محمود يتعب أكثر .. حتى شهيته للأطباق التي تقدمها له بدأت تحمت .. لم يعد فيها هذا الابهار الذي يطلق شهته حتى يأكل كأنه لم يشبع أبدا .. رغم أنها بذلت مجهودا حتى تصل إلى أطباق جديدة وألذ تقدمها له .. بل إنه بدأ يعتذر عن تناول العشاء في البيت بحجة أنه مدعو دعوة عمل .. لم يكن هذا يحدث من قبل .. وأكثر من ذلك .. لقد بدأ يغيب ليالي طويلة .. بحجة السفر إلى الإسكندرية لإبحار عمل .. وحدث أن كانت الحجة هي السفر إلى الخارج .. وقد حدثها عن أعمال جديدة بدأ يتحمل مسئوليتها .. ولا تدري لماذا لا تستطيع أن تصدقه وتعلم على إحساسها بأنه يحدعها .. يكذب عليها .. وقالت له مرة :

— لقد تعبرت ..

وقال وهو يرت عليها كأنها طفلة لا تفهم شيئا ويحس يقصها على حدها كأنه يعطيها قفزة من الحلوى تشغل بحلوائها :

— كل شيء يمكن أن يتغير إلا أنك زوجتي وأم أولادى .. أنت العمر كله ..

وكان الشيء الوحيد الذي لم يتغير هو حرصه على الاهتمام بمطالب البيت واحتياجات أولاده .. إنه مهما تعب لا يهرط في مسئولياته كزوج وأب .. وهى بالسبب له لم تعد سوى زوجة وأم ..

هى أن بدأت تسمع كلام الناس ..

لقد أصبحت له امرأة أخرى .. وقبل إنه تزوجها رواحا عرفيا .. لعلة أراد أن يحتفظ لها هي وحدها بالزواج الشرعى .. شكرا ياسى محمود .. ولكنك لا تدري أنه أهون على أن أموت من أن أعرف أن لك امرأة أخرى سواء تزوجتها زواجا شرعيا أو عرفيا .. حتى لو كانت مجرد امرأة تحسبها كما تحسبنى ..

وبدأت خواطرها تعذبها .. وأفكارها تعصف بها .. هل تصارحه بما عرفته وبما تقول به الناس .. ولكنها لو صارحته فيجب أن تصعه موضع الخيار .. إما أن يترك الأخرى ويعود لها كما كان .. وإما أنه يتركها هى .. يطفئها .. ولكنها لا تحتمل مجرد تصور الطلاق .. إنها لا تستطيع أن تتصور أنها تستطيع أن تعيش في قلب غير القلب الذي تعيش فيه هى وأولادها .. وإذا كان من حقها أن يحتار بينها وبين لأخرى فهي لا تستطيع أن تحتار .. ليس لها حياة أخرى إلا حياتها معه .. حتى لو كانت له امرأة أخرى ..

وكانت حواصرها تعصف بها فتقبل على الأكل أكثر .. إنها تشعل نفسها أكثر بالمطبخ كأنها تاجاً إليه تنهرب من حواصرها .. ثم تحس لتأكل فتأكل أكثر دون أن يحس بما تأكله .. لا يضعه ولا يلدنه .. إنما فقط تحرك أسانها كأنها تمزق حواصرها التي تعذبها .. وإرداد ورها أكثر .. سمعت أكثر .. حتى كأن جسدها لم يعد يستطيع أن يشد جلده ويشد بعضه ببعض فبدأ يبدو عليه حواش مترهنة ..

وحضر لها خاطر تمكس منها .. إنها تريد أن ترى هذه المرأة الأخرى .. ماذا أعجب زوجها فيها .. كيف استطاعت أن تأخذه معها .. وقد أنها تركت لها حجاب الشرعية في الزواج بها وحدها .. تريد

أن تراها لتكتشف سرها وتحاربها فيه حتى تضمها من حياة زوجها وتسترده حالصا لها كما كان ..

وسعى معها بعض الصديقات حتى استطاعت أن ترى هذه المرأة الأخرى .. رأيتها من بعيد .. لا يمكن أن تكون أجمل منها .. ليس لها جمال وجهها .. ولا عيناها المعتننان .. ولا شفتاها المكتنزان .. ولا شعرها الطويل في لون النيل .. ولا وجنتها كشمس القمر .. ولا لونها الأسمر الفاتح الرقني .. ولكنها رفيعة .. ليست سميكة منصحمة مثلها .. إنها لا تستطيع أن تذكر أن لها قواما رشيقا هذه الرشاقة التي تأخذ الناس وإن كانت هي لم تعترف بها أبدا هي تقدير جمالها .. لعل زوجها انجذب إليها إلى حد الانهيار لأنها رشيقة .. رفيعة .. بعد أن شبع من اللعب فوق جسدها السمين حتى صاق به .. إنهم يقولون إن الرجل يجذب إلى اقوام الرشيق حتى مع انخفاض نسبة جمال الوجه .. وقد بدأت تعترف بضعف جذبها لزوجها والاحتفاظ به لأنها سميكة .. وكأنها تعذره .. بل كان قد مر بها خاطر أن يكون لها هي الأخرى رجل آخر كما أن لزوجها امرأة أخرى .. ويعيش كل منهما وله ما يعنيه عن الآخر من هذه الناحية .. ناحية الإشباع الجسدي .. ولكن .. أي رجل آخر يقبل على إشباع هذا الجسد السمين الذي أصبح مترهلا .. جسد لا يستطيع أن يجذب رجلا ويعبره إلى حد أن يصل به إلى الحب .. إنها قد لا تصلح .. لا إلى رجل مأحور أو رجل يريد أن ينهو ويشهر بها ..

ماذا تفعل لتستمر بها الحياة بعيدا عن هذا الضيق الذي يكاد يكتم أنفاسها ؟؟

ليس أمامها إلا أن تريل سميتها .. أن تخس .. وتعود جذابة معرية كما كانت في صباها ..

إلى ورثها الآن حسنة وتسعون كيلو ويحب أن تحمسه إلى ستين كيلو فقط إذا أرادت أن تصل إلى مستوى الرشاقة .. أي يحب أن تطرد من على جسدها خمسة وثلاثين كيلو ..

هل تستطيع ؟

إنها مصممة بمصرة على المحاولة حتى ولو ماتت في سبيلها .. وتتف حو بها أحوالها وصديقتها وكل منهن مشروع وبصيحة .. وأخبت إلى سبب محض "عطش" دواء يصد نفسها عن الأكل .. وطب حرا أعد لها علاجا للبيع .. وانضمت إلى معهد محصص في التدريبات الرياضية .. وكانت تخرج من بيتها في الصباح الباكر لتسير على قدميها ليس أقل من ساعة .. ولكنها تعة .. وتكاد في كل ساعة أن يتقلب يأسها على أمها .. لقد ثبت أن أدوية صد النفس أضعف من مقاومة شهيتها .. وقد تمنع عن الأكل يوما لا يفصل تأثير هذه الأدوية ولكن بفضل إصرارها على المقاومة .. مقاومة شهيتها .. ولكنها تصعب في اليوم الثاني وتجدع نفسها بألمة واحدة .. وتستسلم إلى لقمتين .. وثلاث وأربع .. كما أنها لا تستطيع الاندماج في العلاج الطبيعي ومعاهد التجميل .. إنها تكاد تنام ملء جفניה كلما امتدت راقدة على ظهرها لتبدأ الحركات المفروضة عليها .. ثم إنها لم تعد تحتمل هذه الساعة التي تقصها كل صباح سيرا على قدميها .. إنها تحس أنها تسير وعلى ظهرها حمل ثقيل يكاد يكتم أنفاسها .. وبدأت تنسجم لبأس ..

لا أمل ..

إلى أن ضح المجتمع بوصول الدكتور صبرى طبيب التجميل .. لقد جاء من أمريكا بعد أن أتم دراسته هناك واشتهر هناك فعلا حتى وصلت شهرته إلى مصر قبل أن يصل إليها ..

وقد قام الدكتور صبرى بمعجزات يتحدث عنها كل الناس .. لقد غير وجه السيدة سميرة حتى جعلها ملكة جمال بعد أن كانت فى الدرجة الخامسة أو العاشرة بين الجميلات .. وعمليات شد الجلد يقوم بها كأنه يأمر الجلد بأن يشتد فيشتد .. وكل العانين والعانات أصبحوا يعيشون داخل جلد الدكتور صبرى .. وعملات تجميل الثدي حدثت كل النساء القادرات على دفع الثمن .. إنه لا يكتفى بتخسيس الخدى أو شد ترهله بل إنه يستطيع أيضا أن يبرز الثدي الصغير الذى يكاد يكون بلا كيان وكأن صاحبه ليس لها ثدى .. يستطيع أن يصنع على صدرها قطعا من اللحم يبرز ثديها حتى يتعنى الناس بحمالة .. و .. و ..

يجب أن تذهب إلى الدكتور صبرى ..

وفحصها الدكتور صبرى طويلا بمعدات كثيرة جاءت معه من أمريكا ، ثم قال فى لهجة الأستاذ الكبير دون أن يحفف من كلماته رحمة بها :

— لا أمل .. إن وزنك كله مركز فى طقة من الشحم تحيط بجسدك كله من تحت جلدك .. وأى علاج طبيعى أو علاج بالأدوية المركبة لن يؤدى إلى نتيجة سريعة .. ربما هى أكثر من خمس سنوات يمكن أن تزيل من طقة الشحم حمسة كيلو حرامات .. أى نقيين كما أنت .. والوسيلة الوحيدة هى أن تزيل صفة الشحم بعسبة جراحية ..

وقفت بسرعة وهى مبهره ..

— موافقة على العملية جراحية ..

وقبضت فى هدوء

— إنها عملية ليست عديدة .. وهى ليست واحدة ، إنها عدة

عمليات ..

وقالت كأنها تمنع مستحدية ..

— إني مستعدة ..

وقبض وهو لا يرب فى هدوء الأستاذ :

— إني مضطرب أصب منك أن تكتفى بى ورقة سوافقتك ..

وقفت بسرعة ..

— حصر ..

وقبرت ناحية مكبه تبحث عن قلم وورقة تكتب به موقتها على

إجراء عملية ..

وقبضت مسندتة بشماعة إشفاق :

— يس اليوم .. سأراك بعد ثلاثة أيام تكوين جراحاتها قد داومت

التفكير مع تصور خطورة العملية .. وأكون جراحاتها راجعت ما أحتاحه

من دراسات خاصة بهذه العملية ..

وعادت إلى البيت وقالت لزوجها وكأنها فرحة :

— سأجرى عملية ..

وقبض فى دهشة :

— ماذا .. ليس بك شئ ؟

وقبض وهى تصر إليه بكل عيب كأنها تريد أن يحسن أفعالها

نفسها من أجله :

— إنها عملية تحسيس .

ونظر إليها سائرا وقال ضاحكا :

— بعد هذا العمر ؟!

وقالت وهي تلوى شفتيها عاضبة :

— إنني لأزلت في عز شبابه .. أم أنك أصبحت تعتبرني عجوزا ..

قال كأنه يحتقر :

— أقصد العمر الذي عشناه معا ..

قالت وهي تدارى حبثها :

— أخشى أن تكون قد بدأت تفضضني رقيقة ..

وقال في لهجة باردة لا تعبر عن عاصفة :

— إني أريدك كما أنت سميكة أو رقيقة .

وفاتت وهي تحاول أن تصحّث :

— لقد قررت أن أحرقك وأنا في شكك حديد .

ولم يرد بشيء ولم يعقب بشيء على إجراء هذه العملية .. لا يوافق

ولا يرفض ..

وح تفت شيئا عن هذه العملية إلا زواجها وأحوالها البات وأوصتهم
بالأبدى الحر ويحتفظ به سرا . إن عمليات التحميل لا يعنى
عنها .. وكأن كل امرأة حريصة على أن تحتفى أنها في حاجة إلى عملية
جراحية لتكون جميلة .. وكثيرات من النساء يسافرن إلى أوروبا بحجة
متعة السباحة والخراب في حين أنهن مسافرات لإجراء عمليات
لتحصيل .. ولا يكتشف الناس الحقيقة إلا بعد أن يعدن بأنفس جديدا .

أو ثدى جديد .. أو جلد مشدود ..

وبدأ الدكتور صبرى فى إجراء العملية .. وقضت شهرا وبضعة أيام
وهى فى المستشفى .. إن عمليات التحميل تتطلب وقتا أطول من الوقت
الذى تتطلبه العمليات العادية .. ولم تكن عملية واحدة .. لقد أجرى
لها الدكتور صبرى العملية الأولى .. ثم بعد ثلاثة أيام أجرى لها عملية
ثانية .. ثم بعد أسبوع أجرى لها عملية ثالثة .. عمليات شملت كل
جسدها من أول صدرها حتى فخذيها .. ولكنها لم تشعل وجهها
وعقها .. وكانت عمليات لإزالة طبقة الشحم من فوق لحمها ومن
تحت جدها .. وقد عانت كثيرا .. عانت الآلام وعذاب كل قطعة من
جسدها حتى إنها عاشت الشهر الكامل وهى تحت تأثير محدر لا تكاد
تفريق منه حتى تبدأ فى الصراح وتلحقها الممرضات بحقنة أخرى من
المحدر ..

وانتهى كل شيء .. ورفع الطبيب الضمادات السمكية التى تلف
جسدها ووضع مكانها قطعة من الشاش واللاستيك الحفيف .. ولكنه
لم يسمح لها بمعادرة الفراش .. وبدأت وهى راقدة تحس قوام
جسدها الجديد .. إنها تحس فعلا أنها تعيش داخل جسد جديد لم يكن
لها أبدا .. إن ثدييها أصبحا صغيرين مشدودين كتدبيى ابنة الرابعة
عشرة .. ولكن ما هذا ؟! .. إن على كل جانب من جنبها وتمتحت
ذراعها حفرة طويلة عميقة كأنها قدة مفتوحة .. ويسقط فيها جلدها
كأنه قطعة من القماش معلقة فوق شماعة .. وكل فلكة من فلكتى
المؤخرة فيها حفرة عميقة كأنها بئر .. وفى أكثر من مكان من جسدها
حمرات أو قطع بارزة .. إنه جسد مشوه ..

ودخل عليها الدكتور صبرى فقالت له كأنها تستغيث وعيناها فى هلع :

— يادكتور .. لقد أحسست أن فى جسدى ..
ولم يتركها الدكتور صبرى تتم وقاطعها فى لهجة أمرة :
— لا تقولى شيئا إلا بعد أن أسمح لك بترك فراشك ..
واختفى من أمامها .. وما كاد يخرج من الغرفة حتى دخلت وراءه السيدة لطيفة هانم .. وفغرت فاهها دهشة حتى كأنها تهتم بالصراخ ..
إنها تعرفها .. إن لطيفة هى ابنة الباشوات القدامى التى احترفت تقصيل الفساتين وافتتحت محلا للأزياء أصبح أشهر وأعلى محل أزياء فى القاهرة .. وهى لم تذهب إليها فى المحل فلم تكن وهى سينة تهتم بالأزياء التى تختارها إلى حد أن تذهب إلى لطيفة هانم ..
— إن الدكتور صبرى أوصانى بأن أعد لك ثوبا جميلا .. وحالا ..
ولم ترد عليها إلا بالدهشة التى تملأ عينيها .. وتركها تكشف عنها غطاء السرير وتبدأ فى أخذ مقاييس جسدها .. لاشك أنها لمحت التشوهات التى فى جسدها .. وستفضحها .. ولكن لعل الطبيب أوصاها بأن تحتفظ بأسرار العملية سرا .. وقالت للطيفة هانم بعد أن خفت دهشتها :

— والقماش ؟

وقالت لطيفة هانم بلا اهتمام :
— لقد أوصانى الدكتور صبرى باختياره .. وأنا وثقة أنك ستوافقين على اختيارى ..
وبعد دقائق عادت لطيفة تقول :

— قد أعود إليك بالثوب غدا بعد الظهر ..

وقد عادت إليها تحمّل الثوب الجديد ودخل معها الدكتور صبرى نفسه ومعه اثنتان من الممرضات .. وجلس الدكتور على مقعد كأنه فى انتظار إجراء تجربة ، بينما جذبتها الممرضتان من فوق السرير وبدأت لطيفة هانم تلبسها الثوب .. وألبستها أيضا حذاءها العالى الذى كانت قد جاءت به إلى المستشفى .. ثم أوقفته أمام مرآة طويلة .. ونظرت إلى نفسها فى ذهول .. إنها فعلا أصبحت رشيقة .. ليست رفيعة ولكنها رشيقة وحتى وجهها الذى لم تشمله العملية قد تخلّص من انتفاخه ربما نتيجة الإعياء الطويل .. وعنقها أصبح رفيعا وكأنه طال .. إنها امرأة أخرى غير التى كانت يعرفها الناس وغير ما كانت تعرف نفسها .. وابتمت فرحة .. إنها ستذهل الناس بقوامها الجديد .. ولن تقول أكثر من أنها اتبعت رجيمًا حتى خست .. وسألها الدكتور صبرى وعيناها تيرقان كأنه يهين نفسه :

— مارأيك ؟ ..

وصاحت :

— هايل .. تسلم يداك يادكتور ..

واستمرت تبحلق فى نفسها أمام المرآة بل إنها انطلقت حتى أخذت تحدث لطيفة هانم عن بعض التعديلات فى الثوب .. ثم فجأة سكنت واختفت ابتسامتها وغاصت فرحتها .. لقد تذكرت أن هذا القوام الذى تراه فى المرآة هو قوام مشوه من تحت الثوب .. وقال لها الدكتور صبرى مبتسما :

— لقد أردت أن ترى نفسك كما أردت أن تكونى .. رشيقة ..

وقال مقاطعا :

— لقد حققت لك ما أردت منى .. وكل ما فى جسدك لن يراه الناس .. لن يروا إلا رشاقتك ..

قالت: وكأنها تهتم بالبكاء :

— ولكنى أنا أرى جسدى .. ومن حق زوجى أن يراه ..

قال فى لهجة حادة :

— هذا ما تتحملينه أنت وزوجك .. وكل مسئوليتى كانت أن أرفع لك مظهر السمنة وأوفر لك مظهر الرشاقة .. وربما تلاحظين أنى قمت لك بعملية شد جلد فوق ذراعيك بعد أن أزلت عنهما طبقة الشحم .. لأن ذراعيك يكملان مظهرك .. أما باقى جسدك فلم أستطع أن أصنع فيه شيئا .. إني فخور بهذه العملية .. إنها أجراً لعملية قمت بها حتى اليوم .. وسأراك بعد عام على الأقل فرمما استطعت أن أجد حلاً لما تركته فىك العملية ..

وقام متصرفاً قائلاً دون أن يمد يده لها مصافحاً :

— الحمد لله على السلامة .. ومبروك ..

ولطفة هانم قبلتها بحرارة وهى تكرر .. مبروك .. ألف مبروك .. والمرضتان تكادان تزغردان فرحة بنجاح العملية .. وظلت هى فى الثوب التجديذ إلى أن جاء زوجها لزيارتها فى المستشفى كعادته .. وبهت وهو يراها واقفة أمامه .. إنها رشيقة .. إنها امرأة أخرى .. وهم أن يحتضنها فرحاً بها .. ولكنها ابتعدت عنه بسرعة صائحة :

— لا تلمسنى ..

وقدر زوجها أنها لا تزال فى المستشفى وحقت عنه فرحته بها المبلغ الضخم الذى دفعه للطبيب والمستشفى .. وكانت القابضة تضم ثمن الثوب الذى أمر به الطبيب وأتعاب لطيفة هانم .. ولكنها بعد أن خرجت وعادت إلى البيت أصبحت حريصة على ألا يرى زوجها أو أولادها جسدتها .. وتعهدت أن تلبس ثوبين للنوم فوق بعضهما حتى تغطى القنوات والآبار التى تركتها العملية فوق جسدتها .. لم ير أحد هذه القنوات إلا أخواتها البنات .. ورثين لها بعد أن صدمن بما رأين .. وقالت أختها وهى تقاوم ألا تبكى عليها :

— لا يهملك .. إنك لا تظهرين أمام الناس عارية ..

وقالت وهى تبكى :

— وزوجى محمود ..

وقالت أختها وهى تدبر عينها عنها :

— إنه لم يعد يستحق قطعة من جسدك ولا ظفر أصبعك ..

ولكن زوجها يحاول معها فى كل ليلة وهى تصبح مبتعدة عنه :

— لا تلمسنى .. لا أستطيع أن أحتمل مجرد لمسة ..

ولكنها تركته يقبلها .. إنها هى نفسها فى حاجة إلى هذه القبلات حتى تخفف من حرمانها .. ولكن زوجها انهار فزورها مرة .. واحتضنها كلها .. ومد أصابعه تحت ثوبها .. وبدأ يحاول .. ولكنه عاد وانهار بعيداً عنها وهو يقول :

— ما هذا .. إني أخاف أن أقرب منك .. هل قمت بعملية تجميل أن

عملية تشويه ؟ ..

ولم يعد من يومها يحاول أن يقترب منها أو يلمسها .. بل ضاع
انهاره برشاقتها الجديدة وأصبح ينظر إليها كأنه قرفان منها .. وعاد إلى
أسوأ مما كان .. منطلقا بعيدا عنها .. وطبعاً مع المرأة الأخرى ..
ولكنه لا يطلقها ..

وقررت أن تستغل مظهرها الجديد .. مظهر المرأة الحلوة
الرشيقة .. وبدأت تتردد على المجتمعات وتغيظ زوجها بالتردد على
سهرات الليل .. وقد أصبحت زبونة دائمة لمحلات أزياء لطيفة هانم ..
إنها الوحيدة التي تعرف أسرار جسدها وتحفظ بها فعلاً كسر لا يعرفه
أحد ..

وقد لاقت نجاحاً في المجتمع .. كل الناس يرونها كمرأة جديدة لم
يعرفوها من قبل .. امرأة لها كل هذا الجمال وكل هذه الرشاقة ..
والتقت هذه المرأة الجديدة بأول رجل آخر يدخل حياتها .. أدهم ..
إنهما بطلان في أحاديث التليفون .. وفي لقاءاتهما بالمجتمعات
العامة .. وهو يريد .. وهي قد بلغ بها العجز أمام زوجها إلى أنها
أصبحت تريده هي الأخرى ، تريده وتمناه .. ولكن ماذا تستطيع أن
تعطيه .. لم يعد لها جسد تعطيه .. لم يبق لها من هذا الجسد ما تستطيع
أن تعطيه إلا شفتاها .. وقد أعطته شفتيها وهي حريصة ألا تترك له
الفرصة ليتمحسب باقي جسدها .. وعذرها الذي تواجه به دائماً معها ..
إنها لا تستطيع أن تعطي أكثر لأنها امرأة شريفة .. إلى أن وصل إلى أن
أصبح يضايها للزواج .. ولكنها تجد أيضاً العذر الذي تواجهه به .. إنها
لا تستطيع أن تترك زوجها لأنها أم لا تقبل أن تصحى بأولادها ..

وأحياناً يشتد بها الندم على إجراء هذه العملية حتى تبتكي بدموع
طفلة ساذجة مغرورة .. واشتد بها الندم بعد أن مر عام وعادت إلى
الدكتور صبرى وأبلغها أنه لم يجد حلاً لعلاج تشوهات جسدها ..
سبقى هكذا العمر كله .. إنها لو كانت قد احتفظت بمسئلتها لكأن
تعطى زوجها أكثر مما تعطيه الآن .. أو ربما كان أدهم قد أحبها وهي
سمنة كما أحبها وهي رشيقة .. إنها كما قال زوجها لم تقم بعملية
تجميل بل بعملية تشويه .. قامت بعملية كتبت عليها الحرمان العمر
كله .. ربما أراد الله أن يعاقبها ويعذبها لأنها تحدث إرادته ..

فهرس

صفحة

٣	لا أب ولا أم
٢٤	إلى أن أصبحت تعيش الخوف
٤٢	لا إله إلا الله
٥٣	كانت غشاشة
٧١	من أطلق هذه الرصاصة ؟
٨٦	كانت تزور قبر حياتها
١٠٤	وتأملت بعد العمر الطويل
١٢٠	إنني سعيدة فقد أكلوا الحمى
١٣٣	مهندس ميكانيكى
١٤٩	كلهم يدخلون .. وكلهم يخرجون
١٧٦	هكذا تزوجها
١٩٣	لقد أصبحت رشيقة

رقم الإيداع ١٨١٣ — ٨٥

الترقيم الدولى ٤ — ١٣٧ — ١١ — ٩٧٧